لولاها

محمد كمال

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : لولاها

المؤلف : محمد كمال

تدقيق لغوي : محمود بكري

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم ايداع : 19711 - 2019



دار مسار للنشر و التوزيع



01020439639



massar.pub1@gmail.com



ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

محمد كمال

لولاها



إهداء

إلى من قال في مقال «نوستاليجا»

«هل فهمتَ الآن الحكمة من كونِ عمر الإنسان، لا يتجاوز الثمانين على الأغلب؟.. لو عاش الإنسان مائتي عام لجُنَّ من فرطِ الحنينِ إلى أشياءٍ لمْ يعد لها مكان..»

إلى العرّاب.. د. أحمد خالد توفيق.

«ربما نظنُّ أن النسيان محزن. لكن الأشد حزنًا؛ أولئك الذين
يحملون مرارة طفولتهم، حتى آخر أيام حياتهم».

- دينيس آفيلا

نسى فتى في بداية العقد الثالث من عمره كل شيء تمامًا ودفعة واحدة بمجرد أن لامست قدماه أرض مدينة من المدن! ولقد كانت كارثة بمعناها المعروف، إذ أن ما في قرص دماغه قد أمحى وأمحق، كأن أحدهم وضعه في جهاز (كمبيوتر) وظلل واختار (الكل) ومسح.

الغريب أنه كان سليمًا معافًا، فلا أثر لحادث يرجع إليه السبب، ولا لصداع في الدماغ، ولا لشعور بغثيان كبداية لإغماءة أو نحوه.. لا شعور، كان حقًا لا يشعر! والأغرب أنه كان بكامل إدراكه وكامل وعيه. لم يكن يعرف أنه في عالم النسيان، الذي يُعرف في عالم آخر بعالم الشفاء! وأنّي له أن يعرف؟! ولأنه صار ناسيًا، لم يتعجب مما رأته عيناه، لم يثره منظر السماء أو الأرض من تحت قدميه أو المكان المتواجد فيه، كل ذلك لم يحرك فيه شيئًا.. والحق أن لا شيء فيه كان يتحرك، لا شيء كان يعمل سوى خارجه، أما دواخله، فكانت معطلة. فحتى لو لم يكن ناسيًا وعرف أنه - فيما مضى - كان في عالم آخر يختلف عن هذا، لن يندهش، لأنه كان لا يشعر. برهة ضئيلة من الزمن حدث له خلالها التغيير المفاجئ، كانت كفيلة بأن تنسيه الدرج الحجري خلف ظهره.

بعدما ارتكز على يديه واعتدل، التف حول نفسه ونظر للدرج، ولم يثره في شيء، وبدأ في التحرك.

كان اليوم الطويل هلوفًا غائمًا، بين ليل ونهار، نظرة للسماء، لا شمس فيها، والسحب ركامية موشكة أن تكون هتون، لكنها لن تمطر بالتأكيد، ومن يدري؟ ربما تمطر.

لم تثر السماء اهتمامه، استمر في الحركة، غذ الخطى حتى قاربت أن تكون عدوًا، ثم أطنب في عدوه حتى ابتعد عن الدرج الحجري بكثير. نظرة للخلف، لم يتفاجأ من كونه قطع أميالًا، وصار بينه وبين الدرج الحجري بون واسع، ألِيّ في مشيه وصارت خطواته بطيئة متقاربة.

مَن هو؟

أين يذهب؟

من أين أتى؟

ماذا يريد؟

ما الذي حدث للمكان؟

لا يدري. ولم يكلف نفسه عناء طرح الأسئلة والبحث عن إجابات. وإن فعل لن يجد ردًا من ذاته على ذاته سوى الصمت. وبرغم ذلك أجال نظره في كل شيء حوله ورأى..

دور متهدمة، بنايات متهالكة وأخرى قائمة موشكة أن تنهار، من الجنون أن يتواجد بداخلها ساكنون (لم يخطر بباله أن

يُحدّث نفسه بهذا). سيارات متخبطة، وأخرى سليمة، متراكمة فوق بعضها ومتفرقة، يبدو أن بعضها يعمل، لكن لا أحد يهتم. وخيول تسير ببطء، وأخرى نائمة، وأخرى واقفة، أدوات قديمة وحديثة، سيوف ورماح، أسلحة متقدمة، حاجيات ومستلزمات جديدة ومستهلكة، لا يحدد الناظر إليها إن كانت قد استعملت في عهد غابر، أم أنها استعملت قريبًا. أشياء لا حصر لها متكدسة في الشوارع، متروكة بغير تنظيم، كأنها إنما أفلتت من الآيادي، أو تعمدت الآيادي أن تفلتها، أشياء تبدو كقاذورات ملقاة في مجمع لها.

ورأى فيما رأى أشجارًا قد اجتثت من أماكنها، منتشرة في مواضع عديدة من الأرض، وأشجار أخرى مائلة، وأشجار محافظة على اتزانها، لكنها تبدو كأن خريفًا دب فيها، عارية من الأوراق التي لم تُرَ تحتها، لم يسأل نفسه: أهواء قد طار بها إلى مكان غير بعيد أو بعيد، أم أن أحدًا قد جمعَها، أم أن هذه الأشجار لا تورق من الأساس؟ كانت عارية، شبه متفحمة، ولكن من دون أثر لدخان متصاعد أو نار متقدة.

لم تظهر عليه أية أمارة تدل على دهشة أو ريبة أو تساؤل، وأكمل سيره. راح يجوس خلال الديار، لا يعرف لماذا. أعداد الناس التي لم يلقِ لها بالًا، كانت غفيرة، يسيرون في جماعات وفرادى، يبدو أن لا أحد يهتم بالآخر، وربما لا يعرفون بعضهم البعض،

يسيرون في تكاسل وكلل، يشبهون إلى حد كبير (الزومبي) لكنهم غير متعبين.

هام على وجهه بدون وجهة، حتى وجد نفسه بشكل فجائي قد صار خارج المدينة، وعلى مشارف أرض صحراء صفراء بلقع، مفاوز واسعة، أو أنها تبدو مثل ذلك، لم يميز.

حام حول نفسه، توقف، نظرة للخلف من حيث أتى، تبدو المدينة كأن قنبلة حديثة عظيمة قد ألقيت عليها، لكنه لم يتفاجأ وكأنه لم يلحظ شيئًا ذي بال، ولم يجئ على باله أن يتفكر في الأمر ويبحث لتلك العبثية عن تفسير. ما هذا بحق الجح.. ما هذا بحق الله. بالطبع لم يسأل نفسه، لكنه لم ينسَ الله. نظر للسماء كأنه يريد أن يناجيه سبحانه، ناجاه ولكنه لم يسأل عما صار أو عمن هو.

بدت المدينة خربة، والسماء لا شمس فيها (حتى وإن كان الجو غائمًا، يستطيع المرء أن يحدد هل في السماء شمس أم لا) ومناظر الناس مريبة، وملابسهم بدائية بالكاد تستر عوراتهم. فقد كان معظمهم يرتدون لباس من أوراق شجر، الآن يمكنه معرفة أين ذهبت أوراق الشجر، إن أراد ذلك، لكنه لم يهتم. ولم تتميز النساء على الرجال في لبسهن، إذ أنهن كن يرتدين أوراق شجر أيضًا، وعلى الرغم من ذلك، لم يخالجه ناحيتهن شعور بشبق مع أنهن كن شبه عراة. أفي هذا العصر الحديث أناس لا يزالون على

البدائة؟ لم يسأل ولم يهتم، ومؤكد أنه ومع كامل إدراكه لم يكن يعرف في أي عصر هو. والآخرون يرتدون ملابسًا تشبه إلى حد كبير ملابسه التي يرتديها، مختلفة وتعود أصولها لعهود شتى.

لم يثر فضوله شيئًا، مثله في ذلك مثل الآخرين، ولو مكثوا بقية حياتهم هنا وحتى مدية الحياة - البعض منهم قد يفعل - لن يتساءلوا.. والسبب أنهم كانوا في عالم النسيان، الذي كما سبق الإشارة إليه يسمى في عالم آخر بعالم الشفاء.

عالم آخر! وهل توجد عوالم أخرى؟

ظل ينقب في المدينة طويلًا، امتد به الزمن وطال، دونما وصب ولا نصب، وفي ظل تلك السيرورة، ظلت عيونه محدقة يقظة، لم تعرف الكرى، وظل بدنه صحيحًا نشطًا، لم يعرف الإجهاد أو الجوع والعطش، ولم يكن بحاجة إلى التغوط.. ولم يعرف عقله الزمن!

***

نظر للأفق البعيد، يبدو بعيدًا جدًا أكثر من المعتاد، أكثر من المعتاد؟ وهل اعتاد رؤية آفاق أخرى؟ لم يندهش كما عودنا، ولكن كيف؟ هل نظره هو الذي اشتد في ذلك الوقت، أم كان الأفق بعيدًا حقًا؟! ولكن لو ترامى الأفق وابتعد، هل كان سيراه

ببصره المحدود، أم أن البصر يمتد بطول الأفق ومسافته مثلًا والسماء؟ كديدنه لم يسأل.

لا يبدو أنه سيسير في هذه الفلاة المقفرة، بالفعل عاد القهقري بيسر وتؤدة، دلف للمدينة ثانية، سار طويلًا، لم يشعر بملل ولا كد، ولم يستعجب، لكنه وبعد عدة أمتار لا تبدو في حسابها مثل الأمتار المعروفة، توقف. وجاء ذلك بعدما رأى شابًا يشير باتجاهه من بعيد.

استدار للخلف وشَخَص ببصره، فلم يجد أحدًا وراءه، نظر أمامه باتجاه الشاب، ورفع يده اليمنى وقبض على أصابع كفه مفلتًا سبابته مشيرًا بها إلى أعلى صدره كدلالة على: أنا؟! وبالتأكيد لم يفعل ذلك بدافع الاستفسار أو التعجب، وإنما فعله بحركة لا إرادية، بيدَ أنه لم ينسَ الإشارات.

وصله الشاب الذي حدثه بالإشارات من بعيد، وكان يرتدي مثل معظم الناس، أوراقًا من شجر تستر عورته فقط وسأله:

- كيف حالك؟

أجاب:

- الحمد لله.

الله! بيدَ أنه حقًا لم ينسَ الله، سبحانك يا خالق النسيان والتذ..، هذا عالم نسيان فقط. ولكن كيف لم ينسَ الإشارة واللغة؟ لنا مع هذا وقفة. ويجب ألّا يعزب عن بالنا أننا في عالم مختلف،

لا يمت لأي عوالم أخرى بصلة، إلا بدرجات من الحجر! ففي عالم النسيان، لا مكان للدهشة، لأن كل شيء فيه مدهش. يجب أن نعي ذلك.

عاد الشاب الذي يرتدي لباس من أوراق شجر يسأله:

- إلى أين تذهب؟

لم يفكر الفتى، ولكن على الرغم من ذلك انتظر هنيهة قبل أن يأتي رده:

- معرفش.

يفهم الشاب لغته، وإنما لم يعرف ما قصده «بمعرفش» هذه.

كرر الشاب سؤاله:

- أقول لك إلى أين تذهب؟

ومع مرور الوقت، بدأت تتكون لدى الفتى أجزاء من صور للأشياء من حوله، وبدأ ذهنه يصنع مشاهد ويحتفظ ببعض كلمات، كان قد سمعها من الشاب أو تفوه بها هو، بدأ يدرك قليلًا ما يحدث، قليلًا إلى أبعد حدود القلة، قليلًا لدرجة أنه لو التفت للخلف وأشاح وجهه عن الشاب ثم نظر إليه ثانية، سيكون قد نسيه.

وبوخز من وعيه في ذلك الوقت وبدون أن يتطرق إلى التفكير قال الفتى:

- وأنا أقول لك أني لا أعرف.

وعندئذ بدأت الخيوط تتشابك وتغزل نسيجًا من تفاهم مبهم بينهما، إذ أنهما صارا يتحدثان الفصحى.

نظر إليه الشاب ببلاهة ثم سأله:

- من أين جئت؟

لماذا يسأله؟ وما سر هذا الاهتمام؟ الشاب نفسه لا يعرف، لأنه لم يفكر في الأمر، إلّا أن كل ما يحدث، أنه يحشر أنفه في شؤون غيره في الوقت الذي هو نفسه لا يعرف شيئًا عن نفسه! (عادات بعض البشر في كل الأزمنة).

ولم ينتظر الفتى طويلًا، صار أكثر استجابة، إذ قال:

- لا أعرف.

وبملامح خالية من أي تعابير قال الشاب:

- أممم... لا تعرف إلى أين أنت ذاهب، ولا من أين جئت، حسنًا.

خيم صمت لبرهة ثم قطعه الفتى بسؤال وجهه إلى الشاب الذي يرتدي لباس من أوراق شجر، إذ قال له:

- ومن أنت؟

وأجاب الشاب بقوله:

- لا أعرف!

في نفس الوقت أجال كل منهما نظره حوله، الناس تهيم على وجوهها كالسكارى. من الواضح أنهم لا يعرفون إلى أين

هم ذاهبون، تعابير سيماهم واحدة، برغم اختلاف ألوانهم، فهذا أسمر، وذاك أبيض، وهذه خمرية، وتلك قمحية ووجوه شاحبة مائلة إلى الصفرة. أما ملابسهم فمختلفة، مزركشة وفضفاضة ومهلهلة وأوراق شجر!

بدون مقدمات بارحه الشاب الذي يرتدي أوراق شجر، وسار حتى وصل إلى جذع شجرة وأوزى ظهره إليه.

ولحظتئذ وقف الفتى متأملًا لهنيهة ثم انطلق ينشد الناس.

أوقف أحدهم وبادره بالحديث، لكنه لم يفهم شيئًا من الرجل، بيدَ أن لغته مختلفة عما يتحدث بها الفتى. تركه وانحرف يسارًا تجاه شاب جالس، وجه إليه بعض كلمات ورد عليه الشاب بلغة ثالثة، كرر الفعلة عدة مرات، وفي كل مرة يسمع لغة مختلفة.

توسط المدينة ودار برأسه في جميع الاتجاهات، رأى طغمة من الناس مجتمعين ولا يفعلون شيئًا، وربما لا يتحدثون، وأناس جالسون، وآخرون نائمون، والأغلبية يذهبون ويجيئون بغير هدي. كانوا يظهرون مسالمين ووديعين إلى أبعد حدود المسالمة والدعة، لا تبدو عليهم علائم الخطر، ولا يخشى المرء الاقتراب منهم، وفي الوقت ذاته يجد المرء نفسه يحاذر ويفكر قبل أن ينبري لأحد منهم. كانوا بسطاء زاهدين في كل شيء، حتى في الكلام.

عاد الفتى للشاب المستند إلى جذع الشجرة، وأوى إلى شجرة

مقابلة له وأوزى ظهره إليها ونظر للشاب نظرة خالية من أي تعابير وسأله: «ماذا يحدث؟»

أقبل عليه الشاب ووقف قبالته في هدوء، ثم سحبه من يده وتحركا.

سارا معًا حتى قطعا أميالًا وأميال، وفي الطريق قال الشاب مجيبًا على سؤال الفتى: «لا أعرف، ولكنني لطالما رأيت أناسًا يذهبون وآخرون يأتون، ولم أتطرق لا للسؤال ولا للحيرة، ولا أعرف لماذا، ولكن إذا أردت أن تفهم شيئًا، فعليك أن تنضم للذاهبين»

صمت الفتى فسأله الشاب:

- أتريد أن تفهم؟

أسدل الفتى رأسه ولم ينبت ببنت شفة فترة من الزمن (أهو يفكر؟ إنّ هذا لخطر عليه، إنه في عالم عدو للتفكير ومعاديًا للمفكرين، تزمجر السماء وتطلق هزيمها، تسفن الرياح وتسهج وتأتي هبارية، شديدة كل الشدة محملة بالغبار والأتربة، تثور الأرض وتحمى من تحت الأقدام منذرة بأنها سوف تخرج براكين ذات حمم، فتهرع الناس وتبحث عمن فكر وترسله إلى مكان آخر، مكان ملائم لمن يفكرون مثله، هذا ما يقوله الجميع، ربما تكن أسطورة مزعومة). ثم جاء رده:

- نعم.

لم يفكر الفتى، وإنما كان كمن يحاول أن يتخذ قرارًا مصيريًا، فعل ذلك بعفوية صافية وفطرة خالصة. استقبل الشاب كلمة «نعم» بوجه خالٍ من أي تعابير كالعادة وأومأ برأسه أن «هيا».

ولم يحتج الأمر لذكاءً شديدًا كي يفهم الفتى ما قصده الشاب بإيماءته، ولم تتأثر ملامحه وتكتسي بأي مشاعر، ومعًا، وفي نفس ذات الوقت، بدءا بالمسير.

خرجا من أطلال المدينة وصارا في الفيفاء المقفرة، كانت الأجواء رمادية اللون، كأنها نهاية النهار، لكن النهار لا ينتهي هناك، تغوص أقدامهما في الرمال الباردة، فتبطئ من حركتهما، يترنحا في السير، ولكن بدون تعب. (وسنعرف السبب فيما بعد). لم يكنا الوحيدين الذاهبين إلى هناك، بل كانا يتبعان فوجًا من الناس، ومن حولهما وخلفهما آخرون ذاهبون، وآخرون آيبون. أناس تذهب وأناس تأتي! ما السبب؟ وماذا هنالك؟

تابعا سيرهما خلف الفوج، ينعطفا حين ينعطف ويستقيما حين يستقيم إلى أن توقف الزحف أخيرًا عند منحدر بين طنوف عالية، جبال منيفة شاهقة، دخلوا في فلج بين جبلين وتوقفوا أمام فوهة في صخور، توقفوا قبالتها قليلًا، حسموا أمرهم ثم دلفوا منها. هذه الفوهة كانت واسعة وقادرة على أن تلتهم جموع الناس وتسعهم، أصبحوا بداخل نفق قصير مضاء قليلًا كما في الخارج، بين ليل ونهار، عدة خطوات تفصلهم بين ما ينشدونه،

ظهر درج حجري ممتد للأسفل بشكل لا يصدق، إذ يقدر طوله بعدة أميال.

كان خليقًا بكل واحد منهم أن يتخذ قراره بنفسه ولا يحق لأحد أن يتدخل في قرار غيره، إنه الوقت الحاسم لكل امرئ منهم، إنه قرار بتقبل المعاناة أو رفضها، التعرض للمخاطر أو الإعراض عنها.. يبدو أنهم كانوا قد اتخذوا القرار منذ خطت أقدامهم أول خطوة إلى هنا (خطوة متهورة).. ومن هنا كانت البداية.

بدأوا يدلفون واحدًا بعد الثاني إلى أن صاروا جميعًا على الدرجات الحجرية، إنها درجات من حجر صلف، مخشوشن وقاسٍ، لكنهم لا يشعرون بحدته، برغم أنهم حفاة الأقدام، توغلوا وأوغروا فيه حتى قطعوا مسافات طويلة نحو الأسفل، نحو الأعمق والأسحق، وكل سفلى؛ إنما هو مهلك.

في منتصف الدرج تقريبًا، بدأت جلود أقدامهم تعمل، صارت أجهزة الاستشعار تنشط مع ملامسة أقدامهم للأحجار الصلبة المليئة بالحصى المخشوشن كأنه الزجاج في حدته، وكلما توغلوا ازدادت الأحجار صلابة وحدة، إنّ كل الأحجار بنفس درجة الصلابة تقريبًا، لكن أقدامهم هي التي صارت تشعرهم بصلابتها، بيدَ أنهم كلمها تقدموا أكثر تعمقت أقدامهم في الشعور. تُرى ما الذي هنالك في الجانب الآخر الواطئ؟ بدأوا يفكرون بشكل لا إرادي، وهم يجهلون أن التفكير لن يضر هنا بعد منتصف الدرج،

وهناك في الجانب المقبلون عليه.

بعدما انتهوا من الدرج، لم يعنّ لهم خيار للمسير إلا داخل نفق قصير، ساروا بداخله وما مر وقت طويل حتى وجدوا أنفسهم أمام فوهة واسعة أخرى، ولجوا منها بأريحية أكثر ومن دون أن يتوقفوا. أتلعت الرقاب تحمل رؤوس مستطلعة، ناظرت العيون طنوف عالية أخرى، وتحركوا حتى وجدوا منحدرًا آخر، ازدادوا تعمقًا داخل الصحراء الرحبة التي وطأتها أقدامهم ومن ثم بدأ شعور بالتعب يسري في أجسادهم، كلما قطعوا مسافات أطول وغاصت أقدامهم في الرمال.

رأوا معالم مدينة قد لاحت في الأفق فحثوا الخطى نحوها، كانت لها عدة بوابات متشابهة من حيث الحجم والتصميم إلّا واحدة، هي الأكبر والأعظم. «هيه.. بوابات من دون أسوار!» تمتم الفتى فسمعه الشاب الذي يرتدي لباس من أوراق شجر فاكتست ملامحه بالتعجب أيضًا.

الآن صار بالاستطاعة الاستفسار والاندهاش.

ها هم يصلون أخيرًا، وقفوا أمام إحدى البوابات وكانت البوابة الأكبر وهي الرئيسية، دلف الجميع إلى المدينة بمحض إرادتهم، وما إن صاروا بداخلها حتى حدث لهم ما حدث.

انفجر أحدهم يبكي فجأة، بكاء! لم يروا أحدًا يبكي في عالمهم الذي جاءوا منه. وغيره يجلس والدمع يهطل منه بغزارة،

وغيره يهرول كالممسوس، وتلك تحولت قسماتها لسعادة عارمة، وهذه غضبى. حتى أن الشاب انزوى بعيدًا عنهم وأخذ جسده ينتفض من الارتعاش، وتقوقع على نفسه ضامًا كتفيه إلى صدره، وهو يشدهما بيديه أكثر، ونكس رأسه على صدره بترقب وعيناه تدوران في محجريهما خوفًا. ثم نظر للفتى فرآه شاحب اللون شارد الذهن تلتمع عيناه بالدموع كأنما أُبتلي في عزيز، اقترب منه وقد استرخى قليلًا وسأله:

- ما بكَ؟

فقال الفتى بنبرة ملؤها الشوق وقد جحظت عيناه كأنهما ستخترقان بنايات المدينة: «رَوناء».

***

«العدم لا يؤذي أحدًا، الوجود يؤذي الجميع.»

- توماس ليغوتي

- اختارلي «ليفربول» لمّا أعمل الشاي.
- ماشي.

رفع عقيرته صارخًا من المطبخ:

- هتلعب بمين؟ الريال كالعادة؟

قال أحمد وهو يبدأ لعبة «فيفا ٢٠١٨»:

- دايمًا بتسأل السؤال ده، مع إنك عارف إجابته.

مرت دقائق من الصمت، اللهم إلّا صوت قرقعات خفيفة منبعثة من المطبخ، ها هو يدلف رانبير كابور كما يُعرف بين أصدقائه، أخذ مكانه متأخمًا لأحمد، بعدما وضع الصينية التي تحمل كوبين من شاي يتصاعد منه البخار على المنضدة التي أمامهما. إنّ هذه المنضدة تفصل بين الشاشة التي تعرض قائمة اختيار الخطط واللاعبين وبين الأريكة الجالسان عليها.

ثم وهو ينظر إلى الشاشة ويكبس على أزرار «دراع البلاي ستيشن» قال رانبير كابور:

- طبعًا إنت بتلعب بالريال علشان كريستيانو، على كدة لو انتقل لفريق تاني هتلعب بالفريق إللي هينتقل ليه صح؟
- ومين قالك كدة! أنا بالعب بالريال لأني بحبه وبشجعه، ودا ميمنعش إني بحب كريستيانو يعني. صمت ثم أردف مبتسمًا:

أما أنت فبتلعب بالليفر علشان صلاح.

صمت أحمد، بينما لم يعلق رانبير كابور.

وكانا قد انتهيا للتو من معارك شديدة الشراسة من جانب واحد، إذ أن أحمد لا يرغب كثيراً في لعب مثل تلك الألعاب الدموية، فلم يكلف نفسه عناء معرفة كيف تُدار الحروب، فصرعه رانبير كابور وأجهز على جيوشه.

انتهى رانبير كابور من إعداد خطته التي سيلعب بها والتفت برأسه إلى أحمد وقال:

- عرفت إن رونالدو هيسيب الريال؟

من دون اكتراث قال أحمد:

- مين قال كدة؟
- الأخبار مالية الفيس.

انتهى أحمد هو الآخر من ضبط خطة لعبه والتفت إلى رانبير كابور وقال بهدوء:

- مبصدقش أخبار الفيس بوك.

وبعد مضي عشر دقائق تقريبًا، وبعدما فرغا من ارتشاف الشاي، وبدأا مباراة أخرى، رن هاتف أحمد وطغى على صوت المعلق «رؤوف خليف»، كبس أحمد على زر «ستارت» ليتوقف اللعب والتقط هاتفه من أعلى المنضدة ونظر للشاشة ليجد ابنة عمه هي المتصلة:

- أيوة يا زهراء.
- مجتش ليه يا أحمد؟
تنهد أحمد قبل أن يقول بفتور:
- إنتي عارفة.
- طيب إنت فين؟
- عند كريم.
- كريم مين؟
- رانبير كابور.
ندت عن زهراء شهقة خفيفة، وهي تضرب بيدها على قلبها قبل أن تقول باستنكار:
- في العاشر؟!
- آه في العاشر، إيه المشكلة؟!
- أحمد لازم تيجي بسرعة.
بدا صوتها مختنقًا، كأنها تبكي.
- مالك يا زهراء؟
كادت أن تبوح بكل ما حدث دفعة واحدة:
- لسة زعلان من بابا؟
يعرف ابنة عمه حق المعرفة، إنها تراوغه.
- هو فيه أيه يا زهراء، بتحاولي تخبي عليا أيه؟
بعد لحظاتٍ من الصمت، جاء صوتها مبحوحًا مختنقًا، وهي

تقول:

- أنا مش عايزاك تيجي على الزقازيق. صمتت هنيهة ثم غالبت دموعها واستطردت:

- أحمد.. ارجع على فاقوس بسرعة.

بدأ القلق يتسلل إلى صدره، وقد ضاق ذرعًا فقال بعصبية وتوتر:

- متقولي يا بنتي فيه إيه!

برغم هول الموقف، تماسكت وقالت بصوت واضح:

- روح على المستشفى العام بسرعة، عمي ومرات عمي وملى عملوا حادثة.

انسحبت الدماء من وجهه وزاغت عيناه وصمت. ليجيء صوت ابنة عمه من الجهة الأخرى ضعيفًا خائفًا:

- أحمد.

ليقول هو بنظرات ضائعة وقلب يرتجف:

- إنتي بتقولي إيه؟ أنا.. أنا مش فاهم حاجة....

ليبتر عبارته عندما قالت زهراء برفق:

- مش وقت فهم يا أحمد، اركب بسرعة وتعالى.

***

قرب نهاية الأصيل، كانت الأجواء ربيعية بديعة، لكنها لم تكن كذلك في «موقف السيارات»، يا لهذه الفوضى، ويا لهؤلاء الناس مقطبي الجباه عابسي الوجوه محدثي الجلبة، كم هم مزعجون، ألم يخبرهم أحد بمصابه؟ تُرى هل يعرف من يطالعه بأنه حزين؟ هل يكفي هذا الوجه الشاحب وهذه العيون الشاردة ليخبرا عما يشعر به قلبه؟ إنه يعتصر ألمًا ويتجرع علقمًا، ها هو رجل كهل يحملق فيه مشمئزًا! رجل لا يعرفه البتة. هل لا تروقه ملابس أحمد المقطعة المرقعة؟ مَن يقنع ذاك الكهل أنها «الموضة»؟، أم لا يستبشر خيرًا بملامحه المكفهرة؟ أو ربما يعاني الكهل العذابات ويقاسي المرارت ولا يدري به أحد. سخر أحمد من أفكاره حينما اعتقد أنه يستحق شفقة الناس ومواساتهم، في حين أنه لا يعرف من أخبار الناس شيئًا، ولربما لو اتفق له أن يعرف، لاختار واقعه، برغم قساوته كما يظن، لَقدّر أن إحنه هينة بالنسبة لإحن غيره.

يجلس متململًا كأن من تحته جذوة من نار، يشمر عن رسغه قليلًا، يناظر ساعته بين الفينة والفينة، يصيح: «شد شوية يا أسطى لو سمحت».

يناظره السائق في المرآة الأمامية، يتفهم حالته من قسماته وحركاته، يبدو قلقًا ومتوجسًا، يضبط أنفاسه ويتحكم في ألفاظه ويقول بهدوء شديد ورصانة عظيمة: «حاضر يا أستاذ، هانت متقلقش». هانت.. ليتها تهن كما يقول السائق، ولكن مَن يدري؟

إنّ المسافة بين مدينة العاشر من رمضان ومدينة فاقوس ساعة تقريبًا، وابنة عمه تعرف ذلك، ومع ذلك تتعجله من وقتٍ لآخر، كثرة اتصالاتها أرعبته، ها هي تتصل: «متروحش على المستشفى العام يا أحمد، نقلوهم مستشفى الجامعة». مستشفى الجامعة! نزلتا عليه الكلمتان كالصاعقة، قليلون هم من يعودون من هناك أحياءً، مَن تتعثر حالته وتتأخر صحته يتم نقله إلى هناك، ومن هناك تنقطع أنفاس وتتعب أنفس، وتعود أجساد منهكة القوى، وتعود عيون تنضح بالدموع، لأن تلك العيون لن ترى أحبابها. أما الأرواح فلربما تمكث هناك أو تتشبث بمن فقدت وتلتف معهم في الأكفان لتدفن معهم.

من فرط شروده، لم يلحظ أن «الميكروباص» قد توقف وبدأ الركاب بالنزول، أرهق ذهنه في التفكير في الأمر حتى نسى أنه على عجلة من أمره، ناظره السائق فوجده لا يزال في مكانه، وقبل أن يخرجه من غياهب آبار الأفكار القابع في أعماقها، ربت كريم على كتفه برفق فانتبه، أومأ له بحركة خفيفة أن: «هيا».

الأصدقاء المخلصون هم العظام التي لا تُكسر، هم الجبيرة لأصحاب الأقدام المتكسرة، هم العكاكيز لأصحابهم إن تخلت عنهم أقدامهم وتخلوا هم عن ذواتهم وفقدوا الرغبة في البقاء، تجدهم يتحركون بدلًا منهم، يفكرون ويأملون لهم ويتألمون عنهم. الأصدقاء هم الأدلاء لمتعسفي الطرق التائهين، ولقد تمنى

أحمد لو أن يُوفق في العثور على واحد من أولائك المخلصين، وجائز جدًا أن يكون كريم منهم، ولسوف تكشف الشدائد عن معدنه، ستبرز بريقه ومدى استمرار ذلك البريق، أو انطفائه وحجم تأثير ذلك الانطفاء على أحمد، فأبدًا لا تمر بسلام؛ صدمتنا في شخص ظننا أنفسنا ذا حظوة عنده، أبدًا لا يمرق المشهد ويتناسى؛ ما دام كانت لنا في رؤيته فاجعة.

لم يشأ كريم أن يتركه يذهب وحده على الرغم من محاولاته لإقناعه بالبقاء. هزت هذه الضربة جسد كريم وجمدت الدم في عروقه، ومع الأخذ في الاعتبار أنها إحنة شائنة؛ إلّا أنه يعرف صاحبه، لمس بحكم قربه منه أفكاره ووقف عند معتقداته، لطالما عهده ضعيف الإيمان بكل شيء حتى بالله. إنه يخشى عليه منه، ولذلك أصر على ألّا يفارقه حتى تنزاح الغمة وتنفك الكربة، حتى أنه ومن فرط السرعة والعجلة لم يطفئ الشاشة، ولم يلملم أغراضه، بل فزع مزعورًا مما أصاب صاحبه من جزع وخرج في إثره وركضا معًا.

لا تزال أمامهما مسافة طويلة بينهما وبين الاطمئنان أو الجزع الحقيقي، لا تزال محض أفكار مزعجة تشوش على تفكير أحمد. وبعدما استقر بهما الحال في مدينة فاقوس، وهي إحدى مدن محافظة الشرقية، استقلا «ميكروباص» آخر وقصدا مدينة الزقازيق التي هي أكبر مدن الشرقية، حيث مستشفى الجامعة.

***

في هزيع الليل، ترقب الأحزان فرائسها، وحين يجنّ تهاجمهم بغير هوادة، وفي ذلك الليل الغهيب لم يفلت أحمد من براسنها الحادة، إذ أنها أعطبته وأحدثت في سويداء قلبه حزازة، وخلفت في عيونه مسحة ألم وانكسار. حينما وصلا إلى الممر المتواجد فيه عمه وأبناء عمه، وجرّاء قلقه المتزايد، كاد أن ينسى ما سببه عمه في قلبه من وجع وما تركه على خده الأسيل من أثر، هرع أول ما هرع ناحيته ليرتمي بين أحضانه باكيًا، يكب عليه يسأل عما صار وعما يصير. وراقبت زهراء ابنة عمه ما يحدث بابتسامة طاردة للعبوس ودموع تهتن، وسرعان ما اختفت الابتسامة وعاد العبوس ليسترجع مكانه. ووقف أحمد في منتصفهم يفكر، ووقف كريم بجانب واحد من أبناء عمه وتبادلا الحديث. ثم خطى أحمد اتجاه زهراء التي أخذت تقص عليه ما صار.

إنها عطلة نهاية الأسبوع، يحرص جراح القلوب الدكتور شاكر عبد الحق على زيارة أخيه الأكبر الدكتور بكر عبد الحق في يوم الجمعة من كل أسبوع، لا يمنعه عن زياراته لهم في الزقازيق غير المرض الشديد وابنه أحمد الذي رفض الذهاب مع عائلته كالعادة مصرًا على موقفه إزاء عمه ومحثًا والده على السير على

دربه. لكنه رفض الانصياع لولده: «إنت حر يا أحمد، مع إن إللي بتعمله غلط، إللي اتكسر يتصلح، ودا مهما كان عمك، بينك وبينه صلة رحم، وأنت كدة بتقطعها، أما أنا فسيبني أعمل إللي فيه راحتي».

وفي النهاية تموضع والده خلف مقود السيارة وبجانبه زوجته دنيا وخلفه ابنته لمى وانطلق بهما إلى الزقازيق حيث شقة شقيقه. وانطلق هو إلى مدينة العاشر من رمضان بعد أن أجرى اتصالًا مع كريم أمين. إنّ كريم هو الابن الأوحد لوالديه، وهما ذهبا ليزورا أسرهما في ضواحي مدينة فاقوس، بينما بقى هو بعد أن هاتفه أحمد وأخبره بأنه سوف يزوره.

ذرت الشمس، أرسلت خيوطًا صفراء واهية، وبإشراقها رحمت أولئك الذين يطغى عليهم الليل ويفتت عظامهم حنينًا أمثال الدكتور شاكر عبد الحق الذي لم تعزب عن باله حياتهم القديمة بشخوصها وذكرياتها. لطالما تواصل مع الماضي برؤيته لشقيقه الذي لم يكن على القدر ذاته من المبالاة بالذكريات، إذ أنه صرف جل تفكيره في تكوين علاقات اجتماعية، ومن يوم صار دكتور في جامعة الزقازيق وهو يقيم هناك، بقرب عمله. لكن ذلك لم يمنع أخاه من رؤيته كل فينة وأخرى، ولم تمنعه أيضًا مجافاته واستقباله الفاتر له. بيدَ أنه لم ينسَ أنه قد تولى رعايته بعد وفاة والديهما، لم يكن يكبره بكثير، إلّا أنه قد تحمل أعباء

دراسته إلى أن تخرج واعتمد على ذاته. ومن يومها وهو له من اسمه نصيب، ظل شاكرًا له صنيعه معه ولا يزال. ولكن السنوات فعلت فعلتها في القلوب، والمشغوليات والهموم فرقتهما. إلّا أنّ شاكر حرص طيلة السنوات المنصرمة على ألّا يكون طبيبًا لأمراض القلوب العضوية فقط؛ بل والنفسية، فلقد كان على قناعة بأن معاملته الحسنة لشقيقه ستخلص قلبه مما علق فيه من القسوة والأنانية وحب الظهور. كان يقول: «مزادوش علمه إلّا جهل»!

ولم تكن تعوجات الطريق، والحفر الكثيرة متنوعة الأحجام، أو حماقة بعض السائقين، أو قلة خبرة بأمور القيادة؛ بل كانت مشيئة الله. بعد أن تركوا مدينة فاقوس خلفهم بعدة أميال انقلبت بهم السيارة، لم يحدد الجمع الذي هرع لتفقد أحوالهم أسباب الحادث، أحدهم قال إن هاتيك الحفرة التي تجبر السائقين على الانحراف قليلًا حتى أقصى اليمين هي السبب، وآخر قال إن صاحب «توكتوك» متهور كان قادمًا نحوه بسرعة جنونية ساعيًا إلى أن يتجاوز سيارة أمامه، وكانت المسافة التي تفصل بينهما قصيرة، لم يعلم إلّا الله كيف حسب سائق التوكتوك حسبته، فاضطر إلى لف المقود بحركة سريعة لليمين ليتفادى الاصطدام الوشيك، وكانت السيارة مسرعة، فلم يستطع التحكم فيها. لم يهتم البعض بكل ذلك وأسرعوا بهم إلى مشفى فاقوس العام الذي يعمل فيه الدكتور شاكر، من دون أن يعرفوا ذلك. ومن

هناك، أخبر أحد الأطباء الزملاء شقيقه، فحضر بصحبة أبنائه عند الظهيرة، وأخبر شقيقه ابنته زهراء أن تتلفن إلى ابن عمها ليحضر، فانتظرت ساعات كل ما يشغلها كيف ستخبره، وكان أن هاتفته عند الأصيل. وبعد ذلك سرعان ما اتخذوا الإجراءات التي يجب اتخاذها لنقلهم إلى مشفى الجامعة، المسافة وحدها كفيلة بأن تنهي حياتهم. ووقتذاك سرعان ما أخبرت زهراء ابن عمها أن يلحق بهم إلى مشفى الجامعة. تلك المشفى التي ترعب حتى أقسى القساة وأشدهم بأسًا، فإن لذكرها وقع عظيم في النفوس.

***

كانت ليلة دهماء دلماء، استطاع نور المصابيح أن ينير المشفى، لكنه لم يستطع أن يبدد الظلمة في قلبه، في موقف مثل ذلك يتحير المرء في اختياره للكلمات، إن كانت المواساة والتعازي تفعل شيئًا كما ظن كريم، لتحدث. ذهبت محاولات الدكتور بكر وولديه معاذ وضياء وزوجته هويدا في تخفيف الصدمة على أحمد سدى، أما زهراء، فلم تكن صدمتها في أقربائها بهينة، أخذت تبكي وتنتحب، تذرف مع كل مأقة وأخرى دموعًا حارقةً، تندهش كل الاندهاش حين تناظر ابن عمها خلسة، فتجده لا يبكي، يحملق في السقف وهو جالس على مقعد عاقد يديه على

صدره، مسند رأسه إلى الحائط. ظل أحمد على هذه الحال فترة من الوقت، كان الفجر قد أذّن وبدأ الظلام ينقشع شيئًا فشيئًا عن الأجواء ويتسرب إلى قلبه. وبعد الكثير من المحادثات، والعديد من الأوراق، تم نقل المتوفين في سيارة إسعاف وذهبوا بهم إلى محل إقامتهم، ومن هناك تم تشييعهم إلى المرقد الذي لن يفلت منه أحد.

***

«ود لو يغيب عنه وعيه، ود لو ينسى كل شيء فما يشعر بشيء،
ثم يستيقظ بعد ذلك فيستأنف حياة جديدة»

- الكاتب الروسي/ دوستويفسكي
-من رواية الجريمة والعقاب

لم ينم ليلة أمسٍ ولا يزال النوم يجافيه. فبعد أن انتهت مراسم العزاء، وأصبح وحيدًا بعدما غادرت عائلة عمه وقابل طلب كريم للمبيت معه بالرفض، أوى إلى فراشه متحاملًا على كل ما ألم به، فلم يعرف الكرى سبيلًا لعينيه الدعجاوين، ظل مستقيظًا كأنه يحرس الحدود. لم يفهم كريم لماذا أصر على ألّا يبيت معه، ها هي ذي مخاوفه تظهر، ما عسى أن يفعل امرؤ لشخص ضعيف الإيمان بكل شيء مثله؟ «هتعمل أيه كريم». أخذ يفكر في الأيام المقبلة، وينظر في حال صديقه الذي كان وهو في أوج اندماجه مع عائلته يعاني بعض الاضطرابات النفسية، اضطرابات من النوع الذي لا يجدي معها كلام أطباء النفس نفعًا، إن لم يساعد المرء نفسه، فلن يؤثر فيه كلام أحد. كان هذا رأي كريم، إذ أنه على علم بأن صديقه يفكر كثيرًا، لديه معتقداته الخاصة، لطالما تجادلا حول بعض النظريات والفلسفات، وحتى في شؤون الأديان. فإذًا كيف ستكن حاله وقد بات وحيدًا؟ لا مفر إذًا من الأفكار التي ستطارده، والمعتقدات التي ستكتنفه. سيغرق نفسه في التفكير حتى يكاد أن يجن. «مش للدرجادي، وأنا مش هسيبه». قال كريم لنفسه.

كانت أنوار مدينة فاقوس تضيء الليل الغطيس، تلك المدينة

الصاخبة التي لا تعرف الهدوء، تظل حركة دؤوبة تسري في بعض شوارعها حتى في منتصف الليل وما بعده. هبط أحمد درجات سلم البناية القاطن فيها، ها هو ذا يصير في الشارع، يناظر المارة ويغبطهم على أنهم لا يعانون ما يعانيه في لحظته هذه، يتطلع إلى المصابيح المنارة التي لا تكترث بعتمة قلبه، يرقب حركة السيارات وأصواتها المزعجة، شعر كأن المدينة تقيم حفلًا وأنه غير مرحب به فيه، ليس على قوائم المدعوين، فكره ذلك بمقولة كان قد قرأها على موقع «فيس بوك» لكنه لا يعلم قائلها، كانت تقول: «أكثر ما آلمني في وفاة أبي أن الكون لم يتوقف، حتى إشارة المرور في شارعنا، استمرت بالوميض، واصلت الحياة ركوضها اللعين دون أن تلتفت إلى مصابي الأليم»! بالطبع لن تتوقف الحياة حدادًا على رحيل أحد، لكن أشخاصًا من الجائز أن تتوقف حياتهم حزنًا على الراحلين. أحاقت به الأفكار واستبدت حتى خَلص إلى نتيجة أن على المرء إذا أراد أن يحيا في أمان من المنغصات؛ ألّا يتعلق بأحد.

ولم يكن بالشيء اليسير عليه أن يتحول فجأة بين عشية وضحاها إلى امرئ وحيد، وحيد بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ظل يحوم حول البنايات ويطوف، أمرًا واحدًا كان وامضًا في ذهنه كوميض البرق، أن كيف سيحتمل المكوث في شقته بعدهم؟ شق عليه أن يعود، ولكن ما عساه أن يفعل؟ من المؤكد أنه لن يبيت

في شوارع المدينة. ها هو ذا يقرر أخيرًا في لحظة تعقل أن يعود للشقة، وقد قرر أنها ستكون آخر ليلة.

***

خرج في رأد الضحى من بوابة البناية، جارًا خلفه حقيبة تحوي ملابسه وأغراضه الخاصة، كان قد حظى ببضع ساعات من النوم، وجَدّ في تنفيذ قراره. وما إن صار في الشارع الأشهر والأصخب في المدينة حتى أشار إلى «توكتوك» وأخبره بالمكان الذي يقصده. وكان في منطقة «المنيا» بمدينة فاقوس، حيث بنايات الإسكان الاجتماعي.

إنّ أحمد شاكر عبد الحق في الحادي والعشرين من عمره، يافع مديد الطول، ممتلئ الجسم في غير بدانة، ذو وجه نوراني مستدير باش، تزينه لحية خفيفة وشارب، عيناه السوداوان النجلاوان تشعان ذكاءً، تنتهي جبهته المفلطحة بشعر رأس أسود غطيس ناعم. يدرس الصيدلة في جامعة الزقازيق. إنه في عامه الثالث في الجامعة، وفي ظل الظروف التي استجدت في حياته كيف سيحيا؟ كان والده هو من يعيل الأسرة، إلى جانب والدته التي تخرجت من نفس الكلية التي يرتادها وافتتحت مع زوجها صيدلية أسفل بناية شقتهم القديمة التي هجرها. عليه الآن أن

يتكفل بأمور معيشته، إلى جانب التزامه بسداد مستحقات الشقة التي سكنها مؤخرًا.

في واقع الأمر لم تكن المسائل المادية في تلك المرحلة الحرجة من حياته تربكه؛ وإنما كانت الحياة بأسرها. لم يكن متأكدًا من كونه سيستطيع أن يحيا، بل في لحظات قاسية كان يجزم أنه لا يريد أن يحيا، لا يرغب في حياة تملؤها الأحزان، يستطيع مَن يسمع به أن يدرك أنه من المرجح أن ينتحر، لكنه لم يتطرق إلى التفكير في هذه الفعلة، وإنما فكر في الأخطر منها. وهل هناك أخطر من الانتحار؟ نعم.. أن يعزم المرء على أن يعتزل الحياة، فهو بهذا يفعل ما هو أخطر من الانتحار، إنه يتعفن.. حيًا.

ومرت أسابيع لم يجب خلالها أحمد على أي اتصال من عشرات الاتصالات التي جائته، وربما كان عليه - بما أنه قرر ألّا يرد - أن يغلق الهاتف، لم يفهم هو نفسه لماذا لم يفعل ذلك. وكانت ابنة عمه في غاية القلق عليه، أما أشقاؤها ووالدتها فلم يكونوا يهتموا بأخباره قبل الحادث، ولم يختلف الأمر كثيراً بعده، وأما عن عمه، فلديه أعذاره التي سيبرر بها عدم اكتراثه بابن أخيه إن تعرض للأسئلة. لا مفر.. قررت زهراء فعل شيء وبتّت فيه، اصطحبت إحدى صديقاتها المقربات وذهبتا لزيارته بعدما استأذنت والدها في أن تذهب لتطمئن على ابن عمها.

احتارت الفتاتان. أحمد ليس في شقته، لا أحد قريب كان أو

بعيد يعرف بأمر الشقة الجديدة، «هتعملي أيه زهراء؟» سألت نفسها في وجل. ولاحظت الوجل ذاته وربما أشد منه في العينين الصافيتين اللاتي تناظرنها، عيني صديقتها روناء.

قالت روناء بصوتها العميق:

- متيجي نسأل الجيران. إنها ليست فكرة صائبة، وتعرفان ذلك، ففي الحضر، وعلى الأرجح، لا مكان للاجتماعيات، لا مجال للعلاقات.

وقالت زهراء:

- لأ.. هتصل بكريم أمين.

حتى كريم لا يعرف أين هو، وقد دهش أشد الاندهاش لكون ابنة عمه لا تعرف عنه شيئًا، حتى أنه قال لها:

- دا أنا كنت هتصل بيكي أسألك عنه.

وغرقت روناء في تفكير عميق وصمتت، بينما قالت زهراء بنبرة حادة منبعثة من أعماقها تحدث كريم عبر الهاتف:

- نتصل بالشرطة.. نسأل في المستشفيات.. نعمل أي حاجة.. مهو مينفعش نفضل ساكتين كدة.

في آخر المطاف، لا شيء من ذلك حدث لأن كريم أقنعهما بالعودة إلى ديارهما وطمئنهما بأنه لا بد وأن يظهر من أجل امتحانات آخر العام. وقد قرر في غداة غدٍ أن ينزل فاقوس ويبحث بنفسه في الأماكن التي اعتادا أن يذهبا إليها معًا، ويبحث في

المستشفيات ومركز الشرطة!

وفي نفس اليوم، وفي جهمة الليل، رن هاتف كريم.

بلهفة أسرع يرد:

- أيوة يا أبو حميد، إزيك؟ إنت فين؟

بهدوء شديد أجاب أحمد:

- في البيت.

بعجلة قال كريم:

- البنات نزلت فاقو....

اختذل عبارته ثم استطرد:

- طيب أنا هجيلك يا أحمد.
- ماشي.

تذكر أحمد شيئًا فهم يقول لكريم قبل أن ينهي المكالمة:

- أااا.. كريم.. لما تيجي فاقوس كلمني أوصفلك أنا فين.

ظل أحمد شاكر صامتًا أديم النهار الذي هاتف كريم فيه، ولم تختلف الأيام الأخيرة كثيرًا، إذ أنه قبع في شقته لا يفعل شيئًا سوى أن يفكر، وعندما يتوقف عن التفكير، لا تتوقف الأفكار وتنقطع عن رأسه، أحدقت به واستوحشت حتى ضيقت عليه الخناق. كان يترك السرير ليعود إليه ثانية، من غرفة النوم إلى الصالة إلى غرفة النوم. وحين تلملم الشمس خيوطها ويدلف المساء وتشتد

عليه قرصات الجوع، يخرج من باب البناية ثم يعود، يهدأ من تلك القرصات التي تضطره إلى رؤية الشوارع والناس، وكان ذلك يتكرر كل يوم. وفي تلك الفترة، كان حريصًا على الاعتناء بمظهره، بالرغم من أنه كان لا يخرج إلّا في المساء، ولا يعرف أحدًا ولا أحد يعرفه، فلم تكن عزلته خارجية، كانت عزلة داخلية فرضها على نفسه أو فرضتها هي عليه.

استرخى على سريره وغط في نوم مصمت في انتظار انبلاج الصباح كي يحدث كريم في إجراء رأي من الضروري أن يتخذه.

***

استيقظ مبكرًا على غير عادته في الأيام الأخيرة، تجهز كأنه ذاهب لإجراء مقابلة عمل، ومكث ينتظر مجيء كريم. كانت الساعة العاشرة صباحًا، صدح صوت هاتفه بالرنة المميزة المخصصة لصديقه. وصف له مكانه وجلس ينتظر.

بعد أن وصل كريم فاقوس، بضع دقائق، كانت كفيلة لأن يصل خلالها للشقة ويكبس على زر الجرس. وبعد ذلك الاختفاء كان من الطبيعي أن يتخيل كريم شكل صديقه، إذ أنه رسم له في مخيلته صورة لطالما شاهدها في الأفلام والمسلسلات. يتغيب شخص لسبب ما، وإن حدث وظهر ثانية، يكن له شكل معروف،

إهمال كلي، ملابس غير مرتبة، شعر أشعث مبعثر، لحية وشارب كثان مهملان وإطراقة وشرود، وكأن أحدهم أخبره أن غدًا نهاية العالم ولم يعد ثمة ما يستحق الاهتمام! لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، إذ وجده أنيقًا متألقًا، وإن كان وجهه شاحبًا.

وبعدما رحب به أحمد وأظهر شوقًا عظيمًا له، أخبره بأنه يريد بيع الصيدلية بما فيها. وكانت المفاجأة صادمة بالنسبة لكريم الذي أخذ يرمي الكلام على عواهنه، أخذ يتشدق بكلمات من نوع: «أنت مجنون؟ إنت أكيد مجنون، تبيعها إزاي بس! إنت في سنة تالتة، يعني سنة كمان وتتخرج تلاقيها مستنياك». واستقبل أحمد كلمات صديقه بوجه جامد ثم قال: «محتاج فلوس».

بدا كريم حانقًا من قراره الغريب، لكنه لم يرد أن يكثر من مجادلته، فيكفي أنه عرف طريقه. وفي هذا قال لزهراء عندما أبدت استغرابها أيضًا بعد أن هاتفها وكان أحمد قد نزل للشارع ليحضر بعض الحاجات: «مش وقته يا زهراء، إحنا كنا فين وبقينا فين».

لكن كريم لن يدعه يفعل ذلك، سيجتهد هو وزهراء لنهيه عن تلك الفكرة، غير أن إقناعه الآن لن يكن بالشيء اليسير، ولن يكن في صالح أحد.

وكأن كريم تذكر شيئًا كان غائبًا عن وعيه فقال يُحَدِّث نفسه:

«محتاج فلوس! بسيطة».

كيف خطرت لكريم تلك الفكرة؟ تساءلت زهراء، وأبدت دهشتها وإعجابها، لكنها قلقى من ردة فعل ابن عمها الذي بات عصيًا على الفهم، تصرفاته تأتي مُفاجئة وغامضة أحيانًا، ويتصرف بشكل طبيعي أحيانًا أخرى - وإن هذا لهو المفاجئ منه والمثير - باستثناء قراره ببيع الصيدلية. كأنه لم يرزأ في عزيز، وليس ثلاثة!

ماذا ستكون ردة فعله حينما يعرف ما فعله كريم؟ فإن كان متماسكًا الآن أو يصطنع ذلك، ربما تدفعه تصرفاتنا وحرصنا على هديه إلى السبل الممهدة والآمنة إلى ما كان متوقعًا منه وتحاشاه إلى الآن. كانت زهراء تفكر في قلق.

كانت فكرة جيدة من كريم، لقد قام بكتابة منشور في المجموعة الخاصة بالمدينة، وتفاعل معه الكثيرون، ووقع اختياره على أحدهم انطبقت عليه مواصفات محددة كان قد رجاها، ولم تتبقَ سوى خطوة واحدة، وهي أن يجلب المفتاح من أحمد ليعطيه للصيدلاني الشاب.

وما حدث أن كريم فكر في الأمر على النحو التالي، بما أن مشكلته هي الفلوس، فالأمر بسيط غاية في البساطة، إعلان صغير ويتكفل صيدلاني بالمهمة. وعندها لن يضطر صديقه للبيع.

ومَن عودنا على المفاجآت، يبطل مرة بعد مرة، شعورنا تجاه أفعاله بالمفاجأة. إذ أن أحمد عاكس توقعاتهم وقَبل بأن يعهد

للصيدلاني بالمهمة وعدل عن قرار البيع، ليطيح بمخاوف ابنة عمه التي لم تعد تفهمه.

ومرت الأيام وشاب حياة أحمد شاكر نوعًا من الاستقرار، كان جليًا للجميع أنه تعافى من الصدمة، وإن كان لم يلحظ أحدهم عليه آثار لصدمة، لكنه الآن، بشكل أو بآخر، أكثر وضوحًا. فلقد تجاوز امتحانات آخر العام بنتيجة جيد جيدًا، مما خلف دهشة وآثار حوله علامات استفهام كثيرة.

أما ما حدث بعد ذلك، فكان تأكيدًا للشكوك التي لطالما أثيرت حوله، خاصة من ابنة عمه، إذ أنه اختفى لعدة شهور، ولكن ما جعل الأمر معقدًا أكثر، كون صديقتها روناء.. تختفي هي الأخرى.

***

نظرًا لما مر به أحمد، ولأنه بات منغلقًا وغامضًا كصندوق أسود قابع في قاع محيط معتم، حاول كريم أن يفك بعض طلاسمه؛ ليفهمه، ومن أجل ذلك اقترح على زهراء أن يخرجوا في رحلة ليدخلوا السرور على قلب صديقه، رحبت زهراء بالفكرة واقترحت وقالت: «أحمد طول عمره بيحب تسلق الجبال». استمع إليها كريم في ريبة، بالفعل يعلم أن صديقه كان يهوى

تسلق الجبال، كان ذلك فيما مضى، أما الآن، ومنذ مدة، صار لا يطيق حتى ذكر اسمها أمامه بسبب ما حدث له قبل ثلاث سنوات، يوم زلت قدمه في إحدى محاولاته للتسلق وفقد توازنه فسقط، ذلك السقوط الذي منعه فيما بعد من الالتحاق بالكلية الحربية، فقد ظلت ذاكرته محتفظة بما حدث، وتراءى له المشهد بأدق تفاصيله أثناء اختبارات القبول في الكلية، فلم يستطع لا القفز من أعلى المرتفعات ولا تسلق الجدران، فرسب.

لكن ما الذي يدفع زهراء للتفكير بمثل هذه الطريقة؟ فكر كريم: «تكون عايزة تواجهه بالحاجات إللي بيخاف منها علشان تكسر جواه حاجز الخوف؟ بس ممكن تتقلب الحكاية» ولكن ما حدث - وعلى عكس المتوقع - أن وافق أحمد وأظهر دربة ودآبة على الأمر.

وفي الأيام الأولى من شهر يوليو، حيث الحر الشديد، وصل أحمد وكريم وزهراء وروناء إلى منطقة نويبع، بعد ساعات من السفر، وكان ذلك بعد الظهر بقليل. كانت الشمس تتوسط كبد السماء، علت أكثر واستعرت فغرقوا في الرحضاء وعملوا آياديهم في تجفيف حبيبات العرق التي تلتمع بها وجوههم، لكنها سرعان ما تعود لتلتمع ثانية بفعل الجو الخانق القائظ.

ولكن قبل أن يصلوا إلى المكان المحدد الذي يقصدونه، والذي لم يهتم أحمد به وبتفاصيل الرحلة، فترك مهمة إدارتها

لكريم وزهراء، راح أحمد يهتم قليلًا ويتمعن في الجبال ويتسلقها بنظره إلى أن يصل إلى قممها، يناظرها بتحدٍ وأنفة، ولسان حاله يقول: سأهزمكِ هذه المرة. ربما ما يدفع بشخصٍ إلى الدخول في معركة وهو يكره المعارك ويخشاها؛ إيمانه التام بأنه لم يعد لديه ما يخشى عليه، وإيمانه بأن لا أحد سيفتقده، وأنه مدحور في الحالتين، الحرب والسلم. والسلم أكثر.

حينها ضغط كريم على مكابح السيارة التي انقلبت بعائلة صديقه ونزلوا جميعًا، قرروا أن يحظوا ببعض الراحة بعدما أصابتهم وعثاء السفر وأُرهقوا، ومن جانب آخر حرصوا على التريث إلى أن تخف حرارة الشمس. تخيروا فسحة بين جبلين عظيمين كانت لهما ظلة كبيرة، وفتح كريم صندوق السيارة وجلب حصيرًا بسيطًا وبعض النمارق متنوعة الأحجام. بسطوا الحصير ورصوا الوسائد وجلسوا.

ثم امتدت فترة الاستراحة إلى وقت الأصيل، عندها بدأوا يخرجوا حبالهم الغليظة وأدوات التسلق وعيون ثلاثتهم محدقة إلى أحمد. فجأة انتصبت روناء واقفة وقالت إنها لن تتسلق، وإنما ستأخذ نفسها في جولة حول الجبال؛ لتستكشف أسرارها. لم يهتموا. وبعد أن خطت خطوتين أحست ببوادر صداع، هكذا قالت. فأسرعت زهراء والتقطت حقيبة يدها وأخرجت من جيب صغير علبة دواء لمعالجة آلام الرأس، ومنها أخرجت حبوب

دواء لها أشكال مختلفة، وضعت واحدة في يدها وأعادت الباقي للعلبة. مدت لها يدها بها، تناولتها روناء منها ومالت بجذعها للأرض تلتقط قنينة ماء وذهبت.

تجهزوا بالمعدات وأصبحوا على أهبة الاستعداد، لكن أحدًا لم يجرؤ على التسلق، ليس خوفًا؛ وإنما لمرور ما يقارب نصف الساعة، ولم تأتِ روناء قط، توجسوا خيفة وارتابوا ريبة شديدة دفعتهم لأن يلقوا بالحبال والأدوات على الأرض ويتفرقوا بحثًا عنها.

طالت مدة البحث ولم يجدوها، كانت الصحراء واسعة والصخور منتشرة هنا وهناك، والطنوف المنيفة ممتدة على طول الأفق، لم يحددوا أين ذهبت واختفت بين تلك الصخور والأحجار. فكر كريم أنها لربما تكن حيلة من روناء لترى الخوف عليها في عيون أحمد مجددًا، بعدما اختفى خوفه عليها وأمحى اهتمامه بها من بعد ما حدث لعائلته ما حدث. أما زهراء فتعرف صديقتها، هي أرقى من أن تفكر في مثل هذه الحيل. أما أحمد، فلقد بدأ القلق يتسرب إلى صدره والغضب يفتح أبواب قلبه ويدلف له. لماذا تفعل به ما تفعل؟ لقد انصرف عن التفكير فيها للشيء ذاته، لكي لا يُجبر على الحزن على أحد من جديد، كما تألم حزنًا على مَن رحلوا.. ليس ثانية.

ظن أحمد بهدوء ضربات قلبه وقلة نداءاته باسمها أنه

تعافى من حبها أو بدأ في التعافي كما كان يأمل، لم يكن يدري أن هنا يكمن الخطر، في عدم خفقانه يكمن الخطر المنذر بالموت، وأن هذا الهدوء هو الذي يسبق العاصفة، فإنه يمهد لها لتأتي وتسمى عاصفة، فإن العاصفة لن تكون إن لم يسبقها هدوء يبرزها ويكونها.

روناء.. روناء. بدأت نداءات القلب. بدأت المعاناة.

بدأ حبه لها الذي كان محتجبًا خلف حواجز من خوف مجهول يظهر متجاوزًا حواجز أخرى عدة، منها حاجز الفقد. ولقد ظن أحمد أنه أعتى الحواجز وأقواها متانة وتحصينًا، إنما بدأ في التهاوي أمام أول نذير يهدد به. إن حدث لها شيء، فلن يسامح ابنة عمه، هي من أصرت على أن تصحبها معهم، ولم ترضخ لرغبته ونفذت ما كان رافضه بقوة. فعندما أخبره كريم بالرحلة، أبدت زهراء رغبتها في أن تصطحب روناء معهم، تلك الفتاة صاحبة العيون السوداء الرقيقة والنظرة العميقة، والوجه النوراني البض الذي يحمر خجلًا بمجرد مرورها على شباب الجامعة بمفردها، روناء غاية أغلب الطلاب، ميادة القد، ممشوقة القوام، التي يميزها لباسها الفضفاض عن باقي الطالبات، وصوتها الرخيم العذب. انفردت زهراء بها طويلًا في غرفتها بعدما زارتها، أطلعتها على ما تود هي وكريم القيام به، رحلة من أجل ابن عمها. تلك الساعات التي اختفيا خلالها في غرفة روناء قد أثارت دهشة ملك

والدتها وقلقها، وخروجهما معًا وعودتهما بعد ما يقارب الساعتين، فلم تعتادا الفتاتان على ذلك، فإن الشرفة كانت مكانهما المفضل، ولم تكونا تخرجان كما فعلتا، فكانت زهراء تأخذ وقتها وتغادر وحدها. ولكن الأمر لم يكن بالأهمية لأن يشغلها، فسرعان ما نست. لكنها سوف تتذكر ما صار، وتعلم أن قلقها كان في محله.

حرثوا المنطقة ولم يعثروا عليها، عادوا منكسي الرؤوس مثبطي الهمم، جلسوا على الحصير وخيم صمت قطعه أحمد شاكر صائحًا: «قولتلك متجيبيهاش معانا، مبتسمعيش الكلام ليه؟ مبسوطة كدة؟. شردت عيناه وأمسك بجانبي رأسه كأنه سيسقط مغشيًا عليه فأسرعت زهراء تفتح حقيبة يدها مرة أخرى وأخرجت علبة الدواء، وضعت واحدة في يدها وأعادت الباقي للعلبة تمامًا مثلما حدث مع روناء، لكنها أبقت عليها في يدها وانتظرت إلى أن تهبط أوداج ابن عمها قليلًا. بينما هب كريم ليسنده فصرخ فيه: «اقعد يا كريم، إنت معاهم صح؟ كلكوا اتفقتوا عليا، ليه خلتوني أخرج معاكوا، هاه، ليييه؟. وقفت زهراء قبالته وقالت: «اهدى يا أحمد ومتعملش في نفسك كدة، هترجع». امتقع وجهه واتسعت عيناه وارتسمت على جبهته آحاد الضجر، دنا منها وقال بنبرة حادة: «هترجع! لا يا أستاذة زهراء، إللي بيروح مبيرجعش، دا إللي اتعلمته من الحياة». وتوقف عن الكلام، أو أن الكلمات هي التي نفدت، بدا خائرًا للحظات، ثم استنفر قواه وأردف

بصوت متهدج بالكاد يُسمع: «إللي بيروح مبيرجعش».

لو أن زهراء تصمت. كان كريم يفكر بين نفسه. لكنها بدت وكأنها تعاند ابن عمها لتستفزه أكثر ليُخرج ما في جعبته، قالت:

- الموت علينا حق يا أحمد، وإللي راحوا ومرجعوش كان نصيبهم كدة.

زفر أحمد ثم تساءل باستنكار:

- ونصيبنا إحنا الحزن مش كدة؟!

ازدردت زهراء ريقها ثم قالت:

- دي أقدار مكتوبة.

قال أحمد بحنق:

- متكلمنيش عن الأقدار، ومتجيبيش سيرة الدين.

اكتست ملامحها بالدهشة، ونظرت إلى كريم الذي لم يولِ ما قاله صديقه اهتمامًا، ترى أنه يستحقه. أسرعت تقول:

- إيه إللي إنت بتقوله ده، استغفر ربنا وتعالى ندور عليها. وبعدين إحنا كبرنا الموضوع كدة ليه؟ تلاقيها بتتفرج على الجبال.

استغفر ربه، ثم حجب وجهه بيديه وتنهد وقال:

- أنا بكره الموت. سكت ثم أردف بضيق: بكرهه.

فقالت زهراء تحت نظرات كريم الذي ظل صامتًا يتابع:

- محدش بيحبه يا أحمد، ثم إن كلنا هنموت، بس الفكرة إن مين هيموت قبل مين.

ارتسمت على وجهه أمارات الحيرة وهو يقول بنبرة ملأها اليأس:

- أيوة.. ليه بقى ماتوا قبلي؟ ليه يخلوني أستصعب الحياة بعدهم؟ ليه يتكتب عليا الحزن بقيت حياتي؟!

وأحجمت زهراء عن الكلام، وأطبق صمت دام لثوانٍ قبل أن يستأنف أحمد قائلًا:

- المشكلة الحقيقية مش في الموت، إنما في الفراق، إزاي نقدر نعيش الحياة بعد ناس كانوا هما الحياة؟! إللي بيخلينا نستحمل الحياة برغم قسوتها وجود ناس بنحبهم ويحبونا، لولا وجود الدافع دا، لا هنقاوم ولا هنحاول من أساسه.

- مش عارفة أقولك إيه، بس حتى مهما خسرنا ولسة من الجايز إننا نخسر، فيه قدامنا فرص، نقدر نحب ونتحب ونخلق علاقات، زي ما بتقول تكون دافعنا للمقاومة.

ثبت نظره على ابنة عمه وصمت وهو يزم شفتيه غير مقتنع. فعندئذ قال كريم:

- وحتى لو مفيش دافع، فيكفي إننا نعيش الحياة لأسباب بسيطة، هي إننا لسة عايشينها فعلًا، وإن دي إرادة ربنا، وإننا ملناش حق ننهيها وقت ما نحب أو نستسلم ومنقاومش.

هز رأسه مللًا وهو يزر عينيه وقال:

- بطلوا مثالية بقى، لو بتعيشوا إللي أنا عايشه مش هتقولوا

كدة.

قالت زهراء:

- معاك حق، بس في حاجة ناسيها، درجة الإيمان في قلوبنا مش واحدة، ودا الفرق، دا إللي بيخلي إنسان يصبر ويحتسب، ويخلي غيره ينهار أو والعياذ بالله.. يكفر.

- أستغفر الله العظيم. قال أحمد ثم صمت.

فدنا منه كريم وربت على كتفه وقال بهدوء:

- إنت أقوى من كدة يا صاحبي، وعايز أقولك إن لسة في ناس كتير بيحبوك.

- مهي دي مشكلتي، دايمًا كانت دي المشكلة. لو مكانش حد بيحبنا وبنحبه كانت الحياة هتكون أسهل.

- أسهل أه.. بس مهيكونش ليها معنى.

- المعنى إللي تقصده هو الحزن يا كريم.

- الحزن مجرد شعور، ميختلفش عن السعادة، ولازم نعرف إن لولا الحزن مش هنعرف يعني إيه سعادة.

- زمان كان سهل عليا أصدق حاجات مكذبها، وآمن بحاجات كنت كافر بيها. أما دلوقتي.

اختزل حديثه ونظر للأفق البعيد، ثم تأمل صفحة السماء واستطرد بهدوء:

- بقى صعب يا كريم.

نظر إلى زهراء:

- بقى صعب يا زهراء. حتى أنا، نفسي.. مش مآمن بنفسي.

رجع كريم إلى الخلف ونكس رأسه ثم رفعه ثانية في مواجهة صديقه، ونظر للسماء مشيرًا بسبابته إلى أعلى وقال:

- آمن بإللي سامعك وشايفك وحاسس بيك دلوقت وسايبك تتكلم.

قال أحمد:

- لا إله إلا الله. طبعًا مآمن بالله. بس بستغرب وبسأل ومش لاقي إجابة، ليه ربنا خلق الموت؟ ليه خلق الناس أصلًا لما هيموتهم تاني؟! ليه نيجي الدنيا ونقرب ونحب ونبعد ونكره؟ ليه فيه حاجة اسمها فراق، ليه؟!

قال كريم بثبات:

- دي حكمة ربنا إللي مهما اجتهدنا في الفهم، مش هنفهم، بس نقدر نصبر وإحنا متأكدين إن ربنا أعلم بحالنا وأبصر مننا إحنا، وإن كل حاجة بتحصل لينا هي خير في أصلها وجزورها، مهما شوفناها غير كدة.

وتنحنحت زهراء كأنها تتهيأ للحديث وقد مالت على الأرض وأمسكت بقنينة ماء صغيرة، فنظرا إليها، واحمرت وجنتاها فجأة كأنما تعرضت لخجل شديد، وبيد مرتجفة وبصمت مدت كفها لابن عمها تناوله الحبة التي أخرجتها من العلبة. كان قد أجهد

نفسه بما فيه الكفاية، لم يفكر ولم يمانع على عكس ما كانت تتوقع منه، وهو في مثل تلك الحالة العصبية والهيجان، التقطها من كفها الصغير وألقاها في جوفه بحركة سريعة وأتبعها بقليل من الماء بعد أن ناولته بيدها الأخرى قنينة الماء.

هدأ وألقى بجسده المنهك على الحصير وأطبق صمت ازداد تأثيره بفعل السكون الذي لفهم، وفجأة، تناهى لأسماعهم صرخة أنثوية آتية من بعيد، كأنها من مكان سحيق. فهبوا ناحية الصوت.

***

منذ أخبرتها زهراء بخبر الرحلة وهي ترتعد فرائسها، يضطرب قلبها لكونها سترافق أحمد آخر غير الذي كان. من ذا الذي كان يستطيع أن يصدق أو حتى يتخيل أن الأمور ستؤول لما آلت إليه؟ أهذا هو الشاب الذي كان يتعمد الاحتكاك بها كلما غدت أو جائت؟ كان لطيفًا خفيف الروح والدم، يضايقها، يلاطفها، يمازحها من أجل أن تبتسم فيبتسم له يومه. كان غير باقي الطلاب، كلامه مختلف، نظراته محترمة، إحساسه صادق، مواقفه رجولية، عندما تقتضي الضرورة يكن حصنًا حصينًا، يدافع عنها ويحابي بضراوة، وفوق كل هذا وذاك، هو ابن عم صديقتها.

استطاع أن يُوجِد له مكانًا في قلبها، لكنها أبت أن تظهر له ذلك في البداية، ولكم ندمت أشد الندم على مجافاتها له التي اعتبرتها عنادًا وتدللًا، بيدَ أنها شعرت بعظيم الندم بعدما صار وحيدًا وصار غامضًا صامتًا، لا أحد يستطيع فك طلاسمه وفهمه. لم تحتمل أن تراه مكسورًا، تلتمع عيناه بدموع أبى كل ذلك أن يطلق سراحها، كأن له ثأر سيأخذه ومن ثم يطلق لها العنان لتترك مكانها باردًا وتريح أعصابه وتُبرّد نار قلبه بمرورها على صدره، فانتصبت واقفة مقررة عدم المشاركة في التسلق متحججة بأنها ستأخذ نفسها في جولة حول الجبال.

ودارت روناء حول أحد الجبال وتعمقت بين الصخور والأحجار وعندما رأت فوهة تظهر عادية من بعيد وجدت قدميها يجرانها إلى مجهول، انساقت تحت تأثير شيء لم تعرفه، كان أقوى من مجرد فضول. كانت تدفعها، بخلاف انسياقها، فكرة أنها تريد أن تختفي من أمام أنظار أحمد وتعمل على إقصائه هو الآخر عن ناظرها.

ولم تكن تلك الصرخة التي ندت عنها لتخرج لو لم ترى ذلك الثعبان الذي لم ترَ مثله من قبل، ومحتمل أنها لن ترى غيره في حياتها. كان مروره من أمامها خاطفًا لكنها ارتعبت وألفت نفسها تضطرب وتصرخ على رغم منها. وبعدما عرفت أن صرختها كانت عالية وهناك احتمال كبير أن تكون وصلت إلى أصدقائها،

همت تتعمق أكثر في أغوار تلك الأحجار الضخمة وكأنها تختبئ في خضم لعبة تلعبها معهم.

وصلت في طريقها بين الصخور إلى خاتمة ذلك الطريق، صخرة عظيمة اضطرتها إلى الانحدار شمالًا والدوران حول صخور أكبر ضخامة وبدأ المكان يظلم كلما تعمقت أكثر، وفي لحظة بعينها توقفت ونظرت خلفها، تفاجأت من كونها هرولت كثيرًا بين الصخور بدون سبب واضح، أهذا كله لكي تتهرب من نظراته؟ لا، ليس الأمر كذلك، شعرت وكأنها تُسحب وأحبت الأمر بعدما حدثها قلبها، وهي الفتاة الرقيقة المرهفة، بأن من الجائز أن تعثر على شيء ثمين، بالطبع لم يخطر على بالها أن تتعثر بكنز أو مثله، لكنها حدثت نفسها بأنها لربما تكون على وشك اكتشاف سر خطير، شيء ذي أهمية وقيمة، فحثت الخطى أكثر إلى أن توقفت على إثر سماع اسمها آتيًا من بعيد ويتردد صداه في محيطها. لكنها سارت ثانية عندما لاحت لها من بعيد فوهة أخرى أكبر سعة.

***

تفرق الثلاثة بين الصخور والمنحدرات، كريم وزهراء تخبطا في

الممرات الضيقة منفصلين ثم تقابلا في نقطة بعينها وسلكا طريقًا عنّ لهما من هناك، بحثًا في محيطهما وصرخا يناديان: «أحمد، روناء» دون أن يسمعا أحدًا يجيبهما. ثم سلكا الطريق الذي ظهر لهما وظلا يتابعان السير إلى أن وجدا أنفسهما يخرجان من حيث أتيا، أمعنا النظر فإذ بالحصير المبسط تراه أعينهما فغذا الخطى نحوه وجلسا ينتظران.

أما أحمد، وبطريقة ما، أخذ يسير في نفس الطريق الذي سلكته روناء، ربما كان يتبع إشارات قلبه، وحين رأى ظلها ينعطف وراءها في الممر الضيق مثل شبح، صاح باسمها. لكنها واصلت. فأخذ مسلكه خلف الظل واستمر يتابع إلى أن رآها من بعيد تحت سقف من الصخور ومحاطة بأخرى - كانت فوهة كبرى - تنظر أسفل قدميها وتتلفت خلفها وتبتسم له. واستطاع أحمد من تلك المسافة أن يلاحظ علامات الاستفهام البادية على محياها، خب في مشيه إلى أن وصلها. من دون أن تحدثه أشارت إلى الأسفل أن: انظر.

لم ينبث ببنت شفة، وهو يشيح بنظره عنها وينظر حيث أشارت، إنه درج حجري ممتد للأسفل بشكل لا يصدق، كان لا يرى آخره من فرط طوله، محاط بالصخور والأحجار التي مثلت ما يشبه نفقًا ضيقًا سحيقًا. في تلك اللحظة نطق أحمد:

- إيه ده؟

- معرفش.
- تيجي ننزل؟
- يالّه.

ووضعا أقدامهما على أول درجة وبدأا في الهبوط، كانت الدرجات صخرية حادة أدت بعد مضي الدقائق ومتابعة تقدمهما إلى إحداث الآلام في أقدامهما، بالرغم من الأحذية المرتفعة. تلك «السيفتيات» لم تستطع تخفيف الألم، وبعدما قطعا شوطًا كبيرًا وتقريبًا في المنتصف توقفا.

شعرت روناء بالإجهاد فتسمرت مكانها واضعة راحة يدها اليمنى على صدرها وهي تلهث وبالأخرى ربتت بها كتف أحمد الأيمن ليتوقف هو الآخر.

- مش قادرة يا أحمد.
- هانت يا روناء، قربنا نوصل.
- نوصل لإيه؟
- معرفش، بس تعالي نكمل للآخر.
- مش قادرة بجد.

وبابتسامة حنون كانت تتأمل قسمات وجهه العذبة وهي بين ذراعيه وجسدها يلامس صدره، تنظر لعينيه الدعجاوين كأنهما الليل الغهيب وتسرح. لماذا هو حلم واحد يراود أغلب الفتيات؟ شردت في ملكوتها الخاص ورأت نفسها محمولة بين ذراعيه في

مكان آخر، على درج أيضًا، لكنهما يصعدان، وأصوات صاخبة تضرب رأسها تأتي من الخارج، طبل وزمر ومباركات وزغردات وأهازيج و.... عادت لواقعها فوجدته لا يزال على حاله، يهبط الدرجات ونظره تحت قدميه خوفًا من أن تزل قدمه، خمنت أنه يتذكر يوم سقط وهو يتسلق ذاك الجبل. أطبقت جفنيها على عينيها وضمت شفتيها المكتنزتين إلى بعضيهما. في تلك اللحظة نفسها نظر إليها، ما أودع هذه القسمات! ما أبهى هذا المحيى! ما أروع هذه العيون المستكينة وما أشهى هذه الشفاة! يا لهذه البراءة التي استطاعت أن تجعله يهيم بها حبًا، وجعلته يتحرر من جموده ويخذل أفكاره الجديدة بألّا يتأثر بشيء وينشغل به كي لا يحبه ومن ثم يغادره، هذه الوداعة التي أدت إلى انسياقه خلفها يبحث عنها بين الصخور.

تفاجأ أحمد من كون الآلام بدأت تخف تدريجيًا، حتى ذراعيه كأنهما تخدرا، وكأنه لم يحمل شيئًا عليهما. واصل تقدمه دونما كلل ولا ملل، وفي نهاية الدرج، نظر إليها متأملًا وتوقف ففتحت عينيها ونظرت في عينيه مليًا. بحركة لا إرادية وجدت ساعديها يطوقا عنقه فأسرعت وأبعدتهما فتبسم وأنزلها برفق بعدما نظرا لبعضهما في خجل ودهشة. استغربا من أن الدرج ينتهي مباشرة في الهواء، عليهما إن أرادا الاستمرار في المغامرة أن يقفزا من مسافة متر تقريبًا، لم يكن القفز بالشيء الصعب،

ولكنهما فكرا قبل أن يفعلا. إذ أن ما رأته عيونهما كان مفاجأة صادمة. إنها مدينة كاملة، لكنها تتسم بعشوائية ليست لها نظير، وأناس عراة أو شبه عراة و.....

فكرا واتخذا القرار وقفز هو أولًا كي يمنحها الثقة وكي يتلقفها خوفًا من أن تُجرح. ألقى بثقله كله على الأرض الرمادية اللون وارتكز على يديه وقدميه بحركة رشيقة، ولا يعرف لماذا فعل ذلك، كأنه يقلد لاعبي «الباركور» أو «سبايدر مان».

***

«إن كان الوعي تطرق إلى الجنون، فأن نترك أنفسنا نعي.. هو الجنون ذاته»

- محمد كمال

- وهل تعتقد أنها قفزت خلفك؟ قال الشاب.

بينما أجاب الفتى:

- لا أدري.

عاد الشاب ينكمش، وترقرقت عينا الفتى بالدموع. وأمسك كل منهما رأسه كما هي حال الجميع في الغالب، كأن طواحين تضرب رؤوسهم وتدمع على إثر ذلك العيون.

«فيفا ٢٠١٨».. ردد الشاب بصوت مسموع، ثم سأل الفتى:

- ما المقصود «بفيفا ٢٠١٨»؟
- إنها لعبة.
- لعبة! كيف؟
- لعبة على جهاز «البلاي ستيشن»
- لم أفهم. ثم لماذا «٢٠١٨»؟
- إنه عام صنع اللعبة.

خرج الشاب من نفسه بعدما كان متقوقعًا داخله، كأنه قنفذ، وتحرر رأسه واشرأب بعنقه وقال:

- تقصد أننا في العام «٢٠١٨»؟
- نعم.

تمعر وجهه واتسعت عيناه دهشة قبل أن يقول بانزعاج بادٍ:

- هذا مستحيل، إنه أمر لا يصدق.

تنهد الفتى وقال متحاملًا على الآلام التي تنغز قلبه:

- لماذا؟

قال الشاب بتعجب وعبوس:

- لماذا؟! لأنني يوم فررت من الإنجليز كان العام «١٨٩٥»!

- نعم؟!

ثم زاغت عينا الشاب وغارتا في محجريهما، وبوجه جامد راح يحملق في لا شيء يقبع في الفراغ، كان لا يرى المدينة بأبراجها العالية وقصورها العاتية، ولا يسمع صخب مَن فيها على كثرتهم وهرجلتهم.

سأله الفتى:

- هل تمزح؟

- ....

- هل جننت؟

ونظر إليه مليًا ثم بارحه، وسار ناحية خان على الطراز القديم وعلى مصطبته استراح.

وتقدم الفتى نحوه واتخذ له مكانًا بجواره، وناظره الشاب بوجه حزين ثم نظر أمامه وقال:

- استمع.

كانت ليلة شديدة البرودة، التصقنا ببعضنا وتكاتفنا؛ لنستشعر الدفء ولو قليلًا ونحن في صندوق السيارة المغلقة التي يقودها أحد زملائنا، أبعدنا البنادق من فوق أكتافنا ووضعناها أمامنا لأنها كانت تتخبط فينا وتزعجنا في غمرة هذا التكاتف. تحسستُ مسدسي الذي هو على خصري وأنصتُ للسكون في الخارج، لا صوت يعلو فوق صوت الصمت العميق إلّا عواء ذئاب ونباح كلاب تركناها خلفنا. كنا خمسة أفراد في الخلف وسادسنا كان السائق والسابع كان بجواره وهو قائدنا. لم نكن ننتمي لفرقة بعينها، قاطعنا كل الطوائف حينها، كنّا مجموعة فدائيين أحرار نظمنا الزميل «طلعت نافع» الذي يجلس بجوار السائق. خرجنا من مقرنا في كهوف أجهل إلى الآن موقعها، كان كل شيء سريًا للغاية، حتى أننا لم نكن نعلم أماكن ثكناتنا المتفرقة والمنتشرة بين الجبال والوديان، ولم نلقِ يومًا بالًا لأن نعرف، كانت هناك أمور أهم تستوجب الانتباه والانشغال، ولم يكن بيننا مَن يهتم بالمديح والثناء. وفي هذا سأقص عليك حكاية قطعنا عهدًا على أنفسنا أن نقصها على كل مَن ينضم إلينا لكي نطلعه على أهدافنا وميولنا دون أن نشر إلى ذلك.

إليك القصة..

كانت مهمة خاصة ومختلفة وغاية في التعقيد، لقد كُلفت مع بعض الزملاء أن نقتحم أحد معسكرات الإنجليز؛ لتحرير زميل

لنا، كان قد وقع في الأسر. وحينما خطت أقدامنا أرض المعسكر المهيب دب في قلوبنا الرعب، كنا قبل ذلك اليوم نحسب أنفسنا على درجة عالية من الشجاعة، لكن ما حدث أننا فهمنا أن كمينًا قد نُصِب لنا، لا ندري مَن أخبرهم بما نود القيام به، لكننا تيقنا أننا في كمين محكم، ولكن أحدنا صمم على المضي قدمًا إلى أن تتم المهمة! وبعد أن أظهر دآبة على الأمر ونظرًا لحماسته الشديدة تشجع اثنان غيره وانضما له، فنظمنا أنفسنا بحيث يذهب الثلاثة وأبقى أنا ومن معي للمراقبة، كنا نعلم أن في حالة حدوث شيء خاطئ وخطر، لن نتمكن من حماية أنفسنا فضلًا عن حمايتهم، لكن هذا ما صار.

كان الظلام دامسًا ونحن ملثمون ومتشحون بالسواد، لم نكن نتعرف على بعضنا إلّا عن طريق أن يُعرّف كل فرد نفسه. وبعد ما يقارب ثلث الساعة، سمعنا دويًا من الرصاص يشق عباب الصمت المقيم، ورأينا وميضًا وشرارات تظهر من أعلى أبراج المراقبة. قلنا إنهم في عداد الأموات ولكننا لم نبرح مكاننا. مرت دقائق على تبادل النيران وظهر أربعة رجال يرتدون الزي الأسود المميز لنا، وكان أحدهم غير ملثم وصدره عارٌ، كان هو الأسير الذي حرروه. استطعنا بعد أن راوغناهم دون أن نضطر لاستخدام السلاح أن نفلت من براثنهم واتخذنا طرقًا غير التي جئنا منها، وبهذا نجحنا في المهمة وفي الإفلات من الكمين.

وبعد أن وصلنا الثكنة تساءلنا نحن الذين لم نشترك معهم في الهجوم : مَن وصل إلى الأسير وحرره؟ ولم ينطق أحد، وكررها الزميل «طلعت نافع» ولم يتلقَ إجابة!

دهشنا كل الدهشة، لا أحد من الثلاثة، يريد أن يخبرنا، حتى الأسير! نسينا الأمر، يكفي أننا عدنا به سليمًا، ولم يصب أحد فينا.

لكننا بعد مضي بضع دقائق من وصولنا للثكنة، عرفنا البطل، هو نفسه الذي صمم على المضي قدمًا إلى أن تتم المهمة، وعرفنا أننا عدنا بمصاب يلّوح الموت إليه بيديه وهو يقترب منه، ويقترب منه بطلنا بكل بسالة غير عابئ.

ثم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، تجمعنا حوله، وركع الزميل «طلعت نافع» عند رأسه يقسم عليه أن يحكي ما صار، لكنه كان يأبى، لآخر نفس له في الدنيا، كان لا يروقه الحديث المفعم بالمديح والثناء، كانت له كلمات بديعة، كان يرددها، ولكننا لم نكن نفهم ما يقصده، كان يقول: «الشمس تنير والقمر ينير، لا أحد يختص بالفضل نفسه، لا أحد يقول إن نوره أعظم، ولا نحن ندرك قيمتهما، ولكننا رغم ذلك نرى أثرهما الجميل خلال حياتنا» ثم يسألنا: «ماذا لو اختفى نور منهما من حياتنا؟». نصمت، فيجيب: «سنعرف حينها قدره العظيم، وسنحزن لأننا لم نعظمه بالقدر الكافي حتى وإن كان لا يرجو العظمة؛ لأنه يعرف أن هذا دوره في الكون».

ووافته المنية دون أن يخبرنا بما صار، لكنه أخبرنا بشيء آخر، ترجانا ألّا نذكر اسمه في القصص البطولية وأخبار الفدائيين، أن نطمس ذكره في الدنيا كي يُخلد في الآخرة. عرفنا فيما بعد ما فعله من الآخرين الذين شاركاه المهمة، قال أحدهما : لقد واصل تقدمه ببراعة وجسارة، وبادر بالإسراع لنجدة الزميل الأسير. وأكمل الآخر: وعندما شُدت أجزاء بنادق الأعداء، جعلنا خلف ظهره وببطولة نادرة تلقى عنا وابلًا من الرصاص، كان أغلبهم في الكتف، لكن واحدة أصابت مكانًا خطرًا، وطلب منا ألّا نحكي شيئًا حينما نعود للثكنة خصيصًا للزميل «طلعت نافع». ولكنهما فعلا وحكيا.

لماذا الزميل «طلعت نافع»؟ لأنه كان يعلي من قدر الأبطال الشجعان بيننا، يرفعهم درجات في القيادة، ويدّون أسمائهم بأخبار بطولاتهم في مذكراته الخاصة التي كلف أحد أصدقائه وهو شخص غير منضم لنا بنشرها بعد فنائنا جميعًا؛ ليستفاد منها كل فدائي يعشق تراب الوطن. وذلك الشخص لم يكن على دراية بنشاطنا، وبالتالي لم يكن يعرف ماذا تخبئه الورقات التي في حوزة الزميل «طلعت نافع» بين طياتها.

لنعد لحكايتنا الأولى..

بعد أن وصلنا إلى الهدف المنشود، وكان إحدى ثكنات الإنجليز التي ننتوي تفجيرها، تفاجأنا ببعض الضباط المصريين يجلسون

بينهم، كانت حفلة رقص ومجون، تساءلنا فيما بيننا: «أهم خونة، أم أصدقاء لهم فقط؟» ثم قررنا، في الحالتين، يجب القضاء عليهم، فلو لم يكونوا خائنين فهم الاحتمال الآخر، أي أصدقاؤهم، أي خائنون أيضًا. نثرنا المتفجرات حول الثكنة وابتعدنا وضغط الزميل «طلعت نافع» على المفجر. وفي لحظات تحولت تلك الثكنة إلى قطعة من جهنم، إذ أنها كانت تحوي كمية كبيرة من المتفجرات التي ما إن وصلتها النيران حتى أعلنت عن وجودها. وفي خضم ذلك الجحيم، هرع من في الثكنات الأخرى ليعرفوا ماذا يحدث، وكان أن رأونا على إثر النور الذي خلفته النيران. هاجوا وماجوا خلفنا ومن حولنا، وتفرقنا نحن جذع مذع، هرعنا نركض نحو السيارة ووصلنا إليها، وانطلق الزميل «طلعت نافع» بنفسه بها. وكان التراب يشكّل سحابة ضبابية خلفها من شدة السرعة، وكانوا هم يلاحقوننا بسياراتهم الحربية التي تزيد عن الخمسة، سيارات متفاوتة الأحجام والسرعة، لكن سيارتنا كانت أسرع. ووصلنا بعد سباق طويل إلى منطقة مليئة بالجبال والوديان الشاسعة، لم تستطع السيارة مواصلة التقدم لكثرة المنحدرات والتعوجات، فترجلنا عنها وأخذنا نعدو متفرقين، كان لأول مرة نفر من مطاردة بمثل تلك الطريقة العشوائية، كانوا يفيقوننا عددًا وعتادًا. ويجب أن أنوه لشيء، كانت من بين تلك السيارت الخمس سيارة مصرية، يرتدي من فيها الزي المصري، ما

معناه أننا المصريون، كنا نهرب من مصريين مثلنا! وكلنا يعتقد أنه على صواب. تواريت وراء بعض الصخور ورفعت رأسي قليلًا لاستطلع الأمر، لمحت عددًا من الجنود مدججين بالسلاح ومن بينهم مصريين، صوبت سلاحي نحوهم وضغطت بكل قوة لدي على الزناد، وعندئذ وقعت مفاجأة صادمة.

اكتشفت أن السلاح معطل، لا أدري كيف حدث ذلك. وعرفت أنني ميت لا محالة، لكنني لم أفقد الأمل، فتركت مكاني خلف الصخور ودرت حول أحد الجبال الشاهقة، ثم ألفيت نفسي في طريق ومشيت فيه إلى أن وجدتني عند فوهة فولجت منها ورأيت شيئًا عجيبًا، شعرت أن الله قد هداني لهذا المكان لينقذني، كان درجًا حجريًا مديد الطول وعظيم العمق، وكان أن هبطت درجاته وألفيت نفسي في هاتيك الأرض. أي أننا، أنا وأنت وصديقتك، وصلنا للمكان ذاته ونزلنا الدرج الحجري ذاته.

***

«١٨٩٥»! ردد الفتى بين نفسه ثم قال:

- عرفنا أن اسمي أحمد شاكر، وأنت؟
- فؤاد، فؤاد نورالدين.
- أفهم من ذلك أنك قبعت في المكان الذي جئنا منه كل تلك

المدة؟!

قال فؤاد وهو يغالب دموعه:

- إذا كان ما أخبرتني به صحيحًا، أي أننا في العام «٢٠١٨» فنعم.

وهو يهز رأسه متفهمًا ومتجاهل الدهشة التي أثارتها كلمات فؤاد نور الدين في نفسه قال أحمد شاكر:

- الآن عرفت لماذا تتحدث الفصحى.

وقال فؤاد نور الدين بنبرة مستكينة:

- الآن عرفت أنني أعاني معاناة فظيعة.

وما إن أتم جملته حتى انخرط في بكاء مرير، بينما أمسك أحمد شاكر رأسه بكفتيه وعينيه تلمعا بالعبرات، ثم تأمله من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه وقال له مستغربًا:

- ولكني أراك شابًا! كيف ذلك؟ لكأن السنوات لم تمر عليك!

ثم صمت حل بكليهما قبل أن يستطرد أحمد وهو ينظر إلى ذقن فؤاد وشاربه:

- وكيف لم تنمو لحيتك ولا شاربك؟!

ورفع فؤاد كتفيه مندهشًا ولم يحر جوابًا. أطرق كل منهما رأسه يفكر، ثم نظر أحمد حوله ورأى..

مدينة صاخبة، سريعة كل السرعة، بنايات حديثة شاهقة، ودور على الطراز القديم تشبه القصور، محلات متفتحة مليئة

بالزبائن، أناس يغدون وأناس يأتون، عربات تجرها خيول وسيارات حديثة، الأرضية مبلطة بالأحجار كأنها مدينة أندلسية. نظر إلى فؤاد الذي كان يبكي بشدة، ثم عاود الحملقة فيما حوله.

كانت الطرقات مزدحمة بالناس، يتخبط المارون في بعضهم البعض، يرتدون لباسًا مختلفًا، منه ما يبدو أنه يعود إلى العصور الوسطى، حيث السترات الخشنة التي تلتمع بشيء كأنه النحاس أو الفضة، معلقة على خصورهم سيوف في غمدها. ومنه ما يبدو أنه حديث الصنع، كالذي يرتديه هو. ولكن لا أحد يرتدي لباسًا من أوراق الشجر غير فؤاد وبعض الناس الذين جاءوا معهما من العالم الذي تُفقد فيه الذاكرة. شعر بالإجهاد وكأنه قد مكث شهرًا مستيقظًا، وقد كان كذلك حقًا، ولكنه لا يدري، أثاره منظر السماء والأرض وكل شيء وقع بصره عليه.

كان اليوم الطويل هلوف غائم، بين ليل ونهار، نظرة للسماء، لا شمس فيها، والسحب ركامية موشكة أن تكون هتون، لكنها لن تمطر بالتأكيد، ومن يدري؟ ربما تمطر.

عرف أن هذا العالم يشبه العالم الذي جاء منه في بعض الأشياء، لم يستطع أن يحدد كم مضى عليه من الوقت. وفي تلك اللحظات، كانت الصور تتراءى له تترى، تُعرض مشاهد حياته على شاشة ذاكرته ولا تغيب، ولكن أكثر المشاهد التي كانت وامضة في ذهنه: هو مشهده الأخير قبل أن يقفز إلى هاتيك الأرض، حين

كان بصحبة روناء. أحزنه عليها لأنه فقدها أعظم من حزنه على فقد أفراد أسرته؟ أم أن حقًا «الحي أبقى من الميت؟». لمعت عيناه بالدموع وازدادت ضربات قلبه واختلج صدره شفقة عليها وحبًا، كم تمنى لو أن يخبره أحدهم بحالها، تُرى ما مصيرها؟ سأل نفسه، ثم ابتسم لأنه يحدث نفسه بالفصحى، ابتسم وعيناه تترقرق بالدموع! حينها خجل من نفسه، وذلك عندما تذكر عائلته، فبمثل ضوء البرق سرعة أهمل التفكر في شأن روناء وبكى على من فارقوه.

نظر إلى فؤاد الذي ترك مكانه بجانبه، فوجده يستند إلى جدار وهو مطأطئ الرأس، أشفق عليه وفكر في أن يذهب إليه ليخفف عنه ولو قليلًا، صرفته الصور الحاضرة في ذهنه عن ذلك وقرر أن يمشي.

راح يمر من بين الجموع الغفيرة ويندهش، رأى شابًا يقف عند باب حانوت ويبكي ويقول: «أنا السبب، ليتني لم أفعل ذلك» حول نظره عنه لآخر يلطم خديه بعنف ويقول بالعامية «مكانش مفروض أسيبه، أيه إلي خلاني أسمع كلامه؟!» أشاح بنظره عنه وتحرك فوقعت عيناه على فتاة تصرخ وتتشدق بكلمات مبهمة، التقطت إذناه بعضها: «تركتني لمن؟». كانت الكلمات كثيرة والصراخ لا يهدأ، لغات عديدة، ملامح محدقة مريبة. وقف في منتصف الطريق يناظر المارين، هذا ينتحب وذاك يهرول باكيًا،

وتلك تجلس مقرفصة حاسرة الرأس وهي تتأوه وتتلوى من فرط العويل. سمع كلمات الحزن وأحس به ورآه في العيون، ولم يرَ السعادة البادية على البعض. ربما لأن حزنه كان عظيمًا، فلم يرَ غير الحزن، وربما أنه قصد ألّا يرى غيره سعيدًا كي لا تزداد معاناته، وربما وهذا هو الراجح؛ لأن الحزن دائمًا ما يأتي بكميات أكبر من السعادة، فيملأ الأمكنة ويجثم على الصدور.

ورأى هناك، على مبعدة منه، زخم ولغط، طغمة من الرجال ملتفون حول شخص، يضحكون ملء صدورهم ويصيحون، من صراخها تبين أنها امرأة. لم يشفق على أحد منهم، لأنه كان يشفق على نفسه فقط.

كانت ذاكرته قوية بطريقة أفزعته، تذكر أحداث مرت عليها سنوات، وسواء كانت حزينة أو سعيدة، كانت تبكيه. سار باتجاه فؤاد، أوزى ظهره إلى الجدار هو الآخر وانخرط في البكاء بعد أن فقد السيطرة على نفسه، اجتاحته مشاعر متناقضة. أكلأ عينيه حزنًا على من كلأ عمرهم. أولئك الذين تركوه للحزن، ولم يأخذوه معهم، أو يأخذوا.. الحزن.

سأل نفسه بالعامية، كأنه يرفض التواجد هنا: «ليه هنا فاكر كل حاجة وهناك مكونتش فاكر حتى أنا مين؟.

كانت الدموع لا تزال تهطل منهما بغزارة وصمت وهما ينظران أمامهما. صوب أحمد نظره إلى فؤاد وسأله:

- بتعيط ليه؟

رمقه فؤاد بنظرة استفهام.

كيف عزب عن باله ذلك وهو في عالم الذاكرة؟

تدارك أحمد الأمر، والحق أنه لم ينسَ؛ وإنما أراد أن يتكلم بالعامية ولو قليلًا.

- ما الذي يبكيك يا فؤاد؟
- كوني تأكدت من أني لن أراهم ثانية.
- مَن؟
- أفراد أسرتي ومعارفي.

تنهد أحمد وهو يقول بدموع دون أن يشعر بشفقة تجاهه:

- مثلي.

قال فؤاد:

- ولكنك تنتمي لعالم لا يزال قائمًا وأناس لا يزالون أحياءً، أقصد معارفك وأصدقاءك.
- وأفراد أسرتي يا فؤاد؟.

قالها وهو يبكي بحرقة، ولم يحر فؤاد جوابًا، لا لصعوبة السؤال؛ وإنما للا مبالته هو الآخر بمعاناة أحد غيره.

فجأة، باعد فؤاد بين ظهره والجدار وغالب دموعه وقال:

- هيا بنا نتحرك لنفهم ما يصير هنا.
- بملابسك هذه! قال أحمد مستنكرًا.

نظر فؤاد إلى نفسه وقد تملكه الحياء، (هناك لم يكن يستحي) فأسرع إلى أقرب خان لبيع التحف يستتر فيه عن أعين الناس، فلما رآه صاحب الخان وهو على حاله تلك نضا عنه عباءته وقدمها له فاحتبى بها دون أن يتحدثا. وما إن خرج من الخان مرتديًا تلك العباءة حتى أشار إلى أحمد ليتحركا، وقبل أن يتحركا أوقفهما بائع التحف.

***

عرفت زهراء أن ابن عمها كان مخطئًا، ليس أجمل شيء فيها إحساسها المرهف كما كان يخبرها؛ بل إنه أكبر همومها، لو لم تكن على درجة كبيرة من الاكتراث لما جافاها النوم بالليل وأصابها الشرود بالنهار. في تلك الليلة، فتحت نافذتها المشرعة على طريق صاخب وأخذت تناظر السيارات المسرعة التي تتضافر مع الأعمدة المصطفة على الجانبين على إضاءة الطريق وإظهار المارين فوق الأرصفة، سرحت. مر ما يقارب الشهر على ذلك المساء الكئيب، يومها، وبعد أن ألفيا أنفسهما، هي وكريم، يخرجان ثانية إلى الحصير المبسط والحاجيات الملقاة، جلسا قليلًا ريثما يعودا، أحمد وروناء، لكنهما تأخرا، وبدأ الليل يبعث سفراء له يخبرون بقدومه. تحركا ثانية يبحثان، عادا صفر الآيادي. قال كريم: «الدنيا ضلمت يا زهراء، وقدامنا سفر طويل». لا مفر.. كم لا مفر ستقابل زهراء في حياتها. إذًا كان لا مفر.. دقائق وكانا قد جمعا حاجياتهم جميعًا، الحصير والحبال والطعام والشراب، كل شيء، كأنهما آمنا بأن الغائبين لن يعودا، وركبا السيارة وانطلق كريم بأقصى ما لديه في الصحراء الرمادية التي تحولت لحالكة بعد سويعات من انطلاقهما.

في اليوم التالي، وفي سراة النهار ووسط الجبال والصخور،

كان دكتور بكر عبد الحق وولداه وابنته وكريم يبحثون، يلفون، يدورون، ينادون ويصيحون.. لا يرد على نداءاتهم أحد، تذهب النداءات، تغيب للحظات ثم تأتيهم ثانية بعد أن ترتطم بالصخور.. ليت مَن يغيب مثل صدى الصوت.. لحظات ويعود. لم تسعف الذاكرة كريم وزهراء على تذكر المكان، كانت الجبال متشابهة والفتحات والممرات كثيرة، حتى أن آثار إطارات السيارات قد اختفت، ربما بفعل رياح قوية أتت محملة بأتربة طمست آثار وقع أقدامهم وآثار الإطارات. تاها عن الموقع الذي كانا فيه يوم أمس. وكان هذا من سوء حظهم جميعًا، أي الباحثون.. أو من حسنه.

وقبل أن يعودوا جميعًا من حيث أتوا، توقفت زهراء عند أحد الجبال، بينما ساروا هم باتجاه السيارة وانتظروها، التفت حول الجبل ثم توارت خلفه، غابت لدقائق ثم عادت وهي تهز رأسها وتزم شفتيها، ما معناه أنها أخفقت في أن تتوصل إلى شيء.

وهي في السيارة مع كريم، في تلك الليلة وهما عائدان وحدهما في ظلام الليل، أخذت تفكر. ماذا تقول لعائلة صديقتها؟ تلبطت في أمرها إلى أن اهتدت لحل وقتي، وهو أن تتلفن لوالد روناء وتخبره بأن ابنته ستبيت عندها الليلة، وأنها لم تكن تنتوي المبيت لولا تأخرهما وطول المسافة، فأذعنت لعرض زهراء بأن تبيت الليلة وتغادر في الصباح. كان مخرجًا، لكنه كان ضيقًا

وأخذ في الضيق أكثر كلما مرت الأيام. سلكته زهراء ويحدوها أمل أن يعودا سريعًا، لكنهما تأخرا، يوم، يومين، ثلاثة، ما أدى والد صديقتها إلى مهاتفتها، فوقتذاك لم تملك إلّا أن أطلعته على الحقيقة. لم يملك هو الآخر غير أن يسرع إلى منزل دكتور بكر عبد الحق، وصل، سأل، عرف، علا صوته وغضب. ولكن ذلك كله لم يرجع إليه ابنته.

أخذ الصخب في الخارج يهدأ كلما مر الوقت حتى تلاشى والتهم السكون المدينة في جوف الليل الغهيب. أغلقت النافذة وخطت باتجاه السرير لتسكن ما يعتمل في صدرها. كانت فكرة كريم، لكنها مَن اقترحت تسلق الجبال، ماذا يفيد حسن النية، إذا جائت النتائج سيئة؟ أرادت أن تجعل ابن عمها يجابه ما يخشاه كما اعتقد كريم، أرادت أن تغير مفاهيمه ومعتقداته كي يستسوغ الحياة من جديد، لكنها ضيعته، هكذا ظنت.. وضيعت صديقتها. ليت إعصار الأفكار يسكن، ليت نيران لومها لذاتها تخبو، ليتهم يتفهمون حالها.. وليتهما يعودان. ليت ما نريده، يأتي كما نريده، لكننا دائمًا نختار الأفضل، ولن نحصل دائمًا على الأفضل. قالت تحدث نفسها بأسلوب الفلاسفة ثم خلدت إلى النوم.

***

إن كان غيابنا سيجعلهم يعرفون قيمتنا، أو يشفقون علينا، أو يتمنوا رؤيتنا؛ فيا مرحبًا به، ويا لضيق فهمهم وأسوءه من حل. في صباح اليوم التالي، استمرت زهراء تفكر على طريقة الفلاسفة. وكان ذلك بعد أن تحدثت مع والدها ووجدته قد تغير، أو هكذا ظنت. سؤاله عن ابن أخيه، اهتمامه، اقتراحه بأن يعلنوا عن اختفائه، لعل أحدهم يكون قد رآه ويخبرهم بشيء يتوصلون به إليه. فعلوا ما بوسعهم خلال تلك الفترة والتي وصلت إلى ما يقارب الشهر، ولا أمل ظهر، ولا جاءهم عنهما.. خبر.

«مات، بالتأكيد مات». قال عمه، وفكر رغم حزنه عليه وغضبه من ذاته لأنه لم يكن عمًا حنونًا، في أن «الحي أبقى من الميت» وبناءً عليه قرر بيع ما كان يمتلكه ابن أخيه الراحل. كان ذلك سريعًا، لكنه كان واقعيًا. ردت زهراء على تلك الأقوال بالصمت والوجوم، لماذا يخصها والدها دون أخويها بإخبارها بما ينتوي فعله؟ لأنه لمس شرودها ورأى شحوب وجهها؟ أم لكي لا تثور عليه غاضبة وتتهمه بأن الاهتمام الذي أبداه كان نفاقًا، وأنه يهتم فقط بما خلفه أحمد وراءه؟. «على كل حال، الفلوس ملهاش قيمة، لو كان فعلًا.. مات». هكذا قالت زهراء.

توالت الأيام حتى صارت أسابيع، والأسابيع شهور، واقترب العام الدراسي الجديد، العام الأخير لهم في الجامعة. ومَن يهتم

بضياع عام دراسي من شخص، إذا كان هذا الشخص، ذاته.. قد ضاع؟ إنها ابنة عمه التي لم تشك يومًا في عودتهما. كلام والدها عن الموت، لم يزعزع إيمانها برؤيتهما مجددًا. لكنها لا تملك دليلًا ماديًا يترجم ذلك الإيمان، فَسلمت، وإن كان لا يروقها ما يحدث، بما يحدث.

اتخذ والدها الإجراءات اللازمة للبيع، الشقة القديمة، الصيدلية، السيارة وبعض المتعلقات الأخرى الخاصة بعائلة شقيقه الراحل. أما الشقة الجديدة وأقساطها، فباعها لرجل سيتعهدها وأقساطها. وكان ذلك بعدما مر على غياب ابن أخيه.. ثلاثة شهور.

***

كان يومًا مرهقًا كالعادة، العملاء لا ينفكون يتوافدون حتى الساعة الأخيرة في العمل. سحب، إيداع، صرف.. كل على عجلة من أمره، وبالرغم من أن البنك كبير ومنظم، فأن البعض لا يلتزم بالتعليمات، فيُرى هذا واقفًا، وذاك متجولًا، كأنه في نزهة، وتلك تقهقه ملء فمها.

تقول الموظفة خلف الفاصل الزجاجي بينها وبين العملاء: «مش كفاية إن البنك يكون ليه نظام، لازم كل عميل كمان يتعمله نظام». قالتها بابتسامة توشك أن تكون ضحكة مجلجلة

لولا المكان. سمعتها زميلتها التي تقف خلف شباك ثان. لم تبتسم وهي ترمقها بنظرات شاردة. لم تنتظر الموظفة الأولى منها ذلك البرود كما وصفته لنفسها. تحسب نفسها قالت مزحة مضحكة. شعرت بغضب تجاهها وانشغلت عنها لبعض الوقت مع عميل. دقائق وعادت تناظرها بعد أن فرغت من العميل. اكتست ملامحها بنشوة ظفر بعدما شاهدت وسمعت أحدهم يصب جام غضبه عليها. واجهت الموظفة الإعصار الغاضب بنفس نظرة الشرود وهي صامتة. استمرت زميلتها ترقبها وقد ظنت أنها فقدت حياءها أو كرامتها وعزتها. فهي لم ترد على العميل ولو بكلمة واحدة. لم تكن تعرف أنها فقدت شيئًا آخر، فقدت.. ابنتها.

انقضت ساعات العمل واستقرت الموظفة صاحبة النظرات الشاردة خلف مقود سيارتها واتجهت ناحية المنزل. بعدما ضغطت على المكابح وتوقفت السيارة تمامًا، قامت بإطفاء المحرك ونزعت المفتاح من مكانه بحركة اعتيادية وظلت يداها مثبتتين على المقود، تنظر من زجاج السيارة الأمامي للاشيء بعيد هناك. استعادت تركيزها وفتحت الباب. تقدمت بخطواتها ثم توقفت أمام لوحة معدنية باللون الأبيض مخطوط عليها بالأسود وقرأت: «فيلا محمود السروجي» عادت خطوات للخلف وأخذت تحدق بالمبنى بحنق. لقد جمجمت في صدرها حزنها كل تلك المدة،

أثقل الأمر كاهلها وجعلها كالثكلى، تترنح من الداخل وإن بدت لمن يراها قوية متماسكة. أوغرت في صدرها غضب على من أفقدها بهجتها. أخذت تحدق بالمبنى المنمق وتمتمت: «الفلوس مبتسعدش الحزين.. الفلوس بتسعد إللي مستعد للسعادة عن طريقها، مبتسعدش إللي قلبه موجوع، الفلوس أحيانًا بتتسبب في الوجع، أو بتكون هي الوجع نفسه». تعتقد أن حالهم الميسور، هو مَن دفع الخاطف لاختطاف ابنتها أو.. لقتلها.

وعندما دلفت إلى الدار، سعت موظفة البنك صاحبة نظرة الشرود وهي زوجة رجل أعمال يدعى محمود السروجي إلى أن تتحاشى النظر إلى مجموعة الأوراق المرصوصة بعناية فوق بعضها، لكنها لم تفلح في مسعاها. وفي كل مرة تجتهد في أن تمنع نفسها من أن تراها وتخفق. ثلاثة شهور قد مرت على غيابها، هكذا تقول الورقة الأولى، حجلت عينيها وهي تحملق في التاريخ المعروض عليها، تمتمت تحدث نفسها ولا تزال عيناها مثبتتين على الورقة: «٤ أكتوبر، ٣ شهور يا روناء!» انهدت على أريكة في منتصف الصالة، بعدما ألقت بحقيبتها وسلسلة مفاتيحها على المنضدة التي أمامها. أشاحت بنظرها عن الورقة التي تُذكّرها بغياب ابنتها كأنها تعاندها. وذلك بعدما سمعت مفتاحًا يدار في قفل الباب الرئيس والتي ولجت منه قبل دقائق. وقد سبق ذلك صوت محرك سيارة يقترب ويرتفع إلى أن توقف تمامًا. فُتح الباب

ودلف رجل مديد الطول، يصارع في معترك المنايا من السنين، لا يزال رأسه متمسكًا بالشعر الغزير عليه، لكنه لم يستطع أن يحتفظ بلونه الأسود، فإن السنين قد أكسبته لونًا أبيض براقًا ومهيبًا، وبمثل اللون الأبيض، اصطبغت لحيته وشاربه الخفيفان. هذا الرجل هو محمود السروجي، زوجها، الذي فتنها بأخلاقه قبل ديباج وجهه ووسامته. مهذب وهادئ. إنما في الثلاثة شهور الأخيرة، أظهر شيئًا لم تعهده عليه، صار عصبيًا نافد الصبر. ألقى عليها نظرة حنونة وهو يزم شفتيه واتجه إلى غرفة النوم. وضع أغراضه على مستطيل من الخشب مصنوع بمهارة، تتصل به مرآة. وقبل أن يستدير ليواجه السرير نظر في المرآة. لقد شحب وجهه النضر وذوى. خطا باتجاه السرير وجلس على طرفه، أمال جذعه للأمام وأسند ذراعيه على فخذيه، نكس رأسه على صدره حتى كاد أن يسقط منه أرضًا. قبل أن يغيب في خبايا الأفكار المحزنة، أشفق على وردته التي كانت نضرة وذويت هي الأخرى، لطالما رعاها وسقاها حبه وظللها بدفئه وآواها بحمايته، لكنها ذويت جرّاء إهمال آخر، ولم يعرف إلى الآن من المتسبب فيه، وإلّا لكان عاقبه دون أن تأخذه به رأفة. فمن ذاك الذي استطاع إلحاق الأذى بعزيزته وهو يعرف أنها عزيزته؟ كيف يتجرأ أحدهم ويأخذ شيئًا ثمينًا عندهما، وهو ابنتهما، ليتركهما لا يساويان شيئًا بعده؟ تقول زهراء إن روناء كانت معهم آخر مرة، تقول زوجته

حانقة إن أحمد هو الوغد الذي أفقدهما نور عيونهما، فأخذه الغضب عليه ليقدم فيه بلاغًا رسميًا يتهمه فيه باختطاف ابنته، وقد شجعته زوجته على فعل ذلك، لكنه يشعر الآن بأنه ظلم الفتى. وذلك بعد أن قصّت عليه ابنة عمه زهراء قصته. مال قلبه للفتى، أحبه رغم أنه لم يره في حياته، وتمنى لو أن يعودا ليكون له والدًا. نفض عنه جميع الأفكار وخرج ليخفف عن زوجته.

وقف قبالتها، رشقها بنظراته الحنونة، كانت خائرة القوى، تستند برأسها إلى ظهر الأريكة وهي مغمضة العينين، أشاح بوجهه عنها وتنفس بعمق، شعرت به، شمت رائحته التي تعشقها، رفعت رأسها، نظرت إليه، عاد يناظرها، نظرا في عيني بعضهما، تحدثا طويلًا، وهما صامتان. اقترب منها وهو يتمتم بين نفسه: «شايفة عملتي إيه فينا يا روناء!» لا يعلم أن ابنته الآن تعاني ضعف ما يعانياه هما وشقيقها.

- ارحمي نفسك شوية يا ملك.

ازدردت ريقها وقالت:

- وإنت كمان.

صمتت للحظات ثم أردفت:

- ارحم نفسك.

هز رأسه، وجلس بجوارها وأحجم عن الحديث. مر بعض الوقت وهما صامتان وكان الأصيل قد أوشك أن يغيب في غياهب

المساء. قالت ملك:

- محمد هييجي إمتى؟
- سيبته بيقفل شوية أوراق، هيخلصهم وييجي.
- أنا قلقانة عليه.
- ليه؟
- هو كان بيعرف أحمد شاكر؟

اعتدل محمود السروجي وقد أيقظه اسم أحمد وقال:

- ليه بتقولي كدة يا ملك؟

اعتدلت هي الأخرى، تنفست بهدوء ثم قالت:

- أصله قاللي كلام غريب، قال إن أحمد شاكر ده كان شاب مضطرب نفسيًا، وعجيب أحيانًا، حركاته، سلوكه، حتى أخلاقه، وقال كمان إنه كان مثقف وذكي، و... وكان مخلص وأمين. وإنه بيستبعد حكاية خطفه لروناء.

اعترى زوجها فضول شديد ليعرف المزيد، كيف لم تحدثه بذلك قبل الآن؟ تجاهل كونها تتحدث عنه بصفته أصبح من الماضي الذي لن يعود، بقولها كان وكان، وقد آلمه ذلك كون ابنته مشتركة معه في الغياب.. وأسرع يسألها:

- وهو عرف عنه كل دا إزاي؟
- لمّا سألته نفس السؤال، قال من بنت عمه زهراء.

زر عينيه حتى كادا حاجباه أن يتلاقيا وقال:

- ويعرف زهراء منين؟ محمد كان في جامعة القاهرة وهي وروناء وأحمد في جامعة الزقازيق.
- محمد بيحب زهراء، وكان لمحلي إنه عايز يتقدملها.

تنهد زوجها ثم قال:

- ما علينا.. يعني زهراء هي إلي قا... البنت دي طيبة ومفكرة إن الناس ملايكة. وإللي عرفته إنها بتعز ابن عمها أوي وشايفاه إنسان كويس. هي كانت حكتلي حكايته، صعب عليا أه، بس حيرني أمره.

لفهما الصمت لثوان، ثم شعر زوجها بأنه يكنّ نفس المشاعر الطيبة لأحمد.

- أنا عايز أقولك إن أنا كمان مستبعد إنه يعمل كدة، بس ليه اختفى هو كمان؟ وفين؟

أمسكت رأسها، ثلاثة أشهر وهي تفكر وتخمن ولم تخرج بشيء. قالت:

- حتى الشرطة موصلتش لحاجة و...

أبقت جملتها مفتوحة بعدما سمعت صوت مفتاح آخر يدار في قفل الباب.

- السلام عليكم. قال ابنهما مبتسمًا.

وانطلق صوتهما في نفس اللحظة يردان عليه سلامه.

***

بعد العَشاء ارتدى محمد السروجي معطفًا ثقيلًا وحمل صينية عليها كأس من الشاي وفنجان من القهوة، وخرج إلى الشرفة حيث والده الذي لم يمنعه الطقس البارد من ممارسة عادته بتأمل صفحة السماء خلال الليل. قعد على كرسي مقابل له بعد أن وضع الصينية على المنضدة التي تفصل بينهما. التقط الوالد فنجان القهوة، أخذ رشفة بعد أخرى، مصمص شفتيه في لذة وهو يتأمل الفضاء المظلم إلّا من نقاط ضئيلة الحجم تزينه وتؤنس الناظرين. قال وهو يتمعن في تلك النقاط المضيئة:

- كان يوم فظيع، كنت في بداية شغلي، شاب متخرج من فترة وبيشتغل حاجة تانية خالص غير شهادته، هيه.. عمري ما حبيت الهندسة، جدك الله يرحمه صمم إني أكون مهندس، تقديري كان يدخلني طب، بس كمان مكانتش رغبتي طب، عارف كنت عايز أكون أيه؟

كان عاقدًا ذراعيه على صدره وهو مبتسم، مصغيًا بكل حواسه لحديث والده، غارقًا في التفاصيل، كأنه يعايشها، باغته والده بسؤاله فأخرجه من تخيلاته، هز رأسه ولا تزال الابتسامة على وجهه وقال:

- أيه؟

- فنان.
- ممثل؟
- رسّام.

زادت ابتسامة محمد السروجي وقال بقليل من الاستغراب:

- طيب عادي، كان ممكن ترسم وإنت بتشتغل في الهندسة، حتى إن الهندسة فيها رسم!

لوى والده فمه وقال:

- لأ.. رسّام بجد، يكون كل وقتي للرسم، ويكون ليا معرضي الخاص.

سكت، عاد يتأمل الفضاء، ثم أردف:

- نرجع لموضوعنا، كان يوم فظيع زي ما قولتلك، كنت وقتها بشتغل في شركة بتستورد منتجات تجميل، زي شركتنا دلوقت. كلفني صاحب الشركة بمهمة ملهاش علاقة بوظيفتي خالص، كنت بشتغل محاسب! وحتى وظيفتي مكانش ليها علاقة بشهادتي زي ما قولت قبل كدة، المهم، اداني شنطة فيها فلوس، كام ألف كدة يعني، وقاللي روح حطهم في البنك الفلاني، مع إني كنت لسة متوظف قريب، يظهر إنه كان بيختبر الناس إللي بتشتغل معاه، وإنه عمل كدة مع إللي قبلي. اسمع بقى واتخيل الأحداث:

بعدما عاد السروجي من مكتب صاحب الشركة وفي يده الحقيبة، جمع حاجياته الخاصة من على سطح مكتبه في غرفته،

هاتفه ونظارته الشمسية وسلسلة مفاتيحه وخرج من باب الغرفة، وأحكم إغلاقه. سار باتجاه المخرج وهو يفكر، ترهقه الحقيبة في يده أكثر من عمل الأشهر القليلة التي عمل خلالها في شركة زياد طاهر. وخلف ستار من الزجاج، تراه إحداهن يناظرها بعينين صافيتين وزائغتين، لكنه لم يكن يراها، كان ينظر لانعكاس صورته شاردًا في أمر الحقيبة. ذلك الزجاج الخائن الذي تركه ينظر فيه لصورته، وأظهره من الجهة الأخرى وعراه من كبريائه ولياقته. قبل أن يصل إلى باب الخروج تذكر أنه قد نسي مسكناته، الشيء الذي ينفث همومه من خلاله. رأته الفتاة يعود ثانية دون أن ينظر إليها، غضبت لأنه تجاهلها، مع إنها تعلم حق العلم أنه لم يكن ينظر إليها. انهمكت في عملها وهي تنتظر مروره الثالث. ها هو يحث الخطى مرتديًا تلك النظارة التي تضفي عليه غموضًا فوق غموضه، ويده تزور فمه كل فينة وأخرى، وبين كل زيارة وأختها، يخرج من فمه دخانًا مزعورًا، قد زار هذا الدخان صدره المعتم واختنق من ضبابه بدلًا من أن يختنق صدره منه. أشاحت عنه الفتاة بنظرها حالما رأته بعينيها وهو يغادر المبنى بعد أن صار أمامها مباشرة وليس ثمة ما يحجبه عنها.

ألقى بعقب سيجارته على الأرض وسحقه بقدمه كأنما يسحق ما يضني قلبه، أزعجه صوت أبواق سيارات الأجرة التي ما إن يرى سائقوها أحدهم واقفًا أو متمشيًا حتى يتسابقون للظفر به،

فأوقف أحدهم ليتخلص من إزعاجه وإزعاج الآخرين. أخبره عن وجهته وغرق في ملكوته.

أيقظه صوت هاتفه، إنه أحد أقربائه يريد أن يثقل كاهله بخبر محزن، حجر كبير ثان يجثم على صدره الذي صار هشًا بفعل الصدمات، فلم تشفَ ندوب صدره قط من وطأة الحجر الأول، يوم رحلت والدته قبل أسابيع. وها هو الآن، وهو في أوج ضعفه وهوانه، يستلقي على ظهره عاري الصدر ليستقبل صخرة لا تقل ضخامة عما سبقتها. ولم يكن ذاك الحمل الثقيل، والخبر الأليم، سوى رحيل والده. ها هو ذا يصير وحيدًا منفردًا إلّا من بعض الأقرباء المنصرفين إلى أعمالهم بانهماك، يصير ضعيفًا، بعدما انهار ساتره المنيع، يصير عرضة للأعاصير والزوابع وأواجد الدنيا بعدما ذاب حاجزه الفولازي الصلب وانصهر تحت تأثير نيران العمر التي لا يقف أمامها قويًا أو ثريًا أو ذا سلطان.

استفردت به الأفكار واستقوت عليه، تطوحه يمنة ويسرة دونما أدنى مقاومة منه، أسبل جفنيه على عينيه المثقلتين بالهموم والفائضتين بالدموع فهتنتا بغزارة، تتابعت الدمعات واحدة تلو الأخرى وأخذت تتقاطر على وجنتيه وهو مستسلم. نظر للحقيبة، فكر، أيعود؟ وعمله؟ من أين له بوظيفة أخرى مثلها؟ نعم لا تناسب شهادته وقدراته لكن راتبها مجزٌ، ورب العمل امرؤ يحترم موظفيه ويكافئهم، إن كانوا أهلًا للاحترام والمكافأة.

ينظر للحقيبة تارة وللسائق تارة أخرى. «فيه حاجة يا أستاذ» قال السائق.

- وقف العربية لو سمحت.

تنحى السائق جهة اليمين، ما قصة هذا الشاب الذي يحتضن حقيبة ويبكي؟ سأله:

- نرجع؟

لحظات من الصمت، انتظر السائق خلالها إجابة وهو يحدجه بنظرات متسائلة مرتابة.

- لأ.. كمل ناحية البنك.

كان قرارًا بالاستسلام للظروف الراهنة، والخوض في المنغصات والأحزان بأقدام عارية متسخة والاستحمام فيها بخمول، ولا مبالاة، أو بالمواصلة برغم أدران الحزن التي تلتصق به أينما غدا أو راح. ولقد قرر أن يغدو فيما هو مقدم عليه بهمة، ثم الرجوع لاحتضان الأوجاع بنفس الهمة، فقد أدرك أن في الحالتين، الاستسلام أو الموصلة، لن تتركه الآلام وشأنه طالما أنه يحيا. فلا مفر منها إلّا لها، عندها، ساعة تجده يواجهها بجسارة غير عابئ، محتمل أن تتركه وشأنه.

وصل للمبنى المنمق، أخذ رقمًا وجلس ينتظر دوره. وبعد دقائق أخبره الصوت الأنثوي الرخيم أنه يجب أن يتواجد هناك، عند فتحة صغيرة في الفاصل الزجاجي، والتي تستقر خلفها فتاة.

بعدما فرغ من إيداعه للمبلغ الذي تحتويه الحقيبة، كان قد عرف لماذا يصّر صاحب الشركة على هذا البنك دون غيره. عرف ذلك وأكثر من الفتاة التي أتمت له المعاملة وأعطته إيصالًا بالمبلغ. فلم تكن تلك الفتاة خلف الفاصل الزجاجي سوى ابنة صاحب الشركة. والتي أخبرت والدها بعد أن غادرها موظفه بأنه قد أتم العمل الذي كُلف به واجتاز اختبار الأمانة. لكنها لم تخبره بشعور قد بدأ يعتمل في صدرها، إحساس لم تعهده مع أي من الموظفين الكثر الذين أرسلهم لها والدها بحقائب مماثلة، ولم تعهده هي ذاتها مع أي أحد من قبل، فقد خطفها ظلام عينيه لتفكر في أن تبحر فيهما، فبرغم الهول الذي من الطبيعي أن يبثه الظلام في النفوس، إلّا أنها أحست بطمأنينة عندما اقترب منها. يبدو الظلام مخيفًا إلى أن نوقن أنه الأمان، وأن النور الذي في الخارج؛ إنما هو الرعب الحقيقي، عندها يرتعش الظلام خوفًا منا ويتلاشى.

توالت البعثات، أصبح محمود السروجي موظف الحسابات هو الرجل الأول لدى زياد طاهر، وضع فيه جل ثقته وجعله مديرًا تنفيذيًا للشركة. قربه منه في العمل وقربته منه ابنته في البيت، إذ فاتحه محمود بعد مفاتحة ملك، ابنته، في أمر الزواج. عاشا أثناء زياراته لها في البنك، قبل البوح بمشاعرهما، قصة حب صامتة، قصّت العيون كل ما يعتمل في قلبهما، قالت النظرات كل شيء بصدق وتوفية، دون مجاملة أو مخاتلة أو نقصان.

وبعد فترة من الزمن، توفي زياد طاهر، والد زوجته، بعد أن تركها في يد أمينة وعينين مصابتين بحزن عميق، لم تمحوه السعادة، برغم أنها كانت فوق التوقعات. لكن ها هو الرجل الذي عانى رحيل شخصين عزيزين، يعاني رحيل شخص عزيز مرة ثالثة. لكن الراحل لم يغادر كله هذه المرة، بل ترك جزءً منه.

تحول كل شيء بيد ابنته التي هي زوجة محمود السروجي، وتمر السنون ويُعوضا بعد رحيل الأحبة، بحبيبين آخرين. وعلى قدر الأحبة يكن حجم الخوف، وعلى قدر المحبة يكن حجم الشوق وعلى قدر الحب يكن حجم الرعب من الفراق.

- ياااه يا بابا! أول مرة أعرف حكايتك مع ماما، وأول مرة أعرف إن شركتنا دي مش حضرتك إللي أنشأتها.

- جدك يا محمد، الله يرحم جدودك، كان راجل زكي، حب يسيب بنته في أمان، ميعرفش إنه زرعها وسط أشباح. أنا كنت فاكر زيه، إن ملك بقت في أمان معايا، من الدنيا يعني وأطماع الناس، بس عرفت بعد كل السنين دي إن الأمان هي روح مطمئنة، نقرب منها فتطمئن أرواحنا المزعورة. وأنا عمري ما كانت روحي مطمئنة.

حين صمت والده، فكر محمد قليلًا، وهو ينظر للصينية والكوب والفنجان الفارغين. أيذهب لإحضار المزيد كي تطول جلسة السمر

هذه، أم يرحم والده من تلك الذكريات التي اجترها طواعية دون أن يطلب منه ذلك؟ أخذ يفكر وهو يتمعن في النجوم التي زادت تألقًا بعد أن ضعف ضوء القمر، والده أخرج ما بداخله من تلقاء ذاته، معنى هذا أن الأمر قد أده وأشقاه، كان طول تلك السنوات المنصرمة يحاول أن يتناسى ما كان، كثرة الراحلين، ويحيا بقلق من أن يرحل المزيد، احتمل ظهره الكثير، ولم تكن روناء إلّا تلك القشة التي قصمت ظهره، لم يعد يستطيع أن يتجشم أكثر فلجأ إلى الفضفضة. والتي تعد اعترافًا ضمنيًا منه بأنه قد بات ضعيفًا ولم يعد يحتمل.

- وليه كان جدي موافق إن ماما تشتغل في بنك ومتشتغلش معاه في الشركة؟ وليه لسة بتشتغل لحد دلوقت؟
- علشان دي رغبتي يا محمد. وبابا حاول معايا كتير.

يبدو أنه استغرق الكثير من الدقائق في التفكير وتأمل النجوم، فعندما سمع صوت والدته أفاق من شروده، ونظر إليها وعلائم الدهشة تحتل وجهه. عرف أن والده لم يكن في استطاعته سماع أو قول المزيد، فترك مكانه ورحم قلبه مما يتذكره عقله.

وقبل أن يقوم هو الآخر ليترك والدته تأخذ نصيبها من استرجاع الذكريات في حضرة القمر والنجوم، تحدث نفسها وهي تعلم أنها ليست وحدها، فها هو القمر يترقب بنفاد صبر رؤيتها بمفردها، وها هي النجوم تنتظر أن تتأملها تلك العينين بحرقة.

إنها تشعر بالفضوليين وتهيئ نفسها للقائهم. قبل كل ذلك سألته:

- هترجع ألمانيا إمتى؟
- مش قبل ما تظهر روناء.

تنهدت والدته وقالت:

- أنا قولت لباباك عن إنك عايز تتقدم لزهراء.

أشرق وجهه فجأة، وقال:

- وقالك؟
- كلمتين اتنين.

غام وجهه قليلًا قبل أن يقول:

- قال أيه؟

واسترخت ملك طاهر في مقعدها وقالت:

- ما علينا.

اكفهر وجهه ومال عليها بجسده كله قبل أن يقول مستغربًا:

- قال ما علينا؟!

أجابت والدته بإشارة من رأسها وغرقت في مقعدها أكثر، صار رأسها في مواجهة السماء وهي مسبلة العينين. ابتسم محمد وانسل في هدوء خشية أن يزعجها ويزعج ضيوفها الذين تهيئا للقائها.. القمر والنجوم.

تذكر محمد السروجي وهو على سريره وقبل أن ينام، كيف استقبل خبر اختفاء شقيقته روناء، وهو في ألمانيا، لم تُكتب

لزيارة العمل المعتادة تلك الاستمرار أكثر من أسبوع وعاد مسرعًا. مديرًا تنفيذيًا للشركة وظيفة ممتازة لشاب في مثل عمره، لكنه مثل والده، درس شيئًا وعمل في شيء آخر. كان قد تخرج في كلية دار العلوم والتي حصل عليها من جامعة القاهرة قبل عام واحد، يهوى الشعر ويكتبه، ولكنه لم يجرب أن ينشر كتاباته قط، تحتفظ أدراج مكتبيه في الشركة والمنزل بالعديد من الأوراق التي دوّن عليها العديد من قصائده وخواطره. هو مرهف الحس، واسع الخيال، يستخدم ألفاظًا بديعية غاية في التعبير والوصف، لكنه مع ذلك لم يستطع أن يخبر زهراء صراحة بما يعتمل في قلبه تجاهها، فكلف شقيقته بأن تخبرها. وكان ذلك قبل شهور قليلة من اختفائها الغامض. هو طويل مثل والده، لا يخلو من وسامة. مجتهد في عمله، وإن بدا دائمًا كأنه منصرف إلى شيء آخر غير ما يقوم به.

قبل أن يخلد للنوم، زارته زهراء في صحوه، تذكر صوتها الرقيق، سرح في قسمات وجهها البشوش. لم تلفت أي من الفتيات اللاتي تعملن في شركة والده انتباهه، ولا أي من فتيات الجامعة أو حتى ألمانيا، وفعلتها هي، زهراء، صديقة شقيقته التي رآها معها في إحدى زياراتها لمنزلهم. لم يسبق له أن شاهد عينين زرقاوين يشعان أملًا مثل عينيها، كان هذا باديًا لمن لا يعرفها عن قرب، وسمح محمد لنفسه بالتقرب منها كشقيق صديقتها

إلى أن أحاطه سحرهما. تلكما العينين المواربتين، لم يكن أملًا ذاك الذي رآه؛ بل كان حبًا للغير وللخير محتبيًا برداء من شفقة. استشعر بحسه الشِعري المرهف ما تكنه زهراء من محبة خالصة لكل من تعرفهم، وقد علم أنها بذلك تعاني معاناة رهيبة، فكل شوكة ستصيب معارفها، ستنغز قلبها قبل المكان الذي ستصيبه في جسدهم. يا لتعاستها من فتاة، تحمل قلبًا رقيقًا مثل ملمسها البض، لم يخشوشن ويقسو قط، وإنها من تلك اللحظة التي اكتشف فيها تلك المأساة - لقد سمى شعورها النبيل مأساة - غزت قلبه من دون أسلحة أو جيوش، دلفت لأرضه واستسلم هو راضيًا سعيدًا بأن يخضع لسلطانها. تلك القصيرة، البسيطة، ذات الملامح الدقيقة الرائقة، إنها تشبه نجمات السينما في أوج زينتهن وبهائهن، ولكن من دون مساحيق. مرحة تحب المزاح. معروفة وسط صديقاتها بالإسفنجة الزرقاء، لأنها تستمع لهن، تمتص أوجاعهن، تخلصهن مما يؤلمهن.. وتتشبع هي بتلك الأوجاع!

بدأ الكرى يداهمه، أوقف تخيلاته ليخضع لسلطان النوم متمنيًا أن تزوره في أحلامه.

استيقظ صباح اليوم التالي على صوت هاتفه. كان وجهه متجهمًا لأنها لم تزره، لكنه سرعان ما ابتسم وانشرح صدره، فلقد زارته في مكان آخر.. كانت هي المتصلة. ظل نشيطًا مبتسمًا طيلة اليوم الذي حدثته فيه، مع إن المكالمة كانت عادية، ولم تخرج

عن موضوع روناء وأحمد، إلّا أن ما هلل أساريره، كونها أخبرته بأنها سوف تزورهم، في منزلهم وليس.. حلمًا. لكنها لم تحدد متى. ومضى ذلك النهار وحل المساء، وعاد كل من عمله، ليتجهزوا لاستقبال الليل وللعودة لتذكر ما يحاولون نسيانه أثناء النهار وهم يزاولون أشغالهم. إن لم يوجد ليل، تُرى ماذا ستفعل كل تلك الأشياء والأفكار والأحداث والكلمات؟ كيف ستسلي وقتها؟ إلى أين ستتجه؟ هل ستغزوهم بالنهار وتشل تفكيرهم وأجسادهم؟ إنها رحمة الله بنا، أن جعل لنا ليلًا لباسًا.

***

في غرفة الجلوس، أمام شاشة تُعرض أحد الرجال الملتحين، في أحد البرامج الدينية، يجلس شاب متوسط الطول، نحيف، ملامحه وديعة كطفل، لكنه صعب المراس، عسر الصحبة، بالرغم من أنه ملتزم دينيًا، هو ضياء شقيق زهراء. مضت زهراء في طريقها إليه مترددة، يختلج في قلبها الكثير ويرهقها التفكير، مشاعر، كلمات، اقتراحات.. كانت تتحدث إليها، تشرح لها وتنتظر رأيها، لمن سوف تحكي الآن عن التي كانت تحكي لها؟! روناء.. صاحبة العينين السوداوين كأنهما ليل أدعج، كانت تسبح فيهما، في السواد الحالك، بدون أن تغرق، تلجأ إليهما فارة من كل شيء،

وتعود قوية، أقوى من كل شيء. لا مفر.. ها هي ذي تقترب منه، جلست بمحاذاته وهي تناظر الشاشة، مثله.. لم يحول نظره عن الشاشة. تنهدت وقالت بعد أن أغمضت عينيها وله استدارت:

- ضياء.

صوتها ضعيف.. لم يسمع.

- ضياء. بصوت أعلى.

نظر إليها، أمسك «الريموت» قلل من درجة الصوت و...

- أيوة يا زهراء.
- تفتكر ابن عمك مات، و.. وروناء؟!

قال دون أن يفكر:

- احتمال.

بشبه ابتسامة وقليل من حماسة قالت:

- يعني إنت زيي مش مصدق؟

ثبت نظره على نقطة في الهواء، وانتظر هنيهة كأنه يفكر، ثم قال:

- مهو مش معقول.. إللي حصل دا غير طبيعي.
- عندك حق. ابن عمك ماشي أنا كنت متوقعة منه أي حاجة، وإنه يختفي دا شيء عادي. صمتت. أردفت: إنما روناء!

صمتا، أمسك ضياء «الريموت» وقبل أن يزيد من درجة الصوت، قالت زهراء:

-	ليه مكونتش بتحب تتكلم معاه يا ضياء؟ ويا ترى أيه شعورك دلوقت وهو.. زي ما بابا بيقول يعني.. ميت؟

-	لأنه كان غريب. أما عن شعوري، فمعرفش.. برضه شعوري من ناحيته، بعد ما اختفى.. غريب.

بدلًا من أن يصلح من سلوكه الذي يراه سيئًا، وبدلًا من أن يناظره في أفكاره التي يعتقد أنها خطأ، بل وخطيئة.. قرر اجتنابه. فبدلًا من أن يمالأه، ناوأه. خشى ضياء من أن تتأثر أفكاره بأفكار ابن عمه، فحرص على ألّا يخوض معه في نقاش، لاسيما في أمور الدين. كما أنه من نوعية الشبان الجادين، المنصرفين إلى غاية واحدة، لا يحيدون عنها حتى يصلوها. في الإعدادية كانت غايته الثانوية العامة، ثم الجامعة، ثم العمل، ثم... دونما عرقلة أثناء المسير. إنّ ضياء بكر عبد الحق، مثال للشبان الطموحين العمليين، أولئك الذين يظهرون دائمًا وكأنهم يقومون بمهمة عليهم إتمامها فحسب. لم يروقه ابن عمه بشخصيته وأفكاره وملابسه. فعقد النية على اجتنابه.. وفعل.

-	وهو دا بقى دور المصلح؟ يا مصلح!. تقول زهراء لشقيقها.

لم يتأثر ضياء بما قالته شقيقته، وبدا مقتنعًا من أعماقه بآرائه وسلوكياته، وهو يقول:

-	دا مكانش ينفع يتصلح.

- ليه؟

أطفأ الشاشة، انتصب واقفًا، وقال وهو يوليها ظهره ويخطو اتجاه غرفته:

- لأنه كان غريب.

***

أسندت زهراء رأسها إلى ظهر الأريكة بعد أن جعلت جسدها ينزلق قليلًا، استرخت، عقفت يديها على صدرها وهي تناظر الشاشة المظلمة، عكست الشاشة صورة معاذ، شقيقها الآخر. يافع، ماكر يقولون عنه، بهي الطلعة، جميل المحيى.. «رخم» قالت عنه روناء.

لطالما ألمح لها بأشياء تكرهها، وحدثها بكلمات تكرهها، وأخبرها عن نواياه التي تكرهها.. تكرهها لأنها منه. معاذ، شقيق صديقتها، طالب الهندسة المتفوق، رجاء الكثيرات وحلمهن الخفي، باش الوجه، مليح البسمة، ذو العينين الزرقاوين والشعر الذهبي الغزير. «دمه تقيل» قالت عنه روناء. لم يعجبها، أعجبها ابن عمه، لم تستخف دمه، استخفت دم ابن عمه، لم تحبه، أحبت ابن عمه.. أحمد. حسده لأنها أحبته، حقد عليه و.. كرهه.

- مفيش أخبار عن روناء؟ قال معاذ.

-   الأولى تسأل عن ابن عمك! ردت زهراء باستنكار.

كان يقف خلف ظهرها، تفصل بينهما الأريكة، التف بجسده وخطى باتجاه غرفته. وكان حديثه.. الصمت.

جلست تفكر في زيارتها لفيلا محمود السروجي، لأول مرة، سوف تذهب إلى هناك بدون سبب وجيه، كان سببها قويًا فيما سبق. لم يكن لأحد أن يفكر في الاستفسار عن زياراتها في وجود صديقتها.. روناء.

***

«يتمنى الملايين من البشر الخلود، وهُم لا يدرون ماذا يفعلون في ليلة الأحد من كُل أسبوع»

- سوزان سونتاج

في عالم الذاكرة، الحياة مختلفة تمامًا عما عرفاها من قبل، كل شيء مضاعف، من يحب، يحب بشدة، ومن يكره، يكره بشدة، أنت متذكر دائمًا أنك تحب، ومتذكر دائمًا أنك تكره، فكيف ستكره من تحب أو تحب من تكره؟! مهما يمر من وقت، ستظل متذكرًا، إلّا إذا غيرتك أفعالهم. لا شمس تنير بالنهار ولا قمر يظهر في الليل، ولا يوجد نهار أو ليل من الأساس، هو يوم واحد طويل ودائم. في عالم الذاكرة، والشفاء أيضًا، لا نوم ولا .. موت. إنها الأبدية التي طالما حلم الإنسان بها، بعض بني الإنسان، حلم الخلود الذي يراود بعض البشر في الصحو قبل النوم. المدينة هنا عامرة بسبب اتقاد شهوات ساكنيها وكثرة رغباتهم، وسريعة وصاخبة. بعض من فيها لا يتحملون نار شهواتهم المستعرة وما يعتمل في صدورهم جرّاء الذاكرة الشديدة الدائمة، فيفضلون طواعية الذهاب إلى هناك، إلى عالم الشفاء. وبرغم سهولة العودة إن هم أرادوا ذلك، إلّا أن ذاكرتهم تمحى هناك، ولا يعرفون ماذا يريدون.. الأمر يتطلب ذاكرة فقط.

لقد تحقق الحلم هنا، في أرض الذاكرة، لكن الأمور مختلفة بعض الشيء، نعم لا موت، أبدية مؤبدة، لكنها شاقة، تحقق الحلم أخيرًا، إنما جاء على هيئة كابوس مزعج. حيث الناس هنا، في أرض

الذاكرة، شديدي الكره، الحب، الوله، الجوى، الشبق، الاشتياق، الرغبات، السعادة والحزن. وإنه لمن الصعب على الإنسان؛ أن يعيش هذه المشاعر في ظل تلك الديمومة.

تعرفا على العالم الذي دلفا إليه عن طريق بائع التحف الذي استوقفهما قبل أن يبتعدا عن خانه بعد أن وهب عباءته إلى فؤاد نور الدين. وبعد أن أطعمهما وسقاهما - إذ أن من ضمن ما يُميز عالم الذاكرة، أو يعيبه، أن ساكنيه باستطاعتهم الطعام والشراب وإفراغ أمعائهم - أخبرهما أنهما قد دلفا إلى عالم خلود آخر يدعى عالم الذاكرة. كانت مفاجأة سارة أن يكونا في أرض لا تعرف الموت، ولكنها صادمة أيضًا. أخبرهما الرجل أن هنا وهناك، في عالمي الخلود، يتوقف العمر، وأن ما يرياه من طفل وشاب وهرم؛ أنما هم على هذه الحالات منذ زمن. وقال إنه لا يعرف هل ساكنوا العالمين أتوا من أماكن أخرى، مثله، أم أنهم كانوا يسكنوهما وحدث شيء جعلهما - أي العالمين - أبديين هكذا.

وأول شيء خطر على بال أحمد، أن كيف سيحيا للأبد وصور أفراد أسرته لا تفارقه؟ ذكرياته معهم، محبته لهم ومحبتهم له، كيف سيحيا للأبد في ظل تذكره الدائم بأنه أصبح وحيدًا؟ وروناء.. وحبه الملتهب لها، والذي لن تخبو ناره المستعرة منذ الآن وصاعدًا! والتي لا تنفك تزداد استعارًا! «لا لا.. الموت أرحم». قال لنفسه وأخذ يفكر ويفكر وقد.. شق عليه الأمر.

وفؤاد نورالدين، الذي ينتمي لعالم أصبح من الماضي. هذا الغريب الذي إن عاد لمنزله، سيكتشف أنه أصبح أكثر غربة! لن يجد الدار كما تركها، ولن يجد أهله أو معارفه وأصدقاءه، ولن يجد.. العالم ذاته الذي كان يضمه بين جنباته. منذ أن استمع إلى حديث بائع التحف وهو يفكر: «طال فرارك من الإنجليز يا فؤاد حتى امتد ليكون أعمارًا، وكأنك خرجت من الأرض ووطئت كوكبًا آخر» وأخذ يفكر ويفكر وقد.. شق عليه الأمر.

أخبرهما بائع التحف أيضًا عن العالم الآخر، الذي اعتاد وجوده، بالرغم من أنه لم يدخله قط، العالم الذي جاءا منه إلى هنا، وكذا اعتاد عالمه الحالي. اعتادهما وقبلهما وصار يستغرب غيرهما، وإنهما لهما الغريبين حقًا، لو يعلم. قال لهما:

- إنه عالم سحري، يسمونه عالم الشفاء، حيث يبرأ المرء من جميع الأمراض، كما يعتقدون، فالذاكرة مرض، والحب مرض، والكره مرض، واليأس مرض، والأمل أيضًا.. مرض. هناك، في العالم الآخر، تُفقد الذاكرة، تعود صفحاتك بيضاء، تخطها كيفما تشاء.. إن شئت. تُمسح كل الأشياء ويبقى لك حاضرك ومستقبلك، وإنك في الحاضر لن تفكر في المستقبل أو في الحاضر ذاته؛ لأنك، ببساطة.. لا تملك حق التفكير. يوصلك إشعار تلقائي بذلك ما إن تطأ قدماك أرضه. ولن تصنع ذكريات جديدة، فالماضي والحاضر والمستقبل وأنت، ملك لذاك العالم، أنت هناك مفقود كذاكرتك،

لكنك.. مُخلد. ويا له من خلود. إنك في الأصل ميت، حيث لا مشاعر هناك، لا حب لا بغض لا حقد لا جوع أو عطش أو تغوط. لا خوف لا أمن لا شهوة، لا أمل لا يأس، لا تعب لا نوم ولا، أيضًا.. موت. الكثير من ال «لا» هناك. تبدو المدينة خربة؛ لأن لا أحد فيها يريد أن يعمر، فلا أحد يمتلك رغبة أو شهوة تدفعه لذلك.. لا حياة هناك.

تمتم أحمد، يحدث نفسه مصدقًا على كلام بائع التحف بصوت خفيض سمعه فؤاد وبائع التحف بمشقة:

- فقدان ذاكرة.. نعم نعم، فلقد أهملت الدرج الحجري الذي قفزت منه لهاتيك الأرض، وأهملت روناء بعدما فقدت ذاكرتي.

قال فؤاد:

- السؤال الآن، ومرة أخرى، هل تعتقد أنها قفزت خلفك؟

تمعن بائع التحف في وجه أحمد، يريد أن يتحدث لكنه لا يفهم، نعم سمع عن ذلك الدرج الحجري، لكن مَن روناء تلك؟

قال أحمد مجيبًا على سؤال فؤاد:

- لست أدري يا فؤاد، ربما تكن قد قفزت، بالأكيد أنها فعلت ذلك، لأنها ببساطة.. تحبني.

أطبق الصمت قليلًا ثم بدده أحمد بقوله:

- نعم، لا تعب.. أتذكر جيدًا يوم هبطت الدرجات الحجرية

بصحبة روناء، في البداية كان التعب يسري في قدماي ويزداد كلما تقدمت أكثر، وروناء أيضًا. ثم بعد أن اجتزنا منتصفه تقريبًا واقتربنا من أرض عالم الشفاء، بدأ الشعور بالتعب يتلاشى شيئًا فشيئًا إلى أن انتهى تمامًا بعدما قفزت.

سرح قليلًا ثم استطرد وهو ينظر إلى فؤاد:

- وعندما كنا نسير في الصحراء يا فؤاد، أنا وأنت، هناك في العالم الثاني، مشينا طويلًا وكانت أقدامنا تغوص في الرمال دونما شعور بالإجهاد. وبعد أن خرجنا منها، وكلما تقدمنا نحو هذه الأرض أحسسنا بالتعب.

قال بائع التحف:

- نعم هذه أرض مرض وتلك أرض شفاء.

ناظره أحمد بصمت، ثم قال مستفسرًا:

- ولكن لماذا يجلسون ويستلقون هناك في عالم الشفاء، كأنهم ينشدون النوم؟

فكر بائع التحف قبل أن يقول:

- ربما بحكم العادة، أو ضرب من التغيير.

أمسك أحمد ذقنه يفكر. ضرب من التغيير!

- أيشعرون بالملل؟ لا شعور هناك.

سرح بائع التحف ثم قال:

- لا أعتقد.. هي العادة.

قال أحمد:

- والإشارات؟ و...

رفع رأسه للسماء وأومأ بها وهو يقول:

- وماذا عن الله؟ كيف تذكرته هناك؟

تحمس فؤاد وانتظر الرد، كان يود مذ خطت قدماه هذه الأرض أن يسأل هذه الأسئلة.

انشغل بائع التحف بزبون، وما إن غادر حتى عاد إليهما، تلك الحماسة التي ستقفز من عيونهما ألهبت حماسته هو الآخر، فأسرع يقول:

- هناك نوعان من فقدان الذاكرة، ذاكرة تقريرية، وهي الذاكرة المعروفة التي تحمل معلومات وحقائق عن الإنسان وعن حياته، معلومات يمكن أن يحكيها المرء سردًا بالكلام. والنوع الآخر هي الذاكرة المهارية، والتي تتضمن المهارات التي اتبعها الإنسان بالتدريب الحركي والتكرار على مدار حياته، مثل القراءة والكتابة وقيادة السيارات. هناك نظرية تفترض أن المسؤول الأول عن الذاكرة التقريرية، هو الفص الصدغي «الهيبوكامبس» الذي هو جزء صغير بمنتصف المخ. بينما تعتمد الذاكرة المهارية على مناطق أخرى من الدماغ مثل المخيخ واللوزة الدماغية، لذا فإن الإصابات التي تصيب الذاكرة التقريرية، لا تؤثر غالبًا في ذاكرة المهارات التي اكتسبها الإنسان على مدار حياته. هذه المعلومات

قالها لي رجل منشغل على الدوام بالأبحاث وبالعالم الذي تفقد فيه الذاكرة، رجل يمتلك وسائل معرفة متنوعة، منها تقنيات حديثة جدًا، وأذكر جيدًا أنه أخبرني بأنه قد أتى بمعلوماته هذه التي تخص الذاكرة من محرك بحث يسمى «جوجل» على شيء يدعى «إنترنت» وقال لي أيضًا إن النظريات كثيرة ومتعددة ومتناقضة، وحدثني عن شخص فقد الذاكرتين معًا.

صمت بائع التحف قليلًا، ثم تابع وقال:

- ولكن هناك، في تلك الأرض عدوة الذاكرة والمشاعر، لا توجد قواعد.. ربما تفقدك كل شيء.

وسكت بائع التحف، فقال أحمد:

- وماذا عن الله؟

نظر الرجل للسماء وقال:

- هل تذكرته هناك؟

- نعم. قال أحمد.

وأومأ فؤاد برأسه بالإيجاب، وكأن السؤال قد وجه له.

فقال الرجل بعد أن مصمص شفتيه وبدا عليه التأثر:

- برغم اختلاف الأديان، وتعدد الأنبياء والرسل، وكثرة الداعين لله. لا يزال البعض يشكك في وجود خالقه، والبعض ينساه ويذنب. يُخيل إليّ أنه ينساه متعمدًا كي يستمتع بذنبه. نعم تستطيع هاتيك الأرض أن تفقدك الذاكرة، لكنها - بناءً على

حديثك - لا تستطيع أن تُغيب عن ذاكرتك خالقك.. وخالقها. هذا عجيب. وليس لدي تفسير له.

خيم الصمت وشردوا كل في ملكوته. ثم أمسك فؤاد بتمثال حجري، وقال:

- كنا كهذا هناك.... أبقى جملته مفتوحة.

ونظرا هما إلى التمثال. ثم أردف وهو يقلب التمثال في يده:

- ربما ما يرحم هذا التمثال الحجري، أنه لا يعرف أنه حجر.

تأملاه وهما يومئان برأسهما يوافقانه على ما قاله. وعادوا ثلاثتهم وشردوا كل في ملكوته.

روناء روناء.. اسمها يتردد في عقله، غلبه الجوى وأضناه الهوى، فقال موجهًا أسئلته لفؤاد:

- كيف سنعرف أنها هنا؟ وكيف سنجدها؟

قال فؤاد:

- مَن؟

كان عليه أن يفهم، بضيق أجاب أحمد:

- روناء.

وقبل أن ينفرج ثغر فؤاد، تدخل بائع التحف ملقيًا اقتراح بعد أن سبقه بمقدمة طويلة:

- هذه المدينة صغيرة، وجميع من فيها أعرفهم، ولذلك عندما رأيتكما تتجهزان للمسير، هممت بالإسراع إليكما من

خلف طاولتي وكببت عليكما، أسأل وأعرف من أخباركما، وأما ما أخبرتاني به عن عالمكما الغريب (الآن يراه غريبًا، وهو الذي كان عالمه من قبل!) فقد كفاني، وجعل شغفي يقل عن معرفة المزيد، لأني شعرت بالإجهاد لكما والحزن عليكما. لذلك لن أهتم بمعرفة شيء بعد الآن نئيًا عن الشقاء والحزن. لكنني سأساعدكما، وهذا شيء أفعله للمرة الأولى هنا، مساعدتي ستكون على هيئة اقتراح. هناك عدة رجال في هذه المدينة متذكرون على الدوام أنهم حكام، بيدَ أنهم كانوا كذلك في أماكن أخرى. وهناك أيضًا أعداد من الرجال متذكرون على الدوام أنهم محكومون، عبيد، ينكبون تحت أقدام أولئك الحكام يخدمونهم، ولا يشعرون مع ذلك بذل واتضاع! هم على ذلك مذ عرفت بهم. ولأنهم في الذاكرة، متذكرون على الدوام أنهم يجب أن يُذلوا، وحاكميهم بالمثل، متذكرون على الدوام أنهم يجب أن يكونوا السبب في ذلهم. بين أولئك الحكام، حاكم قوي، لا تنفك رغبته في السيطرة على كل شيء هنا، أن تزداد، كلما عرف أن هناك حكامًا غيره. هو أقواهم سلاحًا وأكثرهم عددًا. تابعيه يعرفون جيدًا أنه يعشق الرقص، يحب أن يشاهد فتاة ترقص، وإنه لشاهد الكثيرات هنا، وأعتقد أنه ملهم جميعًا ويبحث عن أخريات. ما أود قوله، أن من الجائز أن تكون روناء تلك، قد وقعت في شباكه. فتابعوه وجنوده متحمسون على الدوام لخدمته والتقرب منه، ونيل حظوة عنده.

ولا أستبعد أن يكون أحدهم قد أخذها إليه. فاقتراحي هو أن تذهبا إليه وتبحثان عنها عنده.

كانا يصغيان بانتباه وترقب لمعرفة اقتراحه بعد تلك المقدمة الطويلة، لكنه يقول حاكمًا قويًا وجيوشًا! شرد أحمد أثناء حديث الرجل، وربما يكون قد فاتته بعض كلماته. مشهدًا واحدًا أوحد، كان وامضًا في ذهنه. مشهدًا رآه في بداية دخوله هذا العالم. وهو التفاف جوقة من الرجال المدججين بالسلاح على شخص لا يبين منه شيء. لكن صوته ميزه.. إنها امرأة.

- نعم.. أعتقد ذلك.

قال أحمد، ثم أخبر بائع التحف عن المشهد. فأخبرهما الرجل كيف السبيل إلى ذاك الحاكم.

قال لهما وهو يشير بيده إلى نقطة بعيدة:

- إنه في جوسق خلف تلك التلال.

قررا الذهاب لحصن الحاكم معًا. تعمقت صداقتهما هنا، أما هناك، في عالم الشفاء، فلم يكونا يهتما. ومع أن الموقف صعيب وعصيب ومخاطرة عظمى، حسما أمرهما سريعًا وتحركا ناحية الحصن سيرًا على الأقدام. وكان ذلك بعد أن أكلا وشربا ثانية وبنهم من فرط الجوع والعطش، حيث أمضيا وقتًا طويلًا بصحبة بائع التحف. وبعد أن جعلا بائع التحف خلفهما، توقف أحمد وعاد.

- كيف تتحدث العربية؟ سأله أحمد.

فأجاب بائع التحف:

- هنا ستجد كل اللغات.. هنا ستجد ما يدهشك ويسعدك و.. يحزنك.

***

كان معقولًا، وذلك فيما مضى، أن تذهب ابنته زهراء لفيلا محمود السروجي، حيث صديقتها روناء، قبل أن تنقطع أخبارها. أما الآن، فغير معقول. قال لها وأبدى استغرابه مما عقدت العزم عليه. لكنها أقنعته بطريقتها، فلقد أخبرت والدها بأن والد روناء قد قدم بلاغًا رسميًا في ابن عمها يتهمه فيه باختطاف ابنته، وأنها ترى أن أحمد لم يفعل ذلك، بل إنها متأكده. وترى أيضًا أن من واجبها ومن حق ابن عمها عليها أن تدافع عنه في غيابه. وعليه دفعتها مشاعرها النبيلة ووشيجة القرابة بينها وبينه لأن تقدم له شيئًا في غيابه، حتى إن عاد لا يتهمها بالتقصير معه، كما سيفعل مثلما تعتقد مع أبيها لكونه باع ممتلكاته دون أن يتأكد من وفاته.

وما كان من والدها، بعدما ذكرته بما فعله مع ابن أخيه - دون أن تقول ذلك صراحة - من خسة، وما كان يفعله من مجافاة له من قبل، إلّا أن يوافق على مضض أن تذهب لزيارتهم. ولكن بشرط أن تصطحب أحد أشقائها معها. ولم تذعن زهراء لرغبة أخيها معاذ الذي أراد أن يذهب معها ليرى فيلا السروجي، المكان الذي ولدت فيه روناء، غايته وعزيزته. اصطحبت معها أخاها ضياء، فهو أكثر تأدبًا وفهمًا، ولن يتسبب لها بالحرج كما

اعتقدت.

هم في المدينة ذاتها، والمسافة ليست ببعيدة، لكن كثرة الشوارع والالتفافات وزحمة الناس والسيارات، كل ذلك جعلهما يصلان بعد ميعادهما بنصف ساعة. كانت زهراء قد اتصلت وأخبرتهم بأنها وأخاها قد خرجا من منزلهما واستقلا سيارة والدهما، وأمامهما على أكثر تقدير ما يقارب نصف الساعة. ولكن ما صار، أنهما وصلا بعد ساعة كاملة.

وكان الوقت قرب نهاية الأصيل، كل قد عاد من عمله، محمود السروجي ومحمد ابنه وملك زياد طاهر زوجته. تجهزوا لاستقبال الضيفين بما يليق بمكانتهم، نضوا عنهم ملابسهم الرسمية وارتدوا غيرها، رسمية أيضًا، لكنها ملابس خروج وليست ملابس عمل.

وانتهت الزيارة سريعًا، لم يمكثا في فيلا السروجي أكثر من خمسة عشر دقيقة على الأغلب، تحدثت خلالها زهراء بكلمات تركتهم في حيرة من أمرهم، حتى شقيقها لم يفلت من براثن تلك الكلمات الغريبة. حيث قالت بفلسفة لا تناسب الموقف:

- أنا ماترددتش إني آجي هنا، لأني شايفة إن دوري جه. كلنا بنأدي أدوار في الدنيا دي، أحمد وروناء كان دورهم يختفوا، وأنا دوري دلوقت إني أدافع عن ابن عمي في غيابه، وأطمنكم على روناء، بس محدش يسألني عن أي تفاصيل.

أحجمت عن الكلام ونظرت للعيون المندهشة التي تناظرها بترقب لسماع المزيد، اعتدلوا في مجالسهم صامتين، مصغين بانتباه لكل حركة وسكنة منها. تنحنحت وازدردت لعابها واستطردت:

- روناء بخير يا عمي، هي في أمان، عايزاك تطمن وتسحب بلاغك ضد أحمد، عايزاكوا تطمنوا كلكوا.

بدا الأمر أكبر من كونها زيارة غرضها استمالت محمود السروجي لكي يسحب شكواه كما تقول، ولم يعد في مقدور أحد الصمت أكثر، وخصيصًا ملك، فزالت علامات الحيرة التي كانت ترتسم على وجهها، وأخذت ملامحها تعبس، ثم قالت بحنق:

- إنتي عارفة هما فين؟ انطقي، اتكلمي!

نظر محمود السروجي لزوجته وأشار بيده أن انتظري. ثم نظر إلى زهراء وقال بهدوء:

- إنتي عايزة تقولي إيه يا بنتي؟ روناء وأحمد كويسين، يعني محدش خطف ولا حد اتخطف! إحنا مش فاهمين حاجة. احكيلنا كدة بالراحة.

ظل ضياء صامتًا أثناء العودة، كان يفكر في أمر شقيقته، إنها لم تضف جديدًا في القضية غير أن وجهت الأنظار تجاهها بعد الكلام الغريب الذي قالته، تلك الحيرة التي زرعت بذورها في عقولهم، ذلك الشك الذي تركته يترعرع في قلوبهم. كان عليها أن تصمت إن كانت تعرف شيئًا عنهما حتى يظهرا، فهي لم تفعل

سوى أن أصبحت في عيونهم متهمة بدلًا من ابن عمها بذلك الرد المثير للشكوك. فلقد كان ردها على أسئلة محمود السروجي: «مش هقدر أقول حاجة في الوقت الحالي، بس إللي عايزاكوا تتأكدوا منه، إن أحمد مخطفش روناء» لم تزد عن ذلك وانتهت الزيارة سريعًا بعد أن انتصبت واقفة وهمت بالمغادرة. ولحقها شقيقها بدهشة لا تقل عن دهشة أصحاب المكان، الذين تجمدوا في أماكنهم دونما ردة فعل، يتابعونهما بنظرات متسائلة، وهما يخرجان.

لم يخطر على بال محمد السروجي أن الزيارة ستكون غريبة هكذا، أليست هذه زهراء التي يسعى إليها؟ لماذا لم يشعر بالسعادة بعد زيارتها؟ لقد بددت الفتاة نشوته برؤيتها، وجعلتهم جميعًا يضعونها موضعًا لا تحسد عليه.

***

تذكرت ملك تلك الزيارة التي أثارت دهشتها وقلقها، يوم زارتهم زهراء وانفردت بابنتها في غرفتها، ولم تجلسا، مثلما اعتادتا، في الشرفة. والذي أثار دهشتها أكثر في تلك الزيارة حينها؛ أن الفتاتين خرجا معًا وعادا مرة ثانية. لم يخنها إحساس الأمومة. أعربت لزوجها عن قلقها الذي كان، وندمت على أنها لم تبدِ الأمر

أهمية حينها، ولم تخبره. وما كان من زوجها إلّا أن ازداد حيرة. هل من الجائز أن تكون زهراء متورطة في اختفاء ابنته؟ كيف ولماذا؟! أليست صديقتها المقربة؟ فكر وقال لزوجته متسائلًا:

- تقصدي إن زهراء كانت بتحاول تقنعها بحاجة يومها؟

رفعت كتفاها وقالت:

- معرفش يا محمود! بس ممكن جدًا.

حار محمود السروجي في الأمر، وقرر دون أن يسترسل في التفكير أن يعول على كريم في معرفة إن كانت زهراء لها يد فيما حدث لابنته أم لا، وعليه عقد النية على إشعاره بأنه موضع شك حتى يتمكن من ثبر أغواره، لعله يفهم شيئًا، فلقد شعر أن في الأمر خديعة ما، وأنه لا يستبعد أيضًا أن يكون كريم متورطًا بشكل أو بآخر في تلك الخديعة. فإنه كان معهم في تلك الرحلة المشؤومة.

يضع يده على ذقنه ويفكر، زوجته تجلس قبالته وابنه إلى يمينه، هاتفه فوق المنضدة التي أمامه، ها هو ذا أخيرًا يلتقط هاتفه ويضع حرف «ك» في البحث عن جهات الاتصال، ويختار اسم «كريم أمين». وها هو ذا يفعل ما ظن قبل أشهر أنه من الجائز أن يفعله، وهو أن تضطره أحداث ما إلى مهاتفة أحد زملاء ابنته في الجامعة. وهذا ما دفعه إلى أن يحتفظ برقم هاتفه بعدما تعرف عليه عن طريق ابنته في إحدى المرات التي رافقها

فيها إلى الجامعة.

وفي الجهة الأخرى، رن هاتف كريم.

- ألو.
- إزيك يا كريم؟
- الله يسلم حضرتك يا بشمهندس.
- تيجي ولا أجيلك؟
- لأ طبعًا، أجي أنا لحضرتك.. خير يا بشمهندس؟!

بعد لحظات من الصمت قال محمود السروجي بنبرة مطمئنة:

- متقلقش يا كريم، خير إن شاء الله.

***

كان الوقت منتصف شهر أكتوبر.

لطالما أحب محمود السروجي أن يتأمل صفحة السماء، ولكن ليس قرب الظهيرة هكذا، والطقس بارد وغائم، ولا أن يناظرها من زجاج سيارته.

اتفق مع كريم عبر الهاتف بأن يتقابلا في مقهى من المقاهي الشعبية، اختار واحدًا من أولئك المقاهي العادية غير الشهيرة. وما إن دلف للمكان المرصوفة أرضيته ببلاط رخيص، حتى ظهر له رجل، يبدو أنه في العقد الخامس من عمره، نحيل وقصير القامة،

له شارب رفيع يضفي عليه مظهرًا مضحكًا، لكن هيئته بشكل عام، تجعل الناظر إليه يحترمه بغض النظر عن عمله الذي هو من وجهة نظر البعض، عمل وضيع لرجل في مثل عمره. رحب به الرجل بقوله «أهلًا يا أستاذ، اتفضل» وهو يشير بيده اليسرى إلى كرسي من الخشب ملاصق للحائط، والذي عن يساره طاولة صغيرة، وبيده اليمنى كان يحمل الرجل المفحمة. اطمئن إلى أن الزائر الجديد قد أخذ مكانه ثم وقف عنده لحظات يسأله ماذا يريد أن يشرب. «هاتلي قهوة مظبوط لو سمحت، بس ياريت لو تكون في كوباية مش فنجان» قال محمود بابتسامة عذبة، ابتسم الرجل وهو يومئ برأسه بالإيجاب وانطلق إلى شابين يجلسان في زاوية بعيدة، أمامهما كوبين من الشاي وفي يد أحدهما ماسورة رفيعة لينة ومكسية بقماش منمق، تتصل هذه الماسورة بزجاجة فيها ماء يعلو ويهبط ويبقبق كلما وضع الشاب الماسورة في فمه و.. سحب.

دقائق كانت كفيلة لكي يحضر له الرجل كوب القهوة الذي طلبه، أستل محمود لفافة من علبة سجائره، أشعلها وأخذ نفسًا عميقًا، وأتبعه برشفة من القهوة، فعل ذلك عدة مرات حتى أوشكت لفافته على الانتهاء، أخذ يسحب وينفخ ويتنهد ويرتشف وهو شارد الذهن. ثم جعل يتأمل المكان، طاولات صغيرة الحجم منتشرة في أرجائه، كراسي خشبية متفرقة ومتوزعة

حسب الطاولات، وأخرى مرصوصة بعناية فوق بعضها في إحدى الزوايا، لوحات لمناظر طبيعية لا تتناسب والأماكن ملتصقة على أحد الجدران، عمودان يتوسطان صحن المكان، كمهندس، لم يعجبه وضعهما، فغير أنهما متلاصقان مما يفسد أحدهما عمل الآخر؛ أهدرا بعضًا من جمال المكان وضيقاه.

وأخيرًا حضر. «السلام عليكم» قال كريم وهو يمد يده مصافحًا لمحمود السروجي. «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». رد محمود. لفتة من محمود للرجل الخمسيني ذي الشارب الرفيع الذي أبصر شابًا يدلف للمكان، لم ينتظر الرجل طويلًا كي يفهم، أسرع يحضر كرسيًا ووضعه في الجهة الأخرى، إلى يسار الطاولة وانصرف.

- خير يا بشمهندس؟
- تشرب إيه الأول؟

قال كريم مبتسمًا وهو يشير بسبابته وإبهامه، وقد باعد بينهما:

- شاي.

صفق محمود بكفيه، حضر الرجل سريعًا. استمع للطلب وانطلق ليحضره.

- بص يا كريم. سكت، سحب آخر نفس من اللفافة وأمسك عقبها بين إبهامه وسبابته وألقاها بعيدًا حيث الشارع الجانبي،

ثم تابع وهو ينظر لعيني كريم:

- زهراء قالتلي على كل حاجة، أنا بس عايز أسألك سؤال، ليه عملتوا كدة؟

ابتسم كريم ابتسامة جانبية، ثم قال متسائلًا وعلى وجهه علائم الدهشة:

- عملنا إيه؟ وإيه إللي زهراء قالته؟

على طريقة ضباط المباحث، أخرج محمود علبة سجائره وأخرج لفافتين، مد يده بواحدة إلى كريم وأشعل الأخرى. أخذ نفسًا طويلًا، وقال:

- بلاش السؤال ده، ما علينا بدوافعكوا إللي خلتكوا تخفوها، قوللي بس هي فين دلوقت وعاملة إيه؟ والمهم.. مع مين؟

تجهم وجه كريم وقد فهم الغرض من المقابلة، لم يشعل اللفافة بعد، وضعها على الطاولة وقال بغضب وهو ينتصب واقفًا:

- تقصد إيه؟ حضرتك بتشك في إني ممكن أكون خطفت بنتك؟ هيه! طب ليه؟ وإزاي؟!

انتظر محمود إلى أن وضع الرجل كوب الشاي ورحل، ثم قال بهدوء:

- اقعد واهدى يا كريم واشرب الشاي بتاعك، ليه وإزاي دول مش مهمين دلوقت، المهم دلوقت تقوللي هي فين؟

ترقرقت عينا كريم وأحس محمود بأنه لو تفوه بكلمة

أخرى يهاجمه بها لبكى، وعندئذ اتخذ قرارًا سريعًا، كفاه مخاتلة. انتصب واقفًا هو الآخر وربت على كتفه وهو يبتسم، ثم جلس وأمال جذعه للأمام. وطلب منه الحلوس.

- اسمع يا كريم، أنا يا ابني مبشكش فيك، أنا بشك في زهراء. هي مقالتليش حاجة زي مقولتلك من شوية، بس قالت كلام غريب، قالت إن روناء بخير وإنها في أمان، بصراحة أنا فكرت كتير، وعقلي صورلي إن في الأمر خدعة أو حاجة كدة مريبة، وصورلي كمان، معلش يعني، إنك مشترك معاهم فيها، مع أحمد وزهراء، مع زهراء بس، مع أحمد وزهراء وروناء. معرفش! مبقتش فاهم حاجة ولا عارف أفكر.

كيف تخلى محمود السروجي بهذه السهولة عن موقفه تجاهه؟ وماذا يعني أن تترقرق عينا كريم أو حتى تنقطع أنفاسه من البكاء؟ وكما يقال: «قالوا للحرامي احلف»! حتى أن كريم أحس بأن السروجي يداهنه، وأنه يلف ويدور. ومع ذلك هبطت أوداجه، وبدأت الدماء تجري في أوردته مرة أخرى، أشفق على محمود كونه لا يعلم شيئًا عن ابنته المتغيبة، أخذ يتنفس بارتياح وهو يحتسي الشاي بعدما جلس. وما إن شعر بأنه قادر على الحديث حتى قال بهدوء:

- طيب حضرتك عايز مني إيه بالظبط؟!

تنهد محمود وعاد بظهره للوراء ثم قال:

- في يوم الرحلة، مفيش حاجة غريبة حسيتها، سواء من زهراء أو أحمد، أو حتى روناء؟

ضيق كريم ما بين حاجبيه، وقال وهو مقطب الجبين:

- مش فاهم قصد حضرتك! إحنا صحاب من زمان وحضرتك عارف، ولا عمري جه في بالي إن حاجة زي دي ممكن تحصل، ولا عمري حسيت بقلق من ناحية حد فيهم وإني لازم أحرّص أو آخد بالي.

زفر محمود وازدرد ريقه ثم قال:

- أنا فاهم ده كويس، مش شرط تخوّن أو تحرّص، ممكن يكون حد قال كلمة شدت انتباهك، حركة، غمزة، ومش بس يوم الرحلة، ممكن قبله، ممكن بعده.

- بعده! قال كريم ثم صمت. أخذ يحتسي الشاي وهو شارد الذهن، يده تتنقل بين فمه والطاولة بحركة شبه آلية حتى فرغ الكوب تمامًا. أشعل اللفافة التي قدمها له محمود السروجي وأخذ نفسًا عميقًا، عصر دماغه لعله يتذكر شيئًا. وبعد هنيهة حملق في وجه محمود السروجي وقال بنظرات زائغة وقد ومضت في ذهنه مشاهد مر عليها قرابة الثلاثة أشهر.

- تاني يوم. سكت. ازدرد لعابه، تابع:

- معرفش حضرتك عرفت بإللي حصل ولا لأ. تاني يوم بعد يوم الرحلة، رحت أنا وزهراء وباباها وضياء ومعاذ، للمكان إللي

كنا فيه. دورنا كتير وقعدنا ننادي ونصرخ باسم أحمد وروناء لكن بدون فايدة. يأسنا الحقيقة. طبعًا كنت أنا وزهراء نسينا المكان إللي كنا فيه إمبارح. المهم بقى، بعد ما خلاص يأسنا واتحركنا ناحية العربية، وقفت زهراء ورجعت وراحت عند جبل وصخور كدة واختفت شوية وبعدين جت تهز دماغها بأنها موصلتش لحاجة.

مرر محمود السروجي أصابعه بين خصلات شعره الفضي، أخرج لفافة أخرى وأشعلها، أشاح بنظره عن كريم وأخذ يتأمل المارين في الخارج وذهنه منصرف إلى أفكار واتته للتو. كانت صور المارين مشوشة بالنسبة له، يرى أطيافًا تسير، تسلم على بعضها، تتعانق، تتمازح، تتعارك. لا يميز ملامحهم ولا لباسهم، كمن يبصر الأشياء وهو زار عينيه.

عاد ينظر لكريم، ثم قال فجأة:

- بكرة الصبح يا كريم.. تيجي معايا توريني المكان إللي كنتوا فيه يوم الرحلة.

***

اغتدى كريم وخرج من داره، وبدلًا من أن يذهب إلى

الجامعة، اتجه رأسًا إلى ذات المقهى الشعبي الذي كان فيه يوم أمس، وانتظر مجيء محمود السروجي. لم ينتهِ من احتساء الشاي الذي طلبه حتى سمع بوق سيارة ينطلق في الجوار، عرف أنه لا بد وأن يكون هو. غادر المقهى ليجده متموضعًا خلف المقود، صافًا سيارته على جانب الطريق.

ما الذي سيجنياه من سفرهما هذا؟ لم يفهم كريم سبب إصرار السروجي على الذهاب لجبال نويبع، فلقد ذهب قبل ذلك هو وزهراء وعائلتها ولم يعثروا على شيء. زهراء! لا يرى في تصرفاتها ما يثير حولها الشكوك، برغم ما قالته لعائلة السروجي. أتعرف ما لا يعرفه؟ نعم إنّ أحمد ابن عمها، لكنه صديقه المقرّب، كان يحادثه في كل شيء وعن كل شيء، ما يجول بخاطره، كان يعرف به ويفسره قبل أن يعرف به هو ويفسره لذاته. أحمد شاكر عبدالحق، صديق طفولته وابن حارته في تلك المدينة الصاخبة قبل أن يتركه كريم وينتقل للإقامة في مدينة العاشر. زميلا مقعد واحد في مدرسة ابتدائية واحدة. وزميلا مدرسة ثانوية واحدة، وكذا جامعة واحدة ولكن كلياتهما تختلف. جعله يطلع على أفكاره ومعتقداته وأسراره، ولا يظن أن أحدًا في الكون يعرفه مثله.

كان سفر يشوبه الصمت، كل منهما منغلق على ذاته. عينا محمود السروجي مثبتتان على الطريق، جاحظتان بشكل مرعب،

كأنهما ستتركان محجريهما وتفران لتخلفان فجوتين سوداوين، لا ينظر إلى كريم الذي وقع الشك في قلبه وعظم، أتراه واربه لكي ينتقم لمقتل ابنته إن كان يعتقد أنها قد قُتِلت؟ إنه يقود بسرعة جنونية، لا ينظر إليه، لا يتحدث، عابس الوجه كأنه ذاهب للقاء عدو. نظر لمقبض الباب، تحدق به فكرة هوجاء، أن يدفع الباب ويلقي بجسده على الأرض. «إيه الحماقة دي كريم»! حدث نفسه مستنكرًا ما جال بذهنه. لكن البقاء بجانب هذا الرجل؛ إنما هو ضرب من الطيش والخرف. نظر إلى محمود السروجي متفحصًا قسمات وجهه الكالحة. ماذا يخبيء؟ على كل، لن يصيبه إلّا بشيء قد كُتب له، فلماذا يجلد ظهره بالتفكير هكذا؟ تبقت نصف المسافة ولسوف تتضح الرؤية عند تلك الجبال.

أهمل متعمدًا التفكير في دوافع وكوامن الرجل الصامت إلى جانبه، وأخذ نفسه في جولة شيقة، جعل يحملق في الجبال المنيفة والصحراء المديدة، مساحات شاسعة مستوية غير مأهولة، تُرى ما الذي ينقصها ليعانقها العمار، أموال أم جهود أم نية فقط؟ ماذا يفعل لكي يجعلهم يولون وجوههم شطرها؟ ضحك بصمت من قلبه، من أنت كي تخط قرارات كهذه؟ نظر إلى محمود السروجي، أفلت زمامك من يد هذا الرجل أولًا. استنكر خواطره بشأن الصحراء وبشأن محمود السروجي، أحس بأنه أجهد ذهنه واستنزف قواه جرّاء استرساله في التفكير، وذلك حينما

انتظره السروجي خارج السيارة بعد أن أوقفها وترجل عنها. وكان كريم قد أشار إلى المكان الذي يعتقد بأنه هو، فانحرف محمود السروجي بالسيارة عن الطريق وتوغل في الصحراء إلى أن وصل إلى نقطة معينة وتوقف، فإن السيارة لن تستطع المواصلة.

عليه أن يعود للسيارة ويفتح الباب، ثم يهزه هزتين كي يفيق من شروده. «مالك يا كريم؟» سأله السروجي. مكث كريم لحظات يحدق به، ثم جمع شتات نفسه ونزل. «هو دا المكان؟» قال السروجي متسائلًا وعيناه تطوفان حوله. «أعتقد يعني». أجابه كريم. اقتربا من الجبال، طافا حول أحدهم، تذكره كريم. «أيوة، هو دا الجبل». وفي وسط صخور وفتحات كانا يمشيان ببطء.

وبمرور الوقت ومشاهدة الصخور والأحجار، بدأت معالم المكان تذكر كريم بتفاصيل ذلك اليوم، يوم كانت زهراء برفقته وهما يبحثان ويصيحان باسمي أحمد وروناء، نعم إن هذا الممر هو الذي كانا فيه. تهلل وجهه وراح يصرخ بملء فيه على صديقه، متناسيًا اسم ابنة الرجل الذي جعل يحدق به بنظرات حادة، ارتبك حينها كريم وأحجم عن الصراخ، زاد رعبه من هذا الرجل، أأحمق كريم ليأتي معه لهذا المكان؟ إن قتله هنا وألقى بجثمانه في جوف هذه الكهوف والممرات، لن يدري أحد به، لتأتي أواجد الصحراء لتلتهم جسده في جشع. ظن أنه يعنفه بنظراته لأنه

ينادي باسم صديقه فقط، لا يدري أنه اندهش من نداءاته تلك، فمن ذا الذي سيمكث هنا تائهًا أو عالقًا في ركن ما كل تلك المدة؟ كل ما في الأمر أن محمود السروجي أراد أن يستطلع الموقع الذي اختفت في أغواره ابنته.

وبينما هو سابح في بركة أفكاره الغريبة، ألفى نفسه يخرج ثانية من حيث أتى، حيث السيارة على مرمى البصر. تمامًا، مثلما حدث معه وزهراء. وفي خضم الذكريات التي اجترها، اختفت السيارة وحل محلها الحصير، تدفقت الصور على عقله تباعًا، صحراء، جبال، منحدرات، ممرات وفتحات. بدا له الوجود شاحبًا كوجه امرئ يحتضر، وتلاشى الأفق ولم يعد في مقدور بصره أن يرى أبعد من الحصير المسجى على الأرض، ضيق عينيه وهو يتمعن في الحصير الذي بدأت تفاصيله ترتسم أمام عينيه.

وضحت الصورة التي بدت مشوشة في أول عرضها، حقائب، حاجيات، قناني ماء، منتجات غذائية و.. أربعة أشخاص يجلسون في هدوء. ثم تنتصب روناء واقفة أمامه وتتشدق بكلمات لا يسمعها من مكانه، تخطو خطوتين وتتوقف، تلحق بها زهراء وتعطيها شيئًا في يدها، هز كريم رأسه علامة أنه يعرف ما الذي تركته زهراء في يد روناء، إنها تلك الحبة المعالجة للصداع. زر كريم عينيه وزم شفتيه، كأنه يتذوق ليمونة فتجمعت أجزاء

وجهه حول أنفه. أغمض عينيه تمامًا قاصدًا بذلك أن يرى ظلامًا حالكًا لعله يطرد تلك الصور التي تراءت له، لا يود أن يرى ما حدث بعدما بارحتهم روناء وظنوا أنهم فقدوها مما أثار غضب أحمد فدار بين ثلاثتهم الحوار الذي كان.

أتروقه السيارة لهذه الدرجة أم جُن الولد؟ دقيقتان وهو مثبت بصره عليها بملامح جامدة. مكث محمود السروجي يناظره وعلى وجهه المهيب استغراب باد. أزاح بصره عنه ووجهه إلى الجبال التي خرجا منها للتو، عجيب أمرها، دخلاها، سارا، تفحصا، فتشا ودققا في كل موضع، وأكملا سيرهما ليجدا أنفسهما يخرجان من الجهة ذاتها التي ولجا منها! إن سلك أحمد وروناء نفس الطرق ودخلا نفس الممرات فمن الطبيعي أن ينتهي بهما الحال إلى ما استقر عليه حالهما. وهذا ما صار لكريم وزهراء في ذلك اليوم. إنّ في الأمر سر ما، أهناك سراديب سرية عثرا عليها ودلفا إليها؟ أم يوجد بداخل تلك الكهوف والممرات ما خطفهما وأخفاهما عن الأنظار؟ أم يوجد طريق آخر خفي تحجبه عن الأنظار صخرة أو أحجار؟ هذا إن كانت رواية كريم وزهراء حقيقية من الأساس. استمرا على تلك الحال، يفتح كريم عينيه، يرى الحصير فيهم بإغلاقهما ليستقر أمامهما الظلام. ومحمود السروجي يبصر الأطواد الشاهقة الكئيبة ويفكر. وبعد برهة نفض محمود السروجي رأسه ليطرح تلك الأفكار والتخمينات أرضًا على رمال الصحراء

الباردة والتفت إلى كريم، ثم وضع راحتيه على كتفيه وقام بهزه.

وفي رحلة العودة استكمل كريم غيابه عن الواقع وغاص في محيط معتم، بينما استأنف محمود السروجي رحلة أفكاره. إن كانت رواية الشاب شاحب الوجه الذي يجلس بجانبه والفتاة التي زارتهم صحيحة، فلا بد وأن في الأمر لغز كبير. أدار رأسه ونظر من زجاج السيارة الخلفي نحو الجبال، بيدَ أن تلك الصخور تحوي بداخلها أسرارًا غامضةً، لولا أنه في العام ٢٠١٨ لقال السروجي إن في الأمر سحرًا. نعم سحر، فما صار ويصير ليس معقولًا، لكنه لا يعتقد ذلك، وإنما ثبت في عقله ورسخ في قلبه أن أحمد متورط في اختفاء ابنته، وابنة عمه على علم واسع ودراية كبيرة بما حدث. وإلّا لم تكن لتقحم نفسها في أمور تبدو للجميع غامضة وهي تعلم أنها ستكن في محل شك. ثم ماذا كانت نيتها وماذا أرادت؟ أن تطمئن قلوبهم كما قالت أم لتجعلهم يفكرون ويتحيرون أكثر؟ «إيه إللي في دماغك يا زهراء» قالها يحدث نفسه بصوت مسموع. استفاق كريم، نظر إليه وقال: «من يوم الرحلة وأنا بفكر وموصلتش لنتيجة، بس جوايا إحساس مش عارف أتخلص منه مهما حاولت، الإحساس دا بيقولي إن زهراء سبب رئيسي في إللي حصل، برغم معرفتي بإنها بتعز ابن عمها جدًا وبتحب روناء بنتك بشكل مش طبيعي». أصغى إليه السروجي بتركيز، ثم قال بصوت واطئ وهو ينظر إلى الطريق: «الظاهر كدة إن زهراء

نفسها هي إللي مش طبيعية».

وبهذه الكلمات اختتما حديثهما، واستقر بهما الحال كل في داره، وانتهت رحلة البحث عن كشف سر لغز اختفاء ابنته قبل أن تبدأ. تأكد محمود السروجي أن الأمر أخطر مما ظن، فلا يوجد أثر يقتفيه ويتبعه، ولا يوجد دليل إدانة ضد أحد ولا حقيقة ظاهرة تجعله يعرف خطوته القادمة، فإن روناء إلى الآن مجهولة المصير، لا أحد يعرف أهي حية تسعى في الأرض، أم قتيلة مسجاة في ركن قصي عن الأنظار؟

***

كان الليل، وفي الليل يستتر الكثير وينفضح الكثير، لا تستطيع الوجوه مداراة ما تداريه بالنهار من شقاء ووحدة، تنتفض الأجساد المستكينة وتضطرب الأنفس الحزينة، فتُرى في الشرفات وعلى النوافذ، تُرى وجوه تتأمل قمر منير أو نجوم متألقة أو مارة عابرين. هي عادته، أن يتأمل السماء، لكنها الليلة لم تكن بإرادته، إذ كان متعبًا جرّاء ما أصاب جسده من مشقة السفر وعينيه من طول التركيز في الطريق والقيادة، ومرهقًا ذهنيًا جرّاء استرساله في التفكير. وكان الطقس شديد البرودة؛ إنما روحه كانت منزعجة، وبناء عليه لم تكترث لرغبة جسده وعينيه وذهنه ولا لبرودة الجو،

واكترثت لرغبة القلب، حبيبها، الذي لم يستطع النوم. قلبه القلق على ابنته، يخشى كلمة طالما عذبته، حدث مفجع، إنه.. الرحيل. مكث غير بعيد عن الغرفة التي تنام فيها زوجته ملك، وبهدوء يضارع هدوء الليل حين يدلف، انسل من جانبها ليترك مكانه خاليًا. شعرت ملك بالبرودة، فلقد انزاح ساترها ومعطفها الذي هو أثقل من الغطاء الملتحفة به فاستيقظت، تحسست مكانه وهي مغمضة العينين فلامست يدها الملاءة التي تحولت من دافئة إلى باردة، فتحت عينيها وفركتهما، جفلت وقامت لتنير الغرفة، ارتدت ملابسها ووضعت معطفها الثقيل على كتفيها وخرجت من الغرفة تتحسس أخباره. لو لم تكن تعرف أنه يعاني الآن ما كانت لتترك الفراش وتخرج تستقبل الهواء البارد في الشرفة.

دخلت المطبخ، أعدت القهوة، ثم قصدت الشرفة.

وعلى المنضدة استقر كوب قهوته المظبوطة (تعرف أنه يحب احتساء القهوة في كوب) واحتضنت هي بيدها الصغيرة فنجانها. جلست في هدوء شديد، لم تحدثه ولم يشعر بوجودها. ترقرقت عيناها بالعبرات لعلمها أنه يفكر في ابنتهما، حزنت من أجله ومن أجلها. سمع أنفاسها تنهت واشتم شذا عطرها الفواح ممتزجًا برائحة القهوة العبقة، التقط كوب قهوته وبدأ يرتشف منه على مهل في لذة ينقصها لتكتمل نشوته؛ أن يشعر قلبه بالسعادة ويطمئن. أغمض عينيه للحظات فانزاحت اللوحة المظلمة إلّا من

قرص منير ونقاط ضئيلة مضيئة ليناظر سواد غطيس.

التفت إليها، نظر في عينيها البنيتين، يا الله على التماعتهما! أضنتاه وجلدتاه بالحزن المطل منهما، كيف لهاتين المستكينتين المنطفئتين أن تستعيدا رونقهما؟ سحب نفسًا عميقًا بأنافه محملًا برائحتها وملأ به صدره، كتمه لحظات يستنشقه بدواخله ثم أخرجه من فمه ببطء وتوأدة. تنهد بحرقة وأخفى حزنه بابتسامة رائقة زينت محياه وأضفت عليه بهجة وألق، لكن على مَن؟ على ملك التي حفظته عن ظهر قلب؟ بيدَ أن بإمكانه أن يوهمها مجرد إيهام بهذه الابتسامة، لكن التماعة عينيه هو الآخر؛ أنى له أن يداريها؟

لم يكن في وسع أي منهما الكلام، قامت، أمسكت الكرسي بيديها وجعلته محاذيًا لزوجها وجلست تفعل مثله. طالت تأملاتهما وهما يرتشفان القهوة ثم أحسا أنهما تجرعا كميات كبيرة من الحزن واجترا كميات أكبر من الحنين فاكتفا. ومن دون صوت قاما بتثاقل وتحركا صوب غرفتهما دونما إحداث ضجة، ثم خلدا للنوم.

***

وفي ذات الليلة التي دحر فيها محمود السروجي الحزن في

جولة من معاركه الطويلة معه، وتمكن من النوم، لم يكن بإمكان كريم أن يحتذي حذوه، إذ أنه خاض صراعًا مريرًا مع الحزن واندحر فيه، دارت بينهما رحى حرب ضروس وحمى وطيسها فقُض مضجعه وخرج إلى صحن الدار حيث الشاشة. ولأنه هُزم للتوم في معركة، كان حانقًا ومحطمًا ويشعر بالمهانة، فأراد أن يدخل قتالًا آخر، لذا قام بتشغيل جهاز «البلاي ستيشن» وفتح إحدى ألعاب الحروب وبدأ باللعب. لم يستمر القتال طويلًا، إذ أنه لم يستطع أن يحقق أدنى نصر وسحقت جيوشه وهزم شر هزيمة، وعرف أنه لكي ينتصر على أعدائه، لا بد وأن ينتصر على نفسه أولًا، أن يقهر هواجسه ووساوسه ويزلزل أساسها. وما كانت تلك الهواجس والوساوس إلّا الشك الذي نبت في قلبه تجاه زهراء بعدما نثر محمود السروجي بذوره في أرضه الخصبة. نبت الشك منذ أن قابله في ذاك المقهى، ثم نما خلال نهار هذا اليوم وهما في رحلتهما لجبال نويبع لفهم شيء مما حدث، ثم ترعرع أكثر في هذه الليلة البائسة. أذّن الفجر، صلى وألهج لسانه بالدعاء، اطمئن قلبه واشتد ساعده وقوى ظهره فاستطاع أن يكسب جولة في حروبه مع الحزن، ونام.

غط في نوم عميق، أفاق قرب الظهر وقد فاته اليوم الجامعي. شعر أنها علامة تبين أن أفكاره خاطئة وأن مماراته تجاه زهراء؛ إنما هي باطلة وفي غير محلها. فقد كان ينتوي لقاءها اليوم

والحديث معها ومخاتلتها إلى أن يصل لشيء.

وبالرغم من حدسه الذي علّا من شأن زهراء وأخبره أنها فوق الشكوك والاتهامات، عقد النية على لقائها في غداة غد في الجامعة.

***

بعدما فارقا بائع التحف، أخذا مسلكهما باتجاه القصر المنشود، واستنادًا إلى ما حكاه لهما بائع التحف عن السادة والعبيد، كان يسيرًا على أحمد شاكر تفسير ما تراه عيناه. شاب مربوع قوي البنية يُعذب من قِبل كهل في أرذل العمر، يرفع الكهل ساعده في الهواء وفي يده يقبض على سوط يصدر عنه كلما ارتفع وهبط وداعب الهواء، صوتًا يبعث على الرعب والمتعة معًا، ويهوي به على ظهر الشاب ورأسه ووجهه. ويكتفي الشاب المربوع بمد يديه أمام وجهه كي لا يتأذى في مناطق حساسة تترك أثرًا تراه الناس. خمن أحمد شاكر أن هذا الشاب القوي الذي يُضرب بالسوط، لا بد وأن تكون على جسده أخاديد في مناطق مختلفة، لاسيما على ظهره. أرعبه المنظر حد أنه لم يستطع إدامة النظر وأشاح بوجهه عنه؛ ليقع بصره على مشهد لا يقل قساوة عن سابقه. في زاوية، يقبع كرسي جميل الشكل بارع التصميم، يتموضع عليه

بتفاخر الملوك وزهو القادة العظام رجل في أواسط العمر، يرتدي زيًا يُرجح أنه يعود للعصور الوسطى. مترعًا بنياشين وأوسمة متعددة، تحاكي قائدًا مغوارًا، خاض حروبًا كثيرة. وعلى رأسه الفلطاح يستقر تاجًا يعمل على الدوام على خلب ألباب الرجال المحيطين به دونما تمنيه، يرتجف أولئك المحيطون به ويبتسمون. ويُظهرون تبجيلًا لا حدود له لصاحب التاج ذي اللحية الكثة المخضبة بالحناء وكذا شاربه، ويَظهرون أنهم مستعدون لفعل ما يمليه عليهم ويأمر به. وعن يمينه يقف رجلًا طاعنًا في السن يقوم بوظيفة مملة، حيث يقوم بوظيفة مروحة كما قال أحمد لنفسه، كل ذلك يبدو رائعًا، ما جعل المشهد قاسيًا عن سابقه هو أن هذا المبجل يصفع في دورة لا متناهية الرجل المروحة الذي يستقبل الصفعات بصمت وابتسام، ويصفع، بنشوة وتلذذ، باقي الحاشية من حوله. ويضع قدمه على رقبة أحدهم، حيث يركع هذا الأخير عند موضع قدميه مرتكزًا على أربع مثل حيوان، تتدلى من عنقه سلسلة حديدية غليظة تنتهي في يد الرجل المهيب. تذكرا حديث بائع التحف عن الذين متذكرون على الدوام أنهم حكامًا تقتضي مناصبهم أن يكونوا فوق رؤوس محكوميهم. وعن الآخرون، الذين لا يعزب عن بالهم أبدًا، أن الذل والاتضاع والمهانة؛ إنما هم حياتهم ونصيبهم، الأعداد المهولة من الناس الذين إن عقلوا الأمر قليلًا، لأبادوا حكامهم الجبابرة. ضُربت الإنسانية، كما فكر أحمد،

في مقتل، إذ أن المناظر المروعة غير الآدمية والكثيرة التي شاهدها أدمت قلبه. كان فؤاد نورالدين أقل منه تأثرًا بتلك المشاهد، إذ أنه قد شاهد، في أزمنة غابرة، ما يجاريها ويضارعها في الهول والفظاعة من قِبل الإنجليز وغيرهم من المصريين أنفسهم، وما قد سمعه وتخيله كأنه يراه، من رفقاؤه المساجين والمعتقلين السياسيين بعدما خرجوا من غياهب السجون والمعتقلات. وعلى الرغم من الوقع الخفيف لتلك المناظر على قلبه، بكى. بكا الاثنان على الإنسانية التي تُنتهك أمامهما. وكان بكائهما على أولائك المُذلون المُهانون الراضون بما هو واقع عليهم، أكبر وأعظم. وفي ذلك الوقت، كان حقد أحمد على الحاكم لا نظير له، ونفوره منه لا حد له. وإن أخبره عرافًا أو مدعي علم الغيب بأنه في وقت قادم، سوف يرجو التقرب والوصول لهذا الحاكم لمسألة ما، لقال عنه إنه مجنون.

لا ضير، صحيح أن الصدمة جمدت الدم في أوردتهما، إلّا أنهما استمرا في التقدم أكثر نحو التلال التي بدأت صورتها توضح وتقترب منهما، كلما تقدما باتجاهها. تجاوزا السادة والعبيد وراحا يجوبان نحو الأفق البعيد، حيث خلف التلال، يستقر الجوسق المقصود. صمّا إذنيهما أثناء ذلك عن الصراخ والعويل الذي يصدر عن أُناس يضربون بقساوة وهم يتضاحكون بدموع، وحجبا أعينهما بأكفهما كي لا يريا مناظرًا تزيدهما آلامًا وحسرة وهما

مباعدون بين الأصابع لرؤية الطريق.

توغلا في الرمال الباردة مشيًا على الأقدام، صعودًا إلى تل ثم هبوطًا بتثاقل وكلل، شاعرين بالتعب والإنهاك والجوع والعطش. ها هو القصر المنشود يتربع على قمة جبل صغير. مرة ثانية يضطرا إلى الصعود، برغم ما ألم بهما من كلل وملل ومشقة. صعدا الجبل ووصلا إلى أسوار القصر. «كأنها آثار الدولة الفاطمية الموجودة إلى الآن». قال أحمد لفؤاد وهو يتمعن في الأحجار الضخمة التي تتشكل منها الأسوار العالية التي يستقر فوقها، وفي نقاط عديدة تبعد عن بعضها مسافة ثلاثة أمتار، جنود مسلحون بسيوف في جربها وسهام في أقواسها متأهبة للانطلاق متى أطلقوا لها العنان.

بوابة القصر العملاقة مُشرّعة خالية من الحراس! «كيف أمكنهم تركها على هذه الحال؟». قال فؤاد يخاطب نفسه مندهشًا. ورأى الاندهاش ذاته في عيني أحمد. توقفا قليلًا، قال أحمد يخاطب فؤاد وهو يشير بيده إلى الأعلى:

- لاحظت أيضًا أن الحراس فوق الأسوار لم يضربوننا بسهامهم؟

قال فؤاد:

- نعم.

ثم فكر أحمد لهنيهة قبل أن يقول:

- شيء عجيب، والأعجب (نظر إلى البوابة العملاقة المُشرّعة)

هذه البوابة المفتوحة والتي يسهل الولوج منها دون الاصطدام بأحد من الحراس.

قال فؤاد باستغراب:

- بل العجيب حقًا أنهم يعرفون أن سهامهم لن تقتل أحدًا، فجميع من هنا مخلدون.

حدق أحمد إلى عينيه مليًا، ثم قال وهو يرفع حاجبيه:

- معك حق.. إذًا لماذا يحرسون الأسوار؟ ولماذا يتعارك الحكام فيما بينهم على السلطة؟ ثم كيف تكون معاركهم من الأساس دونما قتل؟ أي ما هي معايير الهزيمة والانتصار هنا؟

وقبل أن يدلفا إلى فناء القصر الفسيح، وقبل أن يشاهدا عظمة القصر ودقة تصاميمه وبراعة بنائيه، وقبل أن يسمعا ذلك الصوت الرخيم الذي تعرف عليه أحمد شاكر من اللحظات الأولى، وقبل أن ترى أعينهما الأعداد الغفيرة من الجنود المصطفين بنظام دقيق في أماكن متفرقة من الفناء، وقبل أن يشاهدا حشدًا من رجال يبدون على درجة عالية من الوقار الذي سيتبدد بعد قليل مشكلين حلقة حول واحد يبدو زعيمهم، جالسًا، كما هم جالسون، لكن على كرسي أروع من جميع الكراسي الفخمة التي رأياها خارج هذا القصر في عالم الذاكرة، أما هم، فجالسون على فرش فوق الرمال ومتكئون على حشايا مصفوفة. وفي منتصف الحلقة تقف فتاة ترتدي ملابس غاية في الفخامة، وشعرها الأسود

كليل ديجور، يتلاعب به الهواء بشكل جذاب، تصدح بصوتها العذب بموشحة أندلسية. قبل كل ذلك، كفا عن الأسئلة وتقدما إلى البوابة ثم توقفا بدون اتفاق مسبق، نظرا لعيني بعضهما وفكرا، وفي نفس اللحظة هزا رأسيهما لأعلى ولأسفل وقد اتفقا على خوض مغامرة لا يدريان ولو نذرًا يسيرًا عن عواقبها.

اقتربا من حلقة الرجال دون أن يعترض طريقهما أحد من الجنود الذين مرا بهم، جلسا صامتين وهادئين يستمعان إلى القصيدة من الشفاة المكتنزة ذاتها وبالصوت الرخيم ذاته. تعرف عليها أحمد شاكر فور سماعه لصوتها المميز، إنها هي بالفعل، روناء. لم يخب حدسه في أن تكون هي، من سمعها تصرخ والجنود متحلقون حولها. ألهبت حماسته صورتها، أججت نار قلبه عينيها السوداوين العميقين، وأثاره صوتها وزرع دآبة غير عادية في قلبه وبث قوة عشرة رجال في جسده فهم ينتصب. ولكن قبل أن يفعل، كبله فؤاد بلسانه ويده ومنعه من أن يرتكب حماقة تتسبب لهما في المتاعب.

سيتذكر أحمد شاكر في وقت آخر ومكان آخر ما صار، وسينبهر من قوة ساعدي فؤاد نورالدين وشدة عزمه في ثنيه عما كان مقدم عليه. فبعدما طالت جلستهما وهما يصغيان إلى الفتاة التي تغني بصوتها العذب الحزين، اتقدت نار الغيرة في قلبه وتأججت كأنها حرائق مشتعلة أوارها في غابات استوائية في

جو صيفي قائظ. لم يستطع عندئذ احتمال لواعج قلبه وتباريح أشواقه وانتصب واقفًا والشرر يتطاير من عينيه. هب جنديان قريبان مشهرا سيفاهما للقبض عليه. إذ كانت الأوامر صريحة وصارمة، ويعرفاها كما يعرفان أسماءهما، أن من يأتي بحركة غريبة يتم السيطرة عليه وجلبه للحاكم، ولم يعرف الجنديان أو كل الحضور حركة أغرب من أن يقف أحدهم في وجه الحاكم من دون أن يسمح له الحاكم بذلك بعد أن يأمره. حتى وإن كانت بين أحمد وكرسي الحاكم مسافة طويلة. وفي لحظات تدارك فؤاد الموقف وانتصب هو الآخر بجانبه وكبله من الأسفل بقدميه وقام بالتصفيق وهو يغلق عينه اليمنى ويفتحها ثانية بسرعة، وسرعان ما استوعب أحمد وترجم تلك العلامة وقام بالتصفيق هو الآخر. عندئذ توقف الجنديان في الحال وعادا لمكانهما في هدوء آخذين في الاعتبار ألّا يُحدثا جلبة تعكر صفو الحاكم.

جعلا يصفقان لبرهة بعد أن جلسا في لمح البصر، وإلّا لم يكن الجنديان ليعودا. وقبل أن يطلق أحمد كلمتين كان لهما أثر بالغ على روناء التي استدلت على وجوده بعد أن سمعتهما، كان الجميع يصفق ويهتف باسم الحاكم العظيم الذي منحهم ساعات من المتعة الفريدة، إذ أنهم اعتادوا مشاهدة فتيات ترقصن، وإن هذه لهي المرة الأولى لهم التي يتعرضون فيها لمثل هذا النوع من التسلية، غناء، تسلية جديدة أضفت جوًا مُستحبًا

على حياتهم. كان الجميع سعداء، المتحلقون والجنود والحاكم، ولو لم يكن الحاكم سعيدًا ما تسللت السعادة إلى قلب أحدهم أبدًا، لم يكونوا ليسمحوا لها بأن تدلف إلى قلوبهم، هكذا كانوا هم، على الدوام، تابعين مخلصين للحاكم، يضحك هو ثم هم من بعده. أشرق وجه الحاكم وتهللت أساريره وانفرط يقهقه ملء فيه، فانطلقت من بعد ضحكه، الضحكات والصيحات تدوي كرعود في ليلة شتائية. وفي خضم تلك الضحكات والصيحات، وبقلب يحترق من الجوى، غير عابئ بما هو محتمل أن يحدث، خرج صوت أحمد جهوريًا أقوى من رعود ضحكاتهم وصيحاتهم بكلمتين اثنتين «رانبير كابور». التفتت روناء ناحية مصدر الصوت، أشرق وجه أحمد بينما اندهش وجه فؤاد. «رانبير كابور»! ماذا تعني هاتين الكلمتين؟. علم أحمد أنها سمعته حالما رآها جفلت والتفتت ناحيته. لكن الحضور رهيب، لم تعد حلقة منتظمة، تداخل الناس وتزاحموا بشكل عشوائي مما أثار حفيظة الحاكم الذي تساهل مع تلك العشوائية واختراق النظام لسبب واحد، لأن مزاجه في تلك اللحظات، كان رائقًا.

لم يكن أحمد شاكر، ومثله فؤاد، وحتى روناء نفسها، على علم بما عقد الحاكم النية عليه بين نفسه ثم بين وزيره الذي يقف إلى جانبه. أدخلت الفتاة السرور والبهجة إلى فؤاده، فحق لها أن تبقى بالقرب منه طالما تسليه هكذا. ارتعبت روناء بعد

الأمن، تجهمت قسماتها بعد البشاشة، لأن الحاكم أدناها منه وأخبرها صادقًا فيما يقول، مبتسمًا ضاحكًا، بما عقد النية عليه.

وبعد التصفيق والضحيك، وبعد أن قرب أحدهم روناء للحاكم، وهمس الحاكم في إذنها بما قرره، حزنت روناء وطل الحزن من عينيها، كان السواد فيهما غطيسًا وكئيبًا كبحر في جهمة الليل، منسيًا في منطقة موحشة. غضب الحاكم غضبًا مخيفًا، أيحزن أحدهم وهو يضحك؟ إذا ضحك الحاكم فعلى الجميع أن يضحك، وإن حزن فيعم البؤس على الجميع ويقيمون الدنيا ويقعدوها حتى يُضحكوه. «لم تعرف هذه الحمقاء القواعد» قال الحاكم بعربية فصحى يخاطب وزيره الذي انتفض من الرعب حينما عبس الحاكم فجأة. «ادخلوا هذه الحثالة إلى القصر، هي لعبتي الجديدة التي لم أمل منها بعد» صرخ بصوته الأجش في وجه الجنود الذين لم يتوانوا وانطلقوا ناحيتها فور صمته. جرجروها جرًا وأدخلوها إلى صحن القصر، ثم إلى قاعة فسيحة يتموضع في آخرها كرسي مهيب، وألقوها تحت قوائمه. وصار هذا مصير روناء إلى أن ينقذها أحدهم أو يمل منها الحاكم.

وصار أحمد شاكر حزينًا، مكفهر الملامح، مختنق الأنفاس وضائق صدره بما حدث. وراح يقسو على ذاته، ما كان عليه أن يتركها له، كان عليه أن يصارع حتى الرمق الأخير، وإن لم يكن حاكمًا واحدًا، وإن كان جميع حكام المدينة التي أضنته

منذ وطئت أقدامه أرضها التي تنشر التعب في الجسد كما تنشر الريح النار في الهشيم. وقف غير بعيد يترقب ظهورها، إلى جانبه فؤاد يهدئ من ثورته ويرتجف من ردة فعله المحتملة. وقف أحمد يتذكر ما حدث، وفي تلك اللحظات بعينها لم تكن الذاكرة مفروضة عليه، هو من سعى، بكل إدراكه، إلى التذكر مؤنبًا نفسه وناعتًا إياها بالجبانة.

***

خارج أسوار القصر، يستلقي على رمال الصحراء الباردة، فوق الجبل الصغير، أحمد شاكر وفؤاد نورالدين بعد أن دفعوهما الجنود دفعًا وألقوا بهما خارج الأسوار المنيعة وأغلقوا البوابة العملاقة في وجهيهما. ثم وقفا مندهشين فضوليين وحائرين، لماذا الآن تغلق البوابة وتعاملهما الجنود بتلك الفظاظة؟ حارا في أمر الجنود، فهم لم يسيئوا معاملتهم وحسب؛ بل ساءوا معاملة الجميع عدا حاشية الملك المقربين منه. أين كان ذلك التجبر وقتما ولجا من بوابة القصر العملاقة المشرعة؟. «انظر لأعلى الأسوار» قال فؤاد وهو يرتجف ويولي وجهه شطر المدينة ثانية ويسحب أحمد من يده. وإن لم يسرع من الفرار من أمام أسوار القصر ويجرجر أحمد خلفه عنوة، لانهالت عليهما سهام الحراس الذين

شدوا نبالهم للخلف بقوة وبدوا على وشك أن يتركوها تنفلت لتخترق أجسادهما. هذا ولم يقم أحمد بردة فعل كما كان يخشى فؤاد، كانت حماقة واحدة حينما وقف وهما متحلقين مع الباقين حول الملك ورونا، واستطاع فؤاد إنقاذ الموقف برجاحة عقله. ماذا إن فعل أكثر من ذلك؟ «كان العذاب سيكون عقابنا» سأل فؤاد نفسه وأجاب عن سؤاله.

«بائع التحف، علينا أن نتجه إلى بائع التحف.» تمتم أحمد وهما يهبطان الجبل الصغير.

إنّ بائع التحف رجل خبير بالحاكم وبسلوكه، فمثلما أخبرهما بأنه يحب أن يرى فتاة ترقص، سيخبرهما بالأشياء العجيبة التي حدثت. بداية من البوابة العملاقة المُشرّعة، ونهاية بقذفهما خارج أسوار القصر. كان أحمد يفكر ليضع الأمور في نصابها، ثم هو يفكر بصوت مسموع. «إنه يحب أن يرى فتاة ترقص وليست تغني»! قال تلك الكلمات وهو يستدير ناحية الجبل الصغير الذي يتربع القصر أعلى قمته. توقف فؤاد في صمت ونظر له باستغراب شديد وخشية من أن يعود للقصر، ثم تحرك أحمد ناحية المدينة وتبعه فؤاد وقد اطمئنت دواخله.

وأمام خان بائع التحف انهدا خائرين من التعب، قَدر الرجل خلف الطاولة أنهما يفقدا وعيهما فوثب بحركة سريعة ورشاقة لا تناسب جسده ولا عمره غير المعلوم، وفي وقت قصير

جدًا، وصل إليهما وفي يده كرسيين صغيرين من الخشب. لا يدري أحمد الذي شاهده بصورة مشوشة بعيدة، وهو يثب ويهرول ناحيتهما، من أين أتى بالكرسيين؟. أدخلهما بائع التحف إلى الخان بعدما استراحا، فدلفا واحدًا تلو الآخر إلى بيت الخلاء لإفراغ ما يسبب لهما في الألم، ثم جلب لهما ما يسدا به رمقهما، ثم أصغى لما قاله له أحمد بتركيز وهو يهز رأسه، كأنه كان على علم مسبق بما حدث ودراية كافية بما صار في قصر الحاكم.

- إنّ الحاكم يأمر كلما ضربه الهوى، بإقامة عرض راقص، وعليه تُفتح بأمر منه البوابة العملاقة ويُسمح لجميع سكان المدينة بحضور العرض. ويتلقى الجميع معاملة ودودة إلى أن ينتهي العرض أو يتعكر مزاج الحاكم. عندئذ يحدث مثلما رأيتما. تنقلب الحال رأسًا على عقب، تتبدل المعاملة الطيبة الودودة إلى وحشية وهمجية. وحسن فعلتما بمجيئكما دون التطرق إلى القيام بفعل أو قول قد يجهز على حياتكما. أما بالنسبة لاستبداله متعة مشاهدة إحداهن ترقص بالاستماع لها وهي تغني، فلا علم لي. لم يسبق لفتاة أن عصت أمره إن هو أمرها، ولم يسبق له أن غير من تلك العادة، أن يأمرهن بالرقص. وبالنسبة للحراس والسهام، والمعارك التي تدور رحاها بين الحكام هنا، في عالم الذاكرة، عالم الخلود، عالم اللاموت، فسأقل لكما ما يزيل عن وجهيكما علامات الاستفهام والحيرة. بالطبع لا مكان للموت هنا، لكن القتل جائز.

فهو مرحب به من قِبلنا نحن، البشر. فبالرغم من أن حلم الخلود محقق هنا على هذه الأرض؛ فأننا لا نزال أنانيين، نرجوه لنا وحدنا. ما أود قوله أيها السيدان؛ أن لو رماكما الحراس بالسهام، ووقعت في موضع خطر؛ لانقضت حياتكما.

لا يزالان غير مقتنعين.

- والخلود؟ قال أحمد.

ورد عليه بائع التحف:

- إن فصل أحدهم رأسك عن جسدك، هل سينبت لك رأس آخر؟ إن بُتر لك ذراع...

أبقى جملته مفتوحة والتقط تمثالًا من الخزف على هيئة إنسان وفصل ذراعه عن جسده واستطرد وهو ينظر إلى ذراع التمثال:

- هل يمكنني إلصاق هذا بجسدك بدلًا منه؟

وصمت أحمد في حين تحدث فؤاد:

- نفهم مما تفضلت به، أن المعارك هنا تُخلف قتلى وراءها؟

استكانت ملامح بائع التحف قبل أن يقول بهدوء وهو يومئ برأسه:

- نعم.

تململ أحمد في جلسته. فلم يزد بائع التحف على أن جعل

الخوف يسري في عروقه، وهذا ما لا يريده. ما يشغل باله الآن وبعنف، هو كيف سيخلصها من بين مخالب ذاك الحاكم؟ جفل أحمد مرة واحدة وقد ومضت في ذهنه فكرة. اعتقد بائع التحف أنه أدى مهمته كخبير بكبائر الأمور وصغائرها وانتهى دوره بعدما أدلى بما يعرفه عن الحاكم وسلوكه، ولكن أحمد فاجأه بما عقد العزم عليه. ومثل هذه الأفكار المتهورة لا تخطر على بال سكان عالم الذاكرة، فمن ذا الذي يكترث بغيره لدرجة إقحام نفسه في المهالك؟! فكر بائع التحف بين نفسه. فكرة طائشة، خطرة، ولكنها ممتعة. لم يجرب بائع التحف أن يكرث جل وقته لأحد غيره، إن كان يهدر وقتًا ضئيلًا في الاستماع إلى الشابين والحديث معهما، فلأنه رجل معروف لدى جميع سكان عالم الذاكرة بأنه خبير بكل الأمور، ولعله يحافظ بذلك على تلك السمعة.

حذره بائع التحف مما يود القيام به، لا أحد في عالم الذاكرة أقوى من الحاكم الذي احتفظ بروناء في قصره. حتى وإن استعان بجميع الحكام وليس الحاكم الذي شاهده على كرسي حكمه الفخم وهو يصفع الرجل المروحة، ويصفع المحيطين به. ذاك الذي يضع قدمه على رأس أحدهم وفي يده طرف من سلسلة يتصل طرفها الآخر بحلقة حديدية ملتفة حول عنق الرجل. إنّ الهزيمة هي النتيجة المتوقعة، إن دخل معه في أي صراع. هذا وإن اهتم أحد الحكام بأمره واستمع لما يقول ووافق على مساعدته.

«لن أبين أن الأمر يعنيني، سأخبره بأنني غيور على سمعته كحاكم قوي وأريد له أن يمسك بزمام كل شيء هنا» قال أحمد. «وعندئذ سيتحرك بدافع رغبته في السيطرة على مقاليد الأمور» قال بائع التحف على نفس الوتيرة وقد راقته الحيلة. ومع ذلك خشي عواقبها عليه هو نفسه، فإن أخفق أحمد في مهمته، سيعرف الحاكم من الذي ساعده، وعندئذ سيكون في عداد القتلى. حاول بائع التحف ردعه بكل الوسائل، أراد أن ينكله عما قرر المضي فيه ليس خوفًا عليه؛ وإنما خوفًا على حياته هو. يود أن يستمر مخلدًا في عالم الذاكرة. إنما لم يستطع بكل ما أوتي من قوة إقناع، من جعله يذعن إليه. وانطلق أحمد شاكر وفؤاد نور الدين باتجاه الحاكم آملين في مساعدته لهم.

***

منذ ذلك اليوم الذي قابلت زهراء فيه كريم في الجامعة وهي تتعمد تحاشي مقابلته مرة ثانية ولو صدفة. لم تدع المجال حتى للصدفة أن ترتب لها لقاء معه. فلقد كان صدامًا وليس لقاءً، كان عراكًا وليس حديثًا. هاتفها كريم وأخبرها أن تنتظره في اليوم التالي على مقعد حجري يعرفانه أشد المعرفة، لم تأخذ زهراء احتياطها وتتشبع بهدوء نفس وبرودة أعصاب. لم تكن

تدري ماذا يخبئ كريم، صديق ابن عمها في جعبته. إذ أنه اتهمها اتهامًا مباشرًا دونما مخاتلة أو مكر، بأنها السبب في اختفاء أحمد وروناء. أخذت طريقها للمقعد المرتب عنده اللقاء بعد أن دلفت لفناء الجامعة. دقائق كانت كفيلة ليصل خلالها كريم ويدور بينهما حديث صاخب.

- إيه إللي بتقوله دا يا كريم؟!

- اقنعيني ليه صممتي إن الرحلة إللي كانت فكرتي، تكون في جبال نويبع، وإنتي عارفة أكتر من أي حد تاني، إن ابن عمك عنده عقدة من الجبال! دا مبيقدرش حتى يبصلها مش يطلعها!

وازدردت زهراء ريقها في حنق، إذ أنها لم تكن تتصور أن كريم سوف يسيء فهمها مثلهم. وفكرت بين نفسها أن كيف ستخرج من هذه المحنة التي وضعت نفسها دون قصد وبسذاجة طفولية فيها قاصدة تخفيف وقع الصدمة على آل السروجي. فلعلمها بمدى تعلقهم بها، ومعرفتها بأنهم دون ريب يتمزقون ألمًا لفراقها، حملت نفسها باندفاع متهور ومن دون أن ترتب أمورها وتحسب حساباتها، وانطلقت تطمئنهم عليها. لم يدرِ في خلدها أنها ستكون في موضع شك هكذا، وأن أكثر من شخص سيحاورها بأسلوب ضباط المباحث.

- هقنعك إزاي يا كريم؟ أنا.. كنت.. عايزة...

لم يدعها كريم تتم ما أرادت أن تقله بصوتها المتهدج، قاطعها

ليرحمها، دون قصد، من مشقة لملمة الحروف وترتيبها لتخرج على هيئة كلمات تصنع جملًا تشرح ما تريد شرحه.

- وليه رجعتي تاني للجبال لما كنا بندور تاني يوم الرحلة؟

وعندئذ انتصبت زهراء واقفة وقد فقدت إحساسها بالواقع لثوانٍ، تخلت عنها إرادتها في المقاومة وشعرت أن ليس في استطاعتها مجابهة أقل الأشياء عداوة. في تلك الثواني على وجه التحديد، كانت تحس من أعماقها بمدى اتساع العالم وضخامته، وأنها أضعف من أن تحتمل الحياة بداخله. داهمها دوار خفيف استمر للحظات قليلة، أسبلت عينيها المثقلتين بدموع تنتظر الإذن فقط لتنحدر من فورها وتشعر كريم بمدى قسوة اتهاماته للمسكينة التي بدأت تترنح. ولولا أنه أسندها من ظهرها بيديه لكانت سقطت فاقدة للوعي. أشفقت عينا كريم على تلك الضعيفة التي بدت خائرة القوى فاقدة لجميع أسلحة مقاومتها. لكن قلبه لا يزال يحثه على مواصلة الهجوم بأسلحته الثقيلة، يهمس في إذنيه بألّا يهتز ويتراجع أمام ضعفها. أمر قلبه بالصمت، لأنها بدت من نظرتها الشاردة وشحوب وجهها ويديها، كقائد جيش خسر للتو معركة فاصلة، وأن مملكته التي يدافع عنها بكل ما تبقت لديه من قوة وعتاد، ستتمزق بتلك الهزيمة وينحل كيانها، ليذوب في كيان مملكة أخرى. زعر كريم من منظرها، ضعفها، ترنحها، شحوب وجهها ويديها، عينيها المغرورقتين وشفتيها الذاويتين.

وهو الذي عهدهما نضرتين ومزهرتين. استطاعت بضعفها أن تخضع قلبه لسيطرته من جديد، أعادته لسلطته، ففرضها عليه بالقوة واستطاع أن يجعله يذعن له ويطيع أوامره، وكسبت هي صديقًا تحالف معها على كسب جولة من أشرس جولات حياتها قتالًا. أحست عندئذ بقوة حصان تسري في جسدها، وأحست بمدى ضآلة العالم مقارنة بحجمها الذي بدأ يتضخم، ورأت تلك الضخامة في عيني كريم الذي بدوره لمس تحسنًا بدأت تظهر ملامحه عليها. فلقد بدأ شحوب وجهها يتسرب ليعود من حيث أتى، كما أخذت عيناها تسترجعان نظراتهما الثاقبة وتطرحان عنهما نظرات الشرود. وشفتيها، بدأتا في الازدهار بعد أن كانتا ذابلتين. عاد قلبه يوسوس له، يخبره أن هجومه عليها في محله. وذلك حينما استعادت الفتاة رونقها من جديد. وأحست هي، من نظرات كريم المرتابة، أنها خسرت حليفًا قويًا، فلم يعد قلبه بجانبها. انقلب عليها في لحظات، ويقولون لكثرة تقلباته هكذا؛ إنما سمي قلب. ماذا تفعل لتزيح عن كاهلها ثقل جلاميده التي أضناها بها؟ عرفت أن لا يزال لديها سلاح، وأعطت الأوامر بمواصلة الصراع باستخدام سلاح الشفقة، وفجأة سقطت من فورها مغشيًا عليها بعد أن تضاءلت صورة كريم في عينيها وتضاءل كل شيء وبهتت كل الصور. وقبل أن تسقط، كانت قد شعرت بخدر يسري في ساقيها وأنهما خرجا من منطقة حكمها.. وفرا منها.

***

في الدار، بعدما عاد كريم من الجامعة، انهد على أريكة في مواجهة الشاشة، منهكًا كجندي عائد من حرب طويلة استنزفت قواه وعمره ونظرته الطبيعية للواقع، وهو لا يدري لماذا كان يقاتل ومن. ولا يعلم شيئًا عن نتائج الحرب، ولا يريد أن يعلم. فقط كل ما يبغيه، أن يتركه الأصدقاء والأعداء وشأنه، يمضي ما تبقى له من عمره يسامر روحه الحزينة في ليالي كانون الثاني الباردة يصطليا بنار الذكريات الحارة. ويصطحبها في نهار تموز الحار بعيدًا عن حبسة الديار وعشوائية الحارات وزخم المدن إلى صحراء باردة أو بحر هادئ صموت. وفي لياليه يستند على نفسه الجريحة من آثار الحرب ويتمشيا معًا، لا أن تستند هي عليه، واضعًا يد على كتفيها مرتكزًا بها عليها، والأخرى في جيب بنطاله المدني، حيث هي عادته منذ عاد من الحرب. فلقد اعتادت يده، في أيام الحرب، الارتياد بين أسفل سلاحه وبين جيوبه العسكرية لتزويد السلاح بالزخيرة التي لا تنفك تنفد. يضع يده في جيب بنطاله ويتركها هناك دونما حاجة ملحة لإخراجها مثلما كان يفعل أيام الحرب.

نظر إلى الجهاز أسفل الشاشة، وفكر.. أيشن حروبًا ضارية

على أعدائه في إحدى ألعاب الحروب؟ أعداؤه الذين أذاقوه مر الهزيمة من قبل، أم يؤجل معاركه إلى حين يستعد نفسيًا وبدنيًا وعسكريًا؟ قبل أن يتخذ قراره، تذكر أحمد شاكر، وكيف كان لا يحب من الألعاب ويلعبها سوى كرة القدم. تذكر يوم جعله يتحامل على نفسه ويوافق على أن يشاركه لعب إحدى ألعاب الحروب المفضلة لديه. لم يكن أحمد يفضل ألعاب الحروب ولا حمل السلاح ولا يجيد شراؤه واستخدامه، لذا دحره كريم في مواقع كثيرة. الآن يود كريم لو تركه يغلبه حينها، فهو الآن مهزوم كما كان من قبل، أثناء اللعب، وهو عاجز عن أن ينصره، وعاجز عن أن يعرف حتى عن معاركة أي تفاصيل. حتى أن زهراء، الخيط الوحيد الذي ظن أنه سيوصله إلى شيء، فقده قبل أن يتشبث به. فلقد أظهرت الفتاة حزنًا عظيمًا حينما عرفت ما يضمره في نفسه تجاهها، وأنه يظنها، مثلهم، سببًا في اختفاء أحمد وروناء، وعليه سلكت سبيلًا خاصًا بها، وهو استمالة من أمامها لها عن طريق جعله يشفق عليها، وفلحت في أن تقنعه أنها فوق الشبهات، وقد صدقها، لا خيار آخر أمامه. وهذا ما كان يفكر فيه كريم من قبل، فمن غير المعقول أن تتسبب زهراء في أذية ابن عمها وصديقتها.

خلد للنوم، وفكر قبل أن ينزلق تحت الغطاء، أن يتحدث إلى آل السروجي في شأنها. لكي يمحونها من تفكيرهم كمتهمة ويضعونها كفاقدة، مثلهم، لعزيز على قلبها. وإن كانت هي

تزيدهم فقدًا، فهي تفتقد لعزيزين.

***

ومنذ ذلك الصراع مع زهراء، وكريم يؤجل صراعات أخرى ظن أنها تنتظره بمجرد الدفاع عنها في فيلا آل السروجي. فقرر أخذ استراحة محارب، يجمع خلالها شتات نفسه ويوحد روحه مع جسده ليستقويا ببعضهما، ويستعد بدلائل وبراهين قوية لكي يُفند بها كل الحجج المحتملة من آل السروجي. فانتظر قرابة الأسبوع ثم تصرف كيفما ألهمه قلبه.

إنّ كريم لا يمتلك أية دلائل في حقيقة الأمر، وهو ما توصل إليه لاحقًا في دار السروجي. لكنه مأخوذ بعاطفة جياشة اتجاه زهراء، عاطفة بريئة باسم الصداقة. شعوره بأنه، كصديقها وصديق ابن عمها، الذي إن تسنى له الوقت، لطلب منه أن يحميها ويحابي عنها، كان يحركه دون أن يفكر مليًا. فحينما نطق باسمها، هناك، في دار السروجي، كانوا متأهبين لذمها ومنتظرين منه ذلك. بما أنهم آمنوا بأنها السبب في خسارتهم لروناء. لكن ما صار كان مفاجأة وخصيصًا لوالد روناء، لأنه اعتقد أن كريم مثله تمامًا، يصدق بكل حواسه أن زهراء متورطة في الأمر. عبر كريم عما أحسه تجاهها، وحينما طالبوه بالإتيان بما يؤكد ما يزعمه،

وجد نفسه وحيدًا في وجوههم بدون براهين. تخلت عنه، عندئذ، رباطة جأشة التي كان يتمتع بها، وفقد حس الإقناع وبدت كلماته فاترة، لا تسوغ معنى ولا تأتي بحجة. بل على العكس تمامًا، أحس من نظراتهم المرتابة التي اختبرها سابقًا في المقهى منذ اللقاء الأول الذي جمعه بمحمود السروجي، أنهم يتشككون في صدقه، وأنه قد أصبح في أعينهم.. متهمًا.

وفي خضم هذه النظرات التي تطلقها عيون مرتابة تحدق به، فكر في أن يجمعهم بزهراء، كي يخرجا من بئر التهم المخيفة التي وقعا فيها. من دون أن يطلعهم على أفكاره، احتمل نظراتهم القاسية واستأذن بالانصراف. وفي نفس الليلة هاتف زهراء وأخبرها بأنه يُصدّقها، وعليها لكي تجعل أصابع الاتهام تبتعد عنها، أن تتحدث إلى عائلة روناء وتدافع عن نفسها. بالطبع لم يحكِ لها أي شيء عن إحساسه بشكوكهم فيه هو الآخر. وكان أن اتفقوا جميعهم على يوم سبقه اتصال من كريم بمحمود السروجي ليأخذ منه ميعادًا للمقابلة.. وكانت المقابلة.

ولم يعرف محمد السروجي ماذا يريد قلبه في تلك الآونة. «مش دي زهراء!» قال مخاطبًا قلبه. «مش دي زهراء إللي معرفتش غيرها؟ ليه مبقتش ترقص زي زمان بمجرد ذكر اسمها؟»

أتتحكم في المشاعر أحداث، أم العكس؟ هل القلوب تتأثر

بالشكوك والاتهامات وتنكر حبًا، أم أنها لا تعترف إلّا بالمواقف؟ كثرت الأسئلة في عقله، لم يجد تفسيرًا واحدًا لتبدل مشاعره تجاه زهراء. حتى ولو بدت في عينيه في فترة ما، متهمة. أليس المتهم يستحق بعضًا من الشفقة على الأقل إلى حين إثبات جنايته أو براءته؟

واستطاعت زهراء ببراءتها ونقاهتها أن تستدر عطفهم عليها، عطفهم فقط، لكن لا تزال في موضع شك، وكريم أيضًا الذي ازداد شعوره بأنهم يتشككون في خلوه من الأمر، فإنها وكريم لم يضعا على طاولة المفاوضات دليلًا ماديًا يثبت براءتهما. وإن كانوا هم أيضًا، آل السروجي، لا يعرفون دليلًا يدينهما. تمكنت زهراء من أن تستنفر الدموع في عيونهم جميعًا. ليتبدل موقف محمد السروجي منها ويتقلب قلبه لمرة أخرى من بغض وحقد إلى حب وشفقة، وإن كانا مؤقتين، على حسب ظنه، إلى حين فك طلاسم قضية روناء، لكنه بالفعل اعترف بحبه لها برغم الشكوك. هكذا كانت زهراء، لا تصمد العيون أمام عفويتها طويلًا، وما تلبث أن تعترف لها بنقاء عريكتها وصدق طويتها. انتهى لقاؤهم ليبدأ لقاء آخر. هو بمنزلة حرب باردة ستدور رحاها بين أفراد عائلة دكتور بكر عبد الحق، وستكون ساحة الوغى، هي قاعة بيتهم.

***

مِن عادات هويدا زوجة الدكتور بكر عبد الحق، الجلوس على كرسي هزاز في شرفة منزلهم، سواء ليل أو نهار، تُمتع عيناها بجمال صنع الله من دون أن تقصد أو تدرك ذلك، هي عادة تداوم عليها فقط من أجل النئي عن الصخب الذي يسببه أبناؤها وخصيصًا معاذ. أو الهرب من تدارس زوجها الدكتور الجامعي الذي لا ينتهي. حيث يمضي في مكتبه يراجع أو يُحضّر أو يكتب أحيانًا ويقرأ أحيانًا أخرى، معظم ساعات راحته التي يقضيها خارج الجامعة. ومِن فرط غرقها في تأملاتها من أجل اللذة، تكاد لا ترى المارة، أو تراهم في أغلب الأحايين، أشباحًا تسبح في ظلام الليل، وخيالات تتحرك بتموج في النهار. إلّا أن ليالي تشرين الأول الباردة، أجبرتها تلك الليلة على أن تجعل ضياء، ابنها المطيع، يحمل لها الكرسي إلى صحن الدار. طلبت منه أن يضعه في مواجهة الشرفة، بحيث تكون الشاشة إلى ظهر الكرسي، لتكون هي في مواجهة نسمات أكتوبر العليلة الآتية من الشرفة التي أبقت بابها مشرعًا. وحيث تجلس هويدا، كانت الحرب الباردة بين أفراد عائلتها. وإنّ هويدا هي ابنة واحد من دهاقنة السياسة، وهذا كان سببًا قويًا لجعل زوجها يسعى كثيرًا ويبذل قصارى جهده من أجل أن يستميل قلبها أولًا له، ثم والدها. فمنذ أن بلغ الدكتور بكر عبد الحق ما

بلغه من شأن رفيع بين طبقات المجتمع، وهو يعمل على الدوام لرفع شأنه ومكانته أكثر وأكثر. وكان أن تقدم لخطبة هويدا من والدها في إحدى جلسات رجالات الأعمال والشخصيات المرموقة. التي تتسم في الغالب - وهذا ما قالته زهراء - بنفاق ليس له حدود. ولقد أزعج والدها هذا التعبير الصارخ، لكنه لم يعنفها عليه، لعلمه بمدى صدق تعبيرها. وإنما قال لها جملة جعلتها تعيد التفكير فيما قالته: «والدتك بنت واحد من إللي بتقولي عليهم منافقين» فقالت زهراء التي لم تهتز مبادئها، بينما فعلت عباراتها لكي لا تجرح قلب والدتها: «جدي كان راجل محترم» وبهذا أسبل الستار وأسدل على مشهد صراع الطبقات إلى آخر حياة الدكتور بكر عبد الحق، فلقد حاولت زهراء ألا تترك عقلها يتطرق إلى التفكير في الأمر مرة ثانية، على الأقل في دارها، ونجحت في ذلك.

جلست هويدا على الكرسي باسترخاء، تاركة الهواد يداعب خصلات شعرها في هدوء. هي سيدة وثيرة، قصيرة ومتوسطة الجمال. ولكنها اكتسبت جميع القلوب التي عرفتها إلى جانبها بسبب طيبة قلبها وعفويتها التي تصل أحيانًا إلى حد السذاجة التي تتسبب لها في بعض الأوقات بالإحراج، ليس لها فقط، بل لكل مَن يرافقها ممن يهتمون لأمرها. لهذا كان زوجها حريصًا على ألّا يصطحبها معه في جلساته التي لا تنتهي. وفي كل مرة كان يجد له سببًا قويًا منعها من المجيء معه، وذلك عندما تسأله

إحدى السيدات زوجات رجال الأعمال والشخصيات المهمة عنها.

الحرب الباردة...

في البداية خرج ضياء من غرفته، وكانت الساعة وقتذاك تجاوزت السابعة مساءً. جلس على الأريكة وقام بتشغيل الشاشة، وضغط على رقم في الجهاز الصغير الذي التقطه من على المنضدة التي أمامه ليظهر شاب وسيم، يرتدي ملابس أنيقة ويبتسم ابتسامًا عريضة ويتحدث في أمور الدين. كان لا يتحدث في فقه وتشريعات؛ وإنما في الدقائق التي تركه فيها ضياء يخرج ما في جعبته، كان يتحدث عن الفتيات. ملابس الفتياة الصارخة، زينتهن المبالغ فيها، خروجهن للشارع بلا حجاب، إغواءات الشبان لهن، وتركهن الشبان يغوينهن، وتسهيل عملية الإغواء تلك عن طريق تقديم تنازلات واضحة، كلباسهن الفاتن، وحديثهن المائل، وصوتهن الذي يتعمدن تنعيمه. كان سيروقه الحديث لولا صوت الموسيقى الذي ينبعث من الخلفية! تعجب، كيف استطاع هذا الشاب الحديث في أمور الدين مع صوت الموسيقى؟! أدار القناة بتقزز، فلقد اشمأز من الشاب وبرنامجه، لا من الدين. ها هم ينحرفون عن الدين ثم ينصحون الناس بألّا ينحرفوا عنه! تناقضًا رهيبًا. الأولى أن يتفقهوا في الدين ومن ثم يأمرون بمعروف أو ينهون عن منكر. أم أنهم لا يهتمون إلّا بالشهرة والظهور والأموال؟. ظل ضياء يفكر بين نفسه إلى أن حضر معاذ.

طلب معاذ من ضياء أن يغير القناة، فلقد اقترب موعد المباراة. تنهدت هويدا، لا تريد إزعاج. ولا إزعاج يضاهي صوت المعلقين وهم يصرخون عند الهجمات الخطيرة كأنها هجمات على أوطانهم! شيء عجيب، لكنه يظل عملهم في النهاية. وهذا يعد إخلاصًا في العمل. كانت تفكر هي الأخرى وتلتمس أعذارًا للمعلقين. لكنها رغم ذلك لن تدع معاذ يملأ البيت صخبًا، ولن تسمح لضياء أن يستمع لأحدهم بحنق، ثم يدمدم بغضب بين نفسه. لم يكن في معلومها أن لا هذا ولا ذاك مَن سيحول دون راحتها؛ بل زوجها، الدكتور بكر عبد الحق، الذي أتى من الخارج غاضبًا. وقد كان حضوره كحضور التوابع والزوابع، كالأعاصير المدمرة. فما إن دلف للدار، حتى صرخ بأعلى صوته باسم زهراء، فخرجت من غرفتها مزعورة. بينما هب الشابان باتجاه والدهما مندهشين. وقامت هويدا من فورها وهرعت باتجاه زوجها. «هو فيه إيه» قالت هويدا. كان زوجها هادئًا ولم يرد. لكن نظراته الحادة التي أطلقها باتجاه زهراء عبرت عن مدى غضبه الذي سينفلت في أي لحظة ويطيح بهذا الهدوء.

لو أن معاذ هو الذي أخبر والدها لم تكن لتنزعج هكذا. فحالما سألها والدها عن الكلام الذي قالته في فيلا السروجي حول أحمد ورناء، توقعت أن يكون ضياء قد أخبر شقيقها معاذ بحسن نية، ثم قال معاذ لوالدها. أما أن يتحدث ضياء مع والدها في

الأمر، وهي التي أصرت على أن تأخذه معها حينما طلب منها والدها أن تصطحب معها واحدًا منهما، لثقتها في أنه سيستجيب لرجائها بأن لا يحكي عما صار، كان مفاجأة لها. أجلت البحث عن تفسيرات لما استغربته من تصرف شقيقها، بل تناست أمر شقيقها تمامًا واستعدت لأن تواجه والدها بالحقيقة.

***

بالقرب من حصن يبدو لمن لا يعرفه مهجورًا، عاليًا يضاهي في علوه أشجار النخيل طولًا، ذو أسوار منيعة ملتفة حوله، عليها كما هي حال القصر الذي يتربع أعلى قمة جبل صغير خلف تلك التلال التي أرهقتهما صعودًا وهبوطًا، يتموضع رجالًا منحوتي الوجوه، سمر الملامح، مظلمي الأنفس كأنها الليل قبيل الفجر، في آياديهم أقواس مشدودة كالأوتار، متأهبون، كما هي الأوامر، لإلقاء كل من يفكر في الاقتراب من القصر صريعًا يلهو في دمه. يقف أحمد شاكر وفؤاد نورالدين ينتظران الفتاة التي من المفترض أن يرسلها إليهما بائع التحف لتسهيل عملية دخولهما، ثم سيتولى أحمد البقية كما قال لبائع التحف. لم يدرِ حين فكر وقال ذلك أن الفتاة هي من ستتدبر كل شيء، لأن الأمر سيروقها وتحبه لأفكار في عقلها.

فبعد تفكير عميق في كيفية الوصول للحاكم المنشود، توصل أحمد إلى طريقة قال عنها إنها فعّالة ومُجربة مرات عديدة، وأن مفعولها ليفوق السحر قوة وتأثيرًا. كانت الطريقة كما اقترح ثم خطط، أن تكن وسيلتهما لتحقيق مبتغاهما فتاة. انشرح صدر بائع التحف للفكرة وأخبرهما أن يسبقاها إلى قصر الحاكم الآملين في مساعدته، إلى أن تأتيهما. لم يستغرق بائع التحف الذي لم يسأله أحدهما عن اسمه قط، وقتًا طويلًا في استجلاب إحداهن. ويبدو أنها طرقت عقله منذ استماعه لأول كلمات قالها أحمد بشأن خطته. «لا يوجد غيرها، ميليندا». قال بائع التحف بابتسامة عريضة. إنّ ميليندا التي لاسمها معنايين محيرين وهما العسل اللطيف والظلام، هي من ستستطيع بجمالها الآخاذ وقوة شخصيتها أن تمكنهما من تحقيق هدفهما. إنها فتاة ذات طباع غريبة، تجمع بين خفة الظل والملاحة، وبين التكتم والصمت إلى درجة الكآبة، عنيدة لكن عنادها يزيد الرجال اشتهاءً لها. رائعة الجمال، ممشوقة القوام، بين النحافة والبدانة، بيضاء كالحليب، عيناها زرقاوان مائلان للخضرة، متوسطة الطول. تعود أصولها، كما تقول دائمًا لمكان يدعى المجر. هكذا تقول معتزة بأصولها، مفتخرة بأنها تعرف، على عكس الكثيرين، المكان الذي شهد بين جنباته ولادتها، والشجرة العائلية الشريفة التي تنتمي إليها. تقول إنها كانت نبيلة في قومها، حتى أنها قالت في إحدى مشاجراتها

في أشهر حانات عالم الذاكرة، حانة «ألكسندرا السكيرة» هكذا تسمى. أنها كانت أميرة، سليلة أسرة عريقة من أشهر أسر المجر التي حكمت في إمبراطورية المجر العظيمة إبان قوتها وعزتها. لكن من يأبه لكلام العاهرات. كان هذا القول تعبيرًا ساخرًا من الفتاة التي كانت تتشاجر معها بعد أن أطلقت ضحكة مثلها، ساقطة. وأتمت: «لأول مرة أعرف أن للعاهرات وظيفة أخرى غير كونهن عاهرات، ها هي إحداهن تؤلف النكات». وانفرج ثغرها عن قهقهات مثيرة لينفجر جميع من في حانة «ألكسندرا السكيرة» يضحكون على إثر قهقهاتها. وما مر وقت طويل حتى لملم الجميع أنفسهم وجمعوا حاجياتهم وانصرفوا من الحانة بهدوء، مذعنين لأوامر ميليندا قبل أن تجعلهم يندمون طيلة حياتهم التي لن تنتهي إلّا إذا قُتلوا. كما هددتهم ميليندا ويعرفون أنها جادة في ذلك ولديها من يفعل لها كل ما تريده وقتما تريده دونما الرجوع إلى مشورة أحد. وهو أقوى حكام عالم الذاكرة، صاحب القصر الصغير خلف التلال. كان خوفهم من أن يفقدوا صفة الخلود، أكبر من تأثير صاحبة الحانة فيهم. والتي جاهدت كي تحول بينهم وبين الانصراف. ألكسندرا السكيرة، التي لا تُرى إلّا وزجاجة خمر من أجود الأنواع في يدها وغارقة في الثمالة حتى التصقت تلك الحالة باسمها. تلك العجوز التي تعشق أن ترى غيرها سعداء بفضلها. ولذلك أقامت هذه الحانة التي استحالت المتعة فيها إلى

خوف حقيقي بعد تهديد ميليندا المجرية. وهذا أشهر أسماؤها التي عُرفت بها. حتى أن ألكسندرا السكيرة كفت عن الوقوف أمام من يغادر الحانة، وجلست صامتة وهي ترمق ميليندا بنظرات غضب جامح. وما هي إلّا برهة قليلة وخرجت ميليندا من الحانة؛ لتتركها ككهف مخيف تبدو مثل وكر للشياطين، إنما استطاعت ألكسندرا السكيرة بخروجها، أن تلتقط أنفاسها بعد أن كادت تموت طعنًا بنظرات ميليندا التي وُجهت إليها مثل سهام مسمومة منفلتة من قوس في يد لا تخطئ أهدافها.

وأتت من بعيد مثل ريح هادئة تحمل نسمات باردة في جو صيفي حار، أتت ترفل في ثوبها الفضفاض، تتمايل ذات اليمين وذات الشمال في غناجة لم يريا مثلها، قادرة على تحريك جبل راسخ منذ الأزل من موضعه إن مرت أمامه وبارحته. ميادة في مشيتها المتأنية، فاغرة الفم الصغير المرسوم بدقة على وجهها. كان حضورها منعشًا، وابتسامتها موقظة، وضحكتها مثيرة. مقارنة سريعة بينها وبين فتيات الجامعة، شرد خلالها أحمد بذهنه، ليعود وقد تفوقت ميليندا على جميعهن وجميع من رآهم في حياته. لم يشاهد شعرًا غزيرًا طويلًا وبرّاقًا مثل شعرها الأشقر. التماعته تفوق الذهب التماعًا وملمسه - ود لو يمسه - يفوق الحرير، كما ظن، نعومة واشتهاءً.

- هيا بنا. قالت ميليندا.
- أأنتِ ميليندا المجرية؟. قال أحمد متسائلًا بعدما أفاق من شروده ومن سحر حضورها الذي بدأ مفعوله يقل، كلما اعتاد وجودها.
كم تعشق هذا الاسم.. ميليندا المجرية. الذي يذكرها والجميع، حسب زعمها، أنها أميرة سليلة ملوك في أزمنة سحيقة. ظهر لؤلؤ برّاق عقب انفراج شفتيها الشهيتين قبل أن تجيب عن سؤاله بدلال وهي تعيد خصلات شعرها خلف إذنيها بكفتيها الصغيرتين الرقيقتين:
- نعم. يجب أن تعرف ذلك بنفسك. ألم يحدثك أبقراط عني؟
وقبل أن يتحدث أحمد، سبقه فؤاد نورالدين بنفس السؤال الذي كان على طرف لسانه:
- مَن أبقراط هذا؟
ووضعت ميليندا يديها على جانبي خصرها وقد مالت بجذعها قليلًا جهة اليسار وهي تهز خصرها، وقالت بنبرة حانية وعلى وجهها أمارات الدهشة وقد خرجت كلماتها متقطعة:
- أبقراط... حسين بن الفارض... بائع التحف!
- بائع التحف!! قالا في نفس الوقت وهما يبتسمان وقد أمحت آثار التساؤل وبدت ملامحهما أكثر هدوءً. وعندئذ، قالت

ميليندا مرة أخرى، وهي تناظر بوابة القصر الرئيسة:
- هيا بنا.

***

أخفض الحراس أقواسهم المشدودة واحدًا تلو الآخر فور مشاهدتهم لوجهها الأبيض، نظرة واحدة منها لأعلى الأسوار حيث الحراس، كانت كفيلة لأن يتعرفوا عليها ومن ثم يتقي ثلاثتهم شرورهم. تلك كانت بطاقة عبورهم ويالها من سهولة اختراق. «لنستغل النساء قليلًا، كما يستغلوننا على الدوام» تمتم أحمد بصوت خفيض بالكاد سمعه فؤاد المتاخم له كتفًا بكتف. ابتسما في دهاء وهما ينظران إلى ظهر ميليندا، وقد حددا منطقة بعينها ليتغامزان عليها. ولجوا من البوابة بعدما فتحها جنديان وأفسحا لهم المجال ليمروا. قطعوا الفناء مرورًا بالجنود المصطفة في تنظيمات عسكرية دقيقة. تفاجأ أحمد ومثله فؤاد من التجهيزات التي تمتاز بها جيوش هذا الحاكم، فلديه غير الأسلحة التقليدية التي تتمثل في السيوف والحراب والسهام والمنجنيق قاذف الأحجار، أسلحة حديثة من بداية عصر التحديث، على غرار البنادق الأولية والمدافع المتطورة من قذف الكرات الحديدية النارية، إلى قذف القنابل بدائية الصنع. دلفا إلى القصر عبر بوابته

الرئيسة، دون أن يعرقل تقدمهم أحد، فيكفي أن تُرى ميليندا حتى يحجم مَن وظيفته استوقاف الزائرين وسؤالهم عن الكلام ويتسم بالصمت والابتسام. كان كل شيء ميسرًا غاية في اليسر إلى أن وصلوا إلى باب حديدي ضخم، مصنوع بشكل فتّان، مليئ بنقوش ورسومات كأنها تعود لعصور الإسلام الذهبية. كانوا قد وصلوا إلى ذلك الباب بعد أن تجاوزوا دهليزًا طويلًا مبلطًا بأحجار صلبة ومصقولة كالمرايا. وأمام الباب توقفوا، واُتخذت معهم إجراءات أمنية، الجميع يُفتش هنا تفتيشًا دقيقًا، حتى وإن كانت ميليندا. بعد التفتيش، سُمح لهم بالولوج من الباب ليظهر الحاكم على كرسيه في آخر القاعة، والحاشية من حوله، والرجل الطاعن في السن يقوم بمهمته، وهي جلب الهواء لوجه الحاكم على الرغم من عدم وجود شمس تجعل الجو حارًا، إلّا أنها كما قال أحمد لنفسه مفسرًا ما يراه، من بعض مفارقات الحكام. بيدَ أنه، في زمن آخر، كان لديه مَن يقوم بهذه الوظيفة المملة، وإنه هنا، على أرض هذا العالم، حريص على إقامة حكمه مثلما كان من قبل وبكل حذافيره. شيء واحد كان ينقص الصورة لتتشابه والصورة التي رآهم عليها أحمد وفؤاد للمرة الأولى في شوارع المدينة بعدما بارحا بائع التحف، وهو الرجل الراكع عند قدمي هذا الحاكم والمربوط من عنقه بسلسلة حديدية.

على الجانب الآخر، حيث القصر المحتبسة فيه روناء، غطت

غيمة سوداء غير ممطرة سماء القصر لتحيل لونها الرمادي إلى أسود قاتم. ثم حطت الغيمة على سقف القصر واستقرت فوقه لهنيهة، وبعدها مرت بالفناء فوق الجنود وطارت بعيدًا. كانت أعدادًا مهولة من غربان ناعقة. وكما هو معروف منذ الأزل، أن الغربان نذير شؤم، هكذا تقول الأسطورة التي يؤمن بها حاكم القصر الصغير خلف التلال. ولقد صدقها حق التصديق حينما وصلت إليه، فيما بعد، أنباء سيئة.

وفي قصر الحاكم الذي قصده أحمد شاكر كان الحوار التالي:

- أهلًا ميليندا المجرية. قال الحاكم مُرحبًا بها بابتسامة عريضة.

- إنكِ تذكرينني بأحداث مؤسفة يا ميليندا الجميلة، وبالرغم من ذلك أُحب رؤيتكِ يا سليلة النبلاء.

- يؤسفني ذلك يا مولاي. قالت ميليندا وهي تنحني له تضرعًا.

هز الحاكم رأسه قبل أن يقول:

- أسفنا واحد يا ميليندا، وحسرتنا واحدة على أزمنة كنا فيها أسياد العالم، قبل أن تنال منا الأعداء. ومن بعدها، كما سمعت ممن أتوا بعدي إلى هنا، أُزيلت إمبراطوريتنا المجرية العظيمة على أيدي المسلمين. لكم أود أن يقع أحدهم في يدي.

قال جملته الأخيرة بوجه عابس وهو يقبض على أصابع يده.

ولحظتئذ تمعر وجه أحمد وفؤاد وهما يصغيان بكل حواسهما لكلمات الحاكم. «يجب أن نُخفي هوياتنا الحقيقية حتى لا يفترسنا هذا المتعطش للدماء». تمتم فؤاد نورالدين بصوت خفيض جدًا وهو يرتجف ارتجافًا. وأومأ له أحمد برأسه موافقًا وهو يزدرد لعابه. وبينما هما يرتجفان، قدمت ميليندا الطاعة وأظهرت انكسارًا لا مثيل له، هكذا هم معظم الحكام، وإنها لعلى علم كبير بذلك، يعشقون أن يشاهدوا انكسار الناس وخضوعهم لهم. وإنّ هذا الحاكم تحديدًا، لأشد أولئك الحكام رغبة في إخضاع الناس له وأكثرهم غطرسة، ولا يدانيه أي حاكم ممن عرفتهم ميليندا في تلك الغطرسة، حتى الحاكم صاحب القصر الصغير فوق الجبل خلف التلال. أدنى الحاكم ميليندا عند كرسيه، وراحت هي بدورها تقص عليه أقاصيصًا يحفظها عن ظهر قلب. أخذت تذكّره بوقائع من أزمنة أخرى بعيدة، لاسيما قبل تواجدهما هنا، على أرض الذاكرة. أزاحت الستار عن مشاهد يجاهد على مدار الوقت لتغيب عن ذاكرته النشطة ولو لفترة قصيرة يتنفس خلالها الصعداء، إلّا أنها محتضنة ذاكرته بقوة، متشبثة بعقله مثل تشبث أم بطفلها وأحدهم يجاهد بكل قواه ليأخذه منها. ففي زمان ما كان هناك شمس وقمر، وخلال أيام وليال شديدة القسوة على هذا الحاكم، وكان وقتها طفلًا صغيرًا، قامت معارك شعواء مع أسرته وأسرة الحاكم الذي يختطف روناء. ولم تعرف هاتيك المناطق، وقتذاك،

عداوة أشد من العداوة التي نشأت بين الأسرتين، ولا تنافسًا على إخضاع مناطق وشعوب كل منهما للآخر، أشد من تنافسهما. ولا حروبًا طويلة مستنزفة، كالتي نشبت بينهما واستمرت على مدار شهور. وهنا في عالم الذاكرة، يتذكر هذا الحاكم الماثلين أمامه ما صار جيدًا. فلقد مُني أباه وشقيقيه الذان يكبرانه في العمر بهزائم متتالية محزنة. ولكن كان حزنه عظيمًا حينما عاد قائد جيش والده به وهو مصاب يلفظ أنفاسه الأخيرة في حضرة أبنائه الثلاثة. وقبل أن يموت، أوصى بضرورة استكمال الحرب حتى ولو كانوا يعرفون أن النتائج لن تكون في صالحهم. وبالفعل استمر القتال إبان حكم شقيقه الأكبر، ثم الثاني. وجاء دوره هو وقد كان لا يزال صغيرًا، فأوكل المهام العسكرية لقائد الجيوش آنذاك، واهتم هو بالأمور الإدارية. وكان على صغر سنه قوي الشخصية، حاد النظرة، مسموع الكلمة ومجاب المطالب. وكان أشد الناس عداوة وحقدًا على من تسببوا في إفقاده أبيه وشقيقيه. وإن مُهل لبعض الوقت، لكان باد أعداءه شر إبادة كما يقول الآن وميليندا تذكّره. إلّا أن أحداث غريبة لم يستطع أحد تفسيرها، حالت بينه وبين أحلامه التي كان يسعى لها وأتت به إلى هنا. وتشاء الأقدار الآن، أن تخبره إحداهن بأن حاكمًا هو سليل تلك الأسرة التي أذاقتهما مرارة الفقد، يتواجد في زمانه ومكانه. ومن فرط حنقه على ذاك الحاكم وغيظه منه، لم يسأل نفسه من أين أتت ميليندا

بهذه الحقائق، ولم يسألها هي نفسها. وإنما أسرع يعد العدة للحرب متجاهلًا الشابين الذين حضرا لمجلسه بصحبة ميليندا والذي لا يعرف شيئًا عنهما.

***

وهو على صهوة جواد وبجواره جواد آخر يحمل صديقه، متأملًا الأعداد الغفيرة التي كانت لتسد عين الشمس إن كانت هناك شمس، قال فؤاد يخاطب أحمد بضمير يتألم:

- لا تسئ فهمي، أتستحق روناء أن تحرك من أجلها هذه الجيوش الجرارة؟

نظر إليه أحمد شذرًا قبل أن يقول بصوت رقيق آت من أغوار قلبه:

- تستحق أكثر من ذلك. وإن كان في يدي إفناء العالمين الغريبين الذين عرفناهما، على أن تعود روناء، ما تأخرت عن إفنائهما طرفة عين.

زم فؤاد شفتيه، وقد أعجبه إصراره وقوة عزيمته، إنما كان شعور بتبكيت الضمير يوخزه، فقال:

- بعيدًا عن أنك لا تعرف خواص هذين العالمين، ولا كيف تكّونا ومن أين أتت كل طوائف الناس المختلفة بلباسها ولغاتها،

أليست على أرضها أرواح من حقها أن تظل تنبض بالحياة؟

تنهد أحمد وقال بنبرة عمق:

- أنت تعرف مثلي يا فؤاد أن هذه ليست حياة، سواء هنا في الذاكرة أو هناك، في عالم الشفاء كما يسمونه. إنّ الحياة الحقيقية خارج ذلك كله، فوق، في عالم «٢٠١٨». صمت أحمد لوقت قصير جدًا ثم أردف:

- كم أحب الموت الآن بعدما عشت الخلود الأجوف هذا.

لم يرق لفؤاد ما قاله أحمد، فقال له بنبرة حازمة:

- إن كنت تعتقد أنك تمتلك حق تقييم حياتهم الأبدية، والحكم عليهم بما يمليه عليك قلبك لا عقلك منساقًا خلف مشاعرك الجياشة تجاه روناء، فاعلم أن حكمك عليهم بالإبادة؛ إنما هو جائر. دعهم لأبديتهم ولتعد أنت لعالمك.

- وروناء؟! قال أحمد باندفاع فور صمت فؤاد وهو يستدير بجسده كله إليه وعيناه تنطقان بالكثير.

أجابه فؤاد بهدوء:

- إنها روح واحدة يا أحمد، وغير معرضة للقتل، وليست جماهير عريضة في طريقها لإبادة همجية.

عندئذ جفل أحمد ثم قال مستغربًا بنفس النبرة الهادئة التي تحدث بها صديقه:

- ألم تسمع الحديث الذي دار بين المجريين؟ ميليندا والحاكم

المغرور الذي يصيح في جنوده الآن كالمجنون ليستثير حماستهم؟!
أتظن أن كل هذه الحماسة لخوض حروب همجية كما تقول، من أجلي وروناء أو من أجل ميليندا؟ إنها من أجله هو، لتبرد نار ثأره المتأججة وينطفئ لهيب غيرته على سمعته الحالية وسيرتهم القديمة. من أجله وأبيه وشقيقيه وجنودهم الذين أُبيدوا سالفًا. إنّ هذه الحرب ستقوم في كل الأحوال، سواء بإرادتي أو بإرادة غيري.

هز فؤاد رأسه، إن كلامه لمعقول يكاد يصدقه، هو بالفعل فيه كثير من الصحة، إلّا أنه لا يزال يعتقد أنه سبب مباشر في إدارة رحى الحرب، فبسببه ذهبت ميليندا للمجري وهيجت قلبه على الحاكم الثاني، فقرر مقاتلته.

إذًا فهي الحرب، لا مندوحة لهم عنها. صُفت الصفوف، حُملت أسلحة وجُرت أخرى لثقلها كالمدافع، ورفعت الرايات والهامات وشُدت الصدور. جيوش جرارة ليست لها عدد، جميعهم ملك يمين حاكمهم المجري، طوع أمره فيما يتفضل به عليهم ويأمر به. عاهدوه على النصر حتى ولو قُتلوا! هكذا قالوا له في هتافاتهم. «حتى وإن قُتلنا سننصرك يا سيدنا، فليس ثمة قتل سيحول دون أن نكون خدامك المخلصين».

على الجانب الآخر، حيث القصر الصغير فوق الجبل الذي يقع وراء التلال، كانت الحماسة أشد والأعداد مهولة. تناقلوا الأخبار

بمثل سرعة البرق بعد أن جاء جواسيسهم المزروعة في كل مكان بها. وإنهم لمستغربون من أن أحد تطاول وجهز جيوشًا لقتال حاكمهم. فكيف يجرؤ؟

وفي الشوارع الهادئة التي كانت قبل هذا التوقيت صاخبة وتغص بالناس، كانت تسير جيوش المجري تزلزل أرض عالم الذاكرة الحجرية. قبعت الناس في دورها قلقى، ترتعد فرائسها من عواقب هذا الصراع العنيف. أُغلقت الحوانيت والخانات والحانات. لم يعد ثمة بيع أو شراء أو لهو وابتغاء شهوات. إنها الحرب، هذه الكلمة التي يشيب لسماعها الولدان، وتجهض من سيرتها الحوامل. هادمة الملذات الحقيقية. تُرى الناس الموت متجسدًا أمام أعينهم قبل أن ينال منهم، وإنه لهو الرعب بعينه. فإن ما يجعل الموت مستساغًا في بعض الأحوال؛ أنه يحضر بدون سابق إنذار، فجأة على حين غفلة ممن سيفقدهم حياتهم، يداهمهم في خفية وسرية.

وفي منتصف الصحراء الفاصلة بين المدينة التي بها مقر المجري والتلال التي خلفها مقر الحاكم الآخر، كانت الحرب. استعدت الجحافل بنفاد صبر لإثبات كم هم مخلصون لأسيادهم، وبيقين راسخ مفاده أن عليهم الدفاع عنهم والموت دونهم. بدأت الحرب بعد دوي الأبواق وقرع الطبول. مئات من الفرسان البارزين في الجانبين يتبارزون بقوة، وألوف مؤلفة من المشاة

يتقاتلون بسيوفهم ورماحهم بوحشية وحيونة ليست لها نظير. دروع حديدية تتصدى للضربات العشوائية بمهارة وثبات، تنفلت إحدى الضربات على يد أو ساق أو جذع بعد خطأ في تقدير الضربة أو خور في العزيمة وضعف في الهمة، فتبتر وتقطع بحدة.

مر وقط طويل، تساقط الكثير من القتلى وبترت سيقان وأذرع وأجزاء لا حصر لها من أجساد المحاربين على الرمال الرمادية الدافئة، والتي تحولت لحمراء قانية بفعل الدماء التي جرت كالأنهار حافرة لأخاديد لا عدد لها. وبعد مرور وقت طويل من القتال المتواصل، بدأت جيوش الحاكم صاحب القصر الصغير خلف التلال في فقدان الصبر على القتال وفقدان الحمية أيضًا. لا يدري حاكمهم ما الذي جرى لتنقلب المعركة عليه بعدما كانت له في بدايتها. ففي البدء قاتل الفريقان قتالًا شرسًا لا هوادة فيه ولا تقاعس، جيوش المجري أقل عددًا لكنها أفضل تسلحًا، حيث استخدموا لأول مرة في حروب عالم الذاكرة، مدافع البارود. حيث تنهال القذائف على جيوش أعدائهم فائقي الأعداد فتحدث انفجارات عظيمة تبتلع الكثيرين منهم. وقذيفة بعد أخرى وبخطة محكمة استطاع المجري أن يقلب المعركة لصالحه. كما توجد ثلاثة عوامل أساسية في النصر الذي بات قريبًا من التحقق. العامل الأول وهو دافع قوي جدًا، هو فكرة الأخذ بالثأر المؤجل منذ أزمنة غابرة، الانتقام الحار الذي جعل المجري يحسن تدريب

جنده وتسليحهم وبث الدأبة فيهم، والثاني هو الأخذ بنصيحة أحمد الذي لم يذعن المجري لرغبته في الالتحاق بجيشه والمحاربة في صفوفه. ولكنه أذعن لاقتراحه العبقري من وجهة نظر المجري، حيث اقترح أحمد قُبيل المعركة بوقت قصير، أن يعطي المجري أوامره للمنادي ليذيع في جنده أخبار عن مكافآت ضخمة لكل من سيخوض معه الحرب ويقاتل حتى آخر نفس، ووظائف عليا في جيشه ومملكته لمن يقتل أعدادًا أكثر. فتسابق الجند على نيل المكافآت الضخمة التي وُعدوا بها، ولشغل المناصب العليا التي كانوا شغوفين بها. أما العامل الثالث فكان له تأثير كبير أيضًا، وهو ظهور ميليندا في جيش المجري، وجودها في المعركة، وإن كانت لا تقاتل كان له دور عظيم. قربها منه كان دفعة شديدة له ولجنده، وخيبة أمل للحاكم الآخر ولجيشه. ولقد قال الحاكم عندما علم بخبر ذهابها لمقابلة المجري: «لا عجب في أن تخون العاهرات، فهن في الأصل قد خانن أنفسهن أولًا، لكن العجب كل العجب؛ أن تحط بمجرد ولوج إحداهن لقصر المجري، الغربان الناعقة، وهذا نذير شؤم». ولم يخب حدسه وجاءه جواسيسه بخبر الحرب التي لم تتوانَ، وطرقت بابه.

وبعد سويعات من القتال الشرس، تعالت صيحات النصر في جيوش المجري وتقهقرت جيوش أعدائهم للخلف حيث التلال ليتذرعوا بالقصر. لكن المجري الباحث عن الثأر لم يكتفِ بكسب

جولة وحسب؛ وإنما أراد أن يستأصل شأفة جيش أعدائه من الوجود. أن يبيدهم عن بكرة أبيهم. وكانت ميليندا التي لا تقل عنه رغبة في الانتقام، تشد من إزره تارة وتوسوس في إذنيه بألّا يتراجع تارة أخرى. وواصل المجري تقدمه وملاحقته للحاكم المتقهقر حتى استطاع أحد قاداته المهرة قتله قبل أن يصل إلى قصره الحصين. وبمجرد إذاعة خبر موته بين صفوف محاربيه، حتى توقف من كان لا يزال يقاتل عن القتال، ومن كان لاذ بالفرار عن الفرار. ألقى الجميع بأسلحتهم على الأرض وأخفضوا رؤوسهم منتظرين أوامر الحاكم المنتصر بعد أن لامست ركبهم رمال الصحراء تضرعًا وامتثالًا لأوامره. ولم ينتظر المجري طويلًا وأعلن سطوته على الجميع وأنه قد صار حاكمهم الجديد.

وعرف أحمد ما آلت إليه المعركة، فصحب فؤاد واتجها رأسًا إلى مقر المجري الجديد ليأتيا بروناء ومن ثم يغادرا العالمين بهدوء، كما أتيا.. بهدوء.

***

إنّ الحقيقة المؤكدة، والتي لا يرقى إليها شك، أن زهراء تكن معزة كبرى تسع نصف الدنيا لابن عمها، ومثلها لصديقتها. وبناء على تلك المعزة الكبرى، كان تصرفها إزاء عائلة السروجي. فقد

كانت تحركها محبتها لروناء، فأرادت أن تريح أفئدتهم وتنثر في صدورهم بعضًا من الصبر الذي استنزفوا منه الكثير خلال الثلاثة أشهر المنصرمة، والأيام القليلة من شهر أكتوبر. وعليه اتخذت قرارها ووضعت نفسها في مأزق لم تكن تحسب حسابه. فإنها لم تتخيل ولو للحظة أنهم سيمارون فيها. وبعدما شاهدت أصابع الاتهام تشير إليها من آياد كثيرة، وعيون مواربة حانقة تحدق إليها دونما رأفة أو مراعاة لمشاعرها الرقيقة، وعلى وجه الخصوص من والدها ووالدتها، عندئذ، أخبرت أفراد عائلتها بالأسباب التي ساقتها لفعل ذلك. وكان إن استراح والدها والتمس لها الأعذار، ولكنه عنّفها كذلك على تصرفها الساذج من دون أن ترجع إليه ليعطيها المشورة التي تجنبها كل تلك الشكوك. واعتذرت هي بدورها وأعربت عن ندمها. ثم طمأنته أنها وكريم، قد استطاعا معًا، نأي جميع الشكوك عنها. وأن آل السروجي آمنوا بأنها أرفع من أن تطالها الشكوك. في الحقيقة أن آل السروجي لم يكونوا قد أخرجوها وكريم من دائرة الشكوك بعد، وتعلم ذلك، أنما أرادت بأقوالها تلك أن تريح أفئدة أفراد أسرتها إلى حين عودة أحمد وروناء الإعجازية.. كانت تدرك أن ثمة معجزة يجب أن تكون، كي يعودا.

وانفلت أسبوع ثالث من شهر أكتوبر. «الأيام بتجري» قالت زهراء. يقلقها جدًا اقتراب امتحانات الفصل الدراسي الأول من

عامهم الأخير لهم في الجامعة من دون أن يظهرا. كانت تعزي نفسها في فقدهما بذلك الخوف الباهت الذي لا ملامح له. تطمر خوفها الحقيقي، وهو اختفاؤهما للأبد، تحت غطاء الخوف من هروب الدراسة منهما. لكن ما عساها تفعل؟ قررت أن تركز على دراستها، والغائبان، إن كان مقدر لهما العودة، سوف يعودا.

ولم يدعها محمد السروجي شقيق روناء للتركيز في الدراسة، إذ أنه باغتها بطلب غريب. فإن الظروف لم تكن مواتية لمثل هذا التصرف. نعم يروقها وطالما تحدثت إليها روناء عنه، لكن التوقيت الذي اختاره عجيب. فحينما كان محمد السروجي يتضرع إلى شقيقته كي تحكي له عن زهراء، كانت الأخيرة تعرف كل شيء من شقيقته. بادلته مشاعره بين نفسها ولم تبدها له. ولكم كان قلبها سيسعد بطلبه لو أنه أتى في ظروف أخرى. وافقت على الخطبة وأجلت الزواج إلى حين. فهي لم تفقد الآمال قط، في عودة الغاليين.

كما أن أخاها معاذ لم يفقد الأمل في عودة روناء، أما عن أحمد، فكان لا يخطر له على بال.

وفي تلك الآونة، تهيئت القلوب إلى استقبال أحمد شاكر بشوق عظيم، لكن أفعالهم لم تفعل. فلو حدث وعاد أحمد لوجد لا شيء مادي ينتظره. كل ممتلكاته حصل عليها عمه. وزيادة على تلك الخسارة المادية، سيجد خسارة أخرى في انتظاره. فسيرته التي كانت قبل أشهر مشرقة، غامت حتى غابت بعيدًا جدًا. فغير

ذلك المحضر الذي لا يزال اسمه فيه، تلوكت سيرته في الأفواه. فالجميع باستثناء قلة قليلة، بات مقتنعًا بأنه قام باختطاف روناء أو بإقناعها بالهرب معه، وشهدوا على ذلك أمام ضمائرهم التي كانت توبخهم في لحظات صحوها بأنهم من المفترض أن يعقلوا الأمور قليلًا، نعم كان شابًا غريبًا؛ إنما من المستبعد أن يفعل ذلك. أفكاره وتصرفاته كانت شاذة بعض الشيء؛ إنما لم يكن قط بذلك الشر الذي يحضه على اختطاف إحداهن أو إغوائها بالهرب معه. ثم لماذا يؤذيها من الأساس أو يفطر قلب أحبابها عليها وهو من ضمن أولئك الأحباب؟ بل هو حبيب من نوع خاص، لا يؤذي بالحب؛ بل يوجع، ولا يُؤذى به؛ بل يتوجع. وثمة فارق بين الأذى والوجع؛ فأحيانًا يكون في بعض الوجع لذة سببها الحب.

صارت انطوائيته وتكتمه عدوانًا له، حين غاب، وهما الذان كانا سببين قويين لانجذاب الناس له. أما عن روناء، وشوق القلوب لها، فكان شوقًا لا يوصف، خصيصًا الذي كان يغص به قلب معاذ، والذي لم يكن يبالي بأمر ابن عمه.

***

يكفي أن يعبر أحمد الصحراء التي تفصل بين المدينة وبين القصر خلف التلال والذي أصبح المقر الجديد للحاكم المجري،

تلك الصحراء التي شهدت إحدى مجازر الإنسان وهمجيته وعشوائيته، ليلتقي بفتاته التي حرك من أجلها الجيوش. وقت قصير سيجمعه بها، شعر بأنه دهور، برغم أن الوقت في العالم المتواجد فيه ليس له أهمية. لم يكن يخامره شك في أن المجري سيسلمه روناء دونما شروط، فذلك هو اتفاق ثلاثتهم الذي لم يتفقوا عليه، أن يحصل هو على فتاته ويحصل المجري على قصر الحاكم المعادي وجيشه ويحكم أرضه وشعبه، وتحصل ميليندا على ما دوشت به الآذان، تحصل على شرفها، وهو عودتها نبيلة ابنة أمراء كما في الأزمنة الغابرة الأخرى. لكن أي شرف تتطلع إليه العاهرات وهن ما زلن عاهرات؟! وكيف سيتحقق شرفها الذي تتطلع إليه بهزيمة حاكم وانتصار آخر؟ لم يكن أحمد يدرك حين تساءل بين نفسه وحار في شأنها أنها كانت تعتقد أن في علو مكانة المجري، علو لمكانتها هي الأخرى، لكونهما مجريين. وأن الشرف من وجهة نظرها ليس له علاقة بعذريتها التي بددتها بعهرها. صدق بائع التحف حينما قال له بعدما سأله كيف تتحدث العربية؟ «هنا ستجد كل اللغات.. هنا ستجد ما يدهشك ويسعدك و.. يحزنك». ولو عرف أحمد ما يدور في ذهن ميليندا المجرية بشأن الشرف، لدُهش أشد الاندهاش.

خرجا من قصر المجري القديم على ظهر حصانين، حيث أبقاهما هناك بصحبة مجموعة من حراس القصر إلى أن يقوم

بحربه ويعود. ولكن أحمد لم يستطع الانتظار، فجرجر فؤاد خلفه. وكما هو غريب حبه، غريبة ثقة المجري في العودة بالظفر.

تجاوزا شوارع المدينة مرورًا ببائع التحف الذي لمحا في عينيه مسحة خوف، سيتذكرها فؤاد لاحقًا. لم يكترثا لشحوب وجهه ولا لتحذيرات عينيه وواصلا تقدمهما. اقتربا من موقع المعركة، بقعة واسعة أمامهما متلونة بالأحمر القاني، أشلاء وأجزاء متطايرة في كل مكان وجثث مثل بها رجال ليس لهم قلوب. أعداد مهولة من القتلى خلفتها تلك الحرب الضروس. ها هي أقدام حصانيهما تخوضان في الدماء، ها هما يدوسان الجثث. من المستحيل تفادي السير فوق الجثث، فلا يوجد موضع قدم ليس فيه قتيل. تأثر أحمد وسالت دموعه بغزارة دونما صوت، بكاءً صامتًا تعبيرًا عن حزنه الشديد جرّاء ما صار. نظر إلى فؤاد وتذكر كلماته: «إنها روح واحدة» بالطبع لروناء روح واحدة، لكنها روحه هو، وكيف يتسنى له أن يترك روحه سجينة؟ كان لا بد من القتال حتى ينقذها. ومع ذلك شعر بتبكيت الضمير، وأن الأرض لم تحمل على ظهرها من هو أكثر أنانية منه. حقًا إنها روح واحدة، ولا تستحق كل هذه الجثث التي تملأ هذه البقعة من الصحراء، أن تفارقها أرواحها بسببها. يا لتعاسته في تلك الآونة، حيث يتواجد في عالم الذاكرة بقلب طاهر وضمير يقظ.

انتهيا من بركة الدماء والأشلاء وتوقف أحمد بحصانه فجأة.

- لماذا توقفت؟. سأله فؤاد.
- كنت على صواب يا فؤاد.

تنهد فؤاد قبل أن يقول بهدوء:

- لا تقسو على نفسك، إنّ الحرب كانت ستقوم في كل الأحوال كما قلت.

وهو يغالب رغبته في الصمت، حيث هو السبيل إلى تعاظم الأحزان في صدره، وهو ما كان يسعى إليه، قال وهو يستدير بحصانه ناحية القتلى:

- إنني سبب مباشر في إشعال شرارة الحرب يا فؤاد وتعلم ذلك، فكف عن محاولاتك لمواساتي، ولتعلم أنه لا سبيل إلى لذلك. فأكاد أجزم أن حزني في هذا الوقت وأنا أناظر هذه الجثث، أكبر من حزني على أفراد عائلتي.

ألجم الحزن لسان أحمد بعدما قال ما قاله ولم ينطق فؤاد طول الطريق إلى أن وصلا للقصر احترامًا لصمت صديقه. وهناك تفاجأا بالحراس فوق الأسوار تشد نبالهم في استعداد وتحفز لإطلاقها ناحيتهما، وبالحراس عند البوابة العملاقة المُشرّعة يشهرون سيوفهم في وجهيهما.

- أخبروا حاكمكم أننا بالخارج. قال فؤاد، إذ أن أحمد لم يكن في مقدوره الحديث.

ولوى كبير الحراس فمه بابتسامة جانبية تنم عن سخرية وقال:

- أنتما بالذات.. لقد أمرني الحاكم بطردكما متى جئتما إلى هنا.

وتوقف كبير الحراس عن الحديث، وأمسك بعقب مسدس محشور في شريط قماشي ملفوف على خصره (لا غرو في ذلك، فكما نذكر أن المجري استخدم أسلحة قديمة وحديثة في حربه) وأكمل:

- وبقتلكما إن أطلتما الكلام.

كان الرجل جادًا، لا جدال في ذلك. ينظر إليهما شذرًا بعينين حمراوين من شدة الغضب.

امتقع وجه أحمد شاكر لكنه ظل محتفظًا بهدوء أعصابه وصمته. أما فؤاد فتذكر مسحة الخوف في عيني بائع التحف. «هل كان يعرف ما سيحدث؟» سأل نفسه.

- وروناء؟. قال أحمد فجأة مخاطبًا كبير الحراس.

- هي للحاكم. قال كبير الحراس بتشفٍ.

نظر أحمد في وجه فؤاد، فشعر الأخير كأن نار تلفح وجهه. أزاح نظره عنه إلى وجه الرجل الذي أشعل نار حبه.

- كيف للحاكم؟! فسر ما تقله يا رجل وأسرع وإلّا...

وأبقى جملته مفتوحة وهو يقبض على مقبض سيفه الذي هو

عند خصره. اضطرب كبير الحراس وتقهقر خطوتين للوراء.

- سيحتفظ بها الحاكم لنفسه. هذا كل شيء. وأسرعا بالانصراف من هنا وإلّا ستكون عاقبتكما القتل.

خرجت الحروف من فم الرجل قوية.

غلظة صوته وكثرة الحراس حوله وفوق الأسوار، جعلت فؤاد يتراجع وهو يسحب أحمد من يده. امتطيا حصانيهما وعادا من حيث أتيا.

***

إلى أين؟..

في أي سبيل يمشيا وإلى أي شطر يوليا وجهيهما؟

لا يعرفان غير بائع التحف.

بالفعل تحركا باتجاهه وحكيا له عن كل شيء، وكان ذلك بعدما أكلا وشربا. انتظر أحمد مشورته، وكان قد اتخذ قرارًا، وينتظر أن يستمع لكلماته، وإن وافقت كلماته قراره فهو خير، وإن لم توافق فسيمضي في تنفيذه. وجاءت مشورة الرجل مغايرة لما فكر فيه. وعندئذ طلب منه أحمد أن يدله على طريق أحد الحكام الآخرين، وحبذا لو كان حاكمًا قويًا مستعدًا لخوض حرب شرسة. تمعر وجه فؤاد، ألم يكتفِ بتلك الحرب؟ ألم تتعب عيناه

من رؤية الدماء؟. صمت بائع التحف، كان يفكر فيما قاله له أحمد، يبحث في مخيلته عن حاكم كما يريده، بينما شحب وجه فؤاد وذويت عيناه واختلجت شفتاه. وقبل أن ينطق، قال له أحمد وهو شارد في عينيه الذاويتين وقد راجع نفسه وعدل عن قراره:

- لا تخف يا فؤاد، لن أتسبب في حرب أخرى.

وتوقف عن الكلام وأطرق رأسه حزنًا ثم تابع وهو ينظر لبائع التحف:

- لا حاجة لي بأحد، عليّ أن أسعى لما أريده بنفسي، أسلك الطريق وحدي. وأحرص أثناء سيري، على ألّا يتأذى أحد بسببي.

تنفس فؤاد بارتياح وقد اطمأنت نفسه قبل أن يوجه حديثه إلى أحمد قائلًا له بشفقة:

- إذًا ماذا ستفعل؟

وشرد أحمد يفكر وهو يستدير ويتأمل الأفق البعيد حيث التلال ثم قال:

- سوف أذهب إلى هناك، وحدي، وأحاول بكلمات طيبة أن أقنع الحراس بأن يسمحوا لي بالحديث مع الحاكم. وإن رفضوا، فسوف أحاول بسيفي، وبكل ما أوتيت من قوة، أن أقابل حاكمهم عنوة.

- وإن قتلوك؟. سأله فؤاد.

وبشرود أجاب:

- سوف أموت، على الأقل، وأنا أقاتل من أجل غاية. كما أنني أحيا الآن بسبب نفس الغاية. فلولا روناء.. لا أعرف إلى أي مصير كان سينتهي بي الحال بعد فراق أسرتي.

عرف أحمد شاكر أن كل معاني الحياة الآن متجسدة في عودة روناء له، وأن جميع مشاعر الحب والأمل التي هي في ازدياد مستمر، ورغبته في الاستمرار في الحياة؛ أنما هي بسبب حزنه على فراق روناء وهو يعلم أين هي. فلو أنها، على سبيل المثال، فقدت حياتها، لكان من الجائز أن تخبو نار حبه لها تحت الثرى الذي يواريها. أما يقينه بأنها لا تزال حية ويده لا تطالها؛ كان ينهش لحمه ويحطم عظامه. كان حزنه على فراقها يسع الكون، كما كان حزنه عظيمًا فيما سبق على فراق أفراد عائلته. على أن حزنه على فراقهم جلب عليه اليأس، وحزنه على فراقها هي، جلب عليه الأمل. فعرف أن حتى الحزن بإمكانه مده بالطاقة للمواصلة، الأمر يتوقف على استيعابه للأحداث، ومدى إيمانه بنفسه وتمسكه بما يريده. وإيمانه بربه الذي عرف أنه في قلبه من حزنه على تلك الأرواح التي فارقت أجسادها بسبب الحرب، وقراره بأن يمضي وحده لإنقاذ روناء، كي لا يتسبب مجددًا، في قتل أحد.

اكتسى وجه بائع التحف بالسعادة، أعجبته أفكاره وغبطه عليها. لم يخطر بباله منذ أن ألفى نفسه في عالم الذاكرة أن يعيش من أجل هدف ما. واكتشف بعد كلمات أحمد، وبعد الوقت الطويل غير المعلوم الذي أمضاه في عالم الذاكرة، أن لو كان شيء يجعل حياته بلا معنى؛ فهو عدم وجود غاية يحيا من أجلها وتمده بالأمل للمواصلة. وإن كان حريصًا خلال الفترة التي عاشها في عالم الذاكرة على المواصلة، واستطاع التشبث بالحياة؛ فهي حياة مجوفة، لا معنى لها.

***

أخذ أحمد شاكر مسلكه باتجاه مقر المجري الجديد وحده، وصل إلى البوابة العملاقة، شعر كبير الحراس بأن في الأمر مكيدة. فعودته مرة أخرى بمفرده أوقعت الشك في قلبه. لكن شعوره لم يلبث أن فارقه سريعًا، لأن أحمد أخذ يتودده بكل كلمات الرجاء التي يعرفها. على أن ذلك لم يحرك في الرجل ذرة عاطفة. وعندما يأس أحمد منهم، استل سيفه من غمده، وقبل أن يدق عنق كبير الحراس، طار السيف من يده إلى نقطة بعيدة في الصحراء. زعر الجميع. وتعاظم أمر ميليندا، بصفتها تمنع وقوع البلاء في المكان الذي تتواجد فيه. فكما تشاءم الحاكم الذي قُتل من هبوط غيمة

الغربان على سطح قصره وتحليقها فوق فنائه، وعزا ذلك إلى انصراف ميليندا عنه ووقوفها إلى جانب المجري، تفاءل المجري وجيشه في المقابل بقربها منهم. وها هي ذي تثبت أسطورتها المزعومة، وتؤكد صدقها. وأنها قد برهنت على قوتها وسحرها بدفاعها عن رجال جيش حاكمها الجديد.

هرع أحمد باتجاه السيف وحمله وعاد مرة أخرى ولم يسأل نفسه لماذا يتركونه الحراس أعلى الأسوار حيًا؟ أشهر سيفه في وجه كبير الحراس الذي لم يتقهقر أو يجبن، كان متيقنًا من أن ساحرتهم ستنقذه. استفزت أحمد نظرات الرجل الماكرة وابتسامته الساخرة، وبكل قوته أعاد السيف للوراء، وبكل عزمه حركه باتجاه رأس الرجل ليشقه نصفين، وفجأة تعالت الضحكات من الحراس وكبيرهم، إذ أن سيف أحمد طار مرة ثانية. لم ييأس، جلب السيف وكرر فعلته مرة ثالثة وطار من جديد. عندئذ يأس من السيف لكنه لم يفقد الأمل. مكث طويلًا يتشبث بأي شيء، بكلمة يتملق بها للحراس، بصراخ وعويل، دونما طائل. وفجأة تذكر كلمتين كان لهما مفعول السحر، صاح بأعلى صوته قائلًا: «رانبير كابووور». فترت قوته وتهالك على الأرض بعد أن فقد القدرة على الوقوف. تستغيظه ضحكات الحراس وتغامزهم عليه. وفجأة حدث ما لم يكن متوقعًا على الإطلاق، ففي خضم الضحكات والهمزات واللمزات، وفتور همته وهوان جسده،

ظهرت روناء. عبرت البوابة العملاقة المُشرّعة بيسر تام، خرجت كما تخرج الشعرة، كما يقولون، من العجين. مرت من جانب الحراس بهدوء، لا تنظر إليهم ولا تأبه لهم. وهم كذلك، لم ينظروا لها، وكأنها لا تراهم ولا هم يرونها. كانوا لا يزالون على حالهم، يضحكون بسذاجة في وجوه بعضهم، كأن على عيونهم غِشاوة أو أنهم لا يبصرون. أطالهم سحر ميليندا أم ماذا؟!

انتصب واقفًا، ألجمت المفاجأة لسانه، فلم يستطع الكلام، وقف مشدوهًا مبهوتًا. ابتسم رغم ذلك وأراد أن يهرع ناحيتها لكن قدماه لم تسعفاه وسقط من فوره على الرمال. اقتربت منه روناء في هدوء، فاغرة الثغر في حبور لا يُضاهى، نضرة الوجه كأنها عروس في أوج زينتها، منشرحة الصدر كأنها لم تعرف الحزن في حياتها. لم يشاهدها أحمد قط جميلة متألقة هكذا من قبل. يراها تتقدم نحوه بابتسام ويزداد حجمها، كلما اقتربت، ومن خلفها يتضاءل كل شيء، الحراس بضحكاتهم والقصر على حجمه وعظمته.

تمعّن في الصورة التي شحب كل شيء فيها غير روناء بذهول، لا يصدق أنها قد عادت إليه مرة أخرى. وهو مأخوذ بعودتها الساحرة، تذكر ميليندا، فرآها تسير بجانبها، هي نفسها بطلتها البهية وملامحها الشهية ورائحتها الذكية. أزاح بصره عنها وتأمل روناء بقسماتها وهيئتها. ربحت روناء، رجحت كفتها، حتى وإن

كانت ميليندا تفوقها فتنة وحضورًا؛ فإن حبه لها توجها ملكة، رفع قدرها وحط، في المقابل، من قدر ميليندا. كانت كالسبية في نظره، أو واحدة تتوق إلى أن تكون وصيفة الملكة، وصيفة روناء. أمعن النظر في الصورة، ازدادت روناء بهاءً وضياءً وازدادت ميليندا خفوتًا وانطفاءً إلى أن خفت ضوءها وهبط بريقها واختفت.. إلى الأبد.

ونظرًا لحالته، لم تحدثه، وإنما مدت إليه يدها الصغيرة، فمد هو الآخر يده في شرود تام. كانت نظراته زائغة في مجهول. تشابكت أصابعهما وظلا متسمرين لبعض الوقت. انتبهت روناء فسحبته من يده خلفها وهو يجرجر قدميه المتعبتين. حين وصلا لحصانه، توقفا، وجعل هو يلتقط أنفاسه ويعيد ترتيب ما بعثرته المفاجأة فيه إلى أن استعاد وعيه بالعالم. ثم سألها كيف استطاعت الخروج من قبضة المجري، وكيف ولجت من البوابة دون أن يعترض طريقها أحد؟ لكنها لم تجبه، وأشارت له بيدها باتجاه القصر وهي تبتسم، فأدار رأسه ببطء إلى حيث أشارت. حطت غيمة بيضاء اللون على سطحه ثم حلقت فوق الفناء والجند. ثم طارت بعيدًا جدًا عن منطقة الصحراء. كانت أسراب من الحمام. خُيل لأحمد أن الحراس والجند والحاكم قد تأكدوا من صدق أسطورة ميليندا المجرية. فلو كانت تلك الأسراب غربانًا لذهبت أسطورتها أدراج الرياح. وفجأة حدث ما هو غير متوقع في تلك

الآونة على الإطلاق. تهاوت أحجار القصر تتساقط على رؤوس من فيه. تناهى لأسماعهما صراخ الجند وصخبهم. وفي وقت قصير جدًا، كان القصر عبارة عن أطلال. ثم حدثت المفاجأة الأعظم، اختفى كل شيء. لم تعد هناك بوابة أو أسوار أو قصر!

امتطى أحمد صهوة حصانه ومد لها يده يساعدها على الصعود خلفه وانطلقا، عبرا التلة صعودًا ثم هبوطًا، وقطعا أميالًا في الصحراء، وعند منطقة يعرفها أحمد تمام المعرفة، وهي مكان المعركة. لم يجد بركة الدماء أو الجثث. ما الذي يحدث؟ لم يستفق قط من مفاجأة سهولة عودة روناء، ولا من صاعقة انهيار القصر واختفائه، لتضربه صاعقة أخرى. لم يعلق. لكز الحصان بقوة، فانطلق يعدو خببًا.

بعد دخولهما المدينة بعدة أمتار، رأت روناء شابًا يقف أمام خان للتحف ويشير بيديه للأعلى على شكل تقاطع وهو يبتسم. وعنده توقف الحصان وترجل أحمد عنه ثم نظر إليها بابتسامة وديعة ومد يديه يساعدها على النزول. ومن خلف الطاولة ظهر رجل وقور متزن المشية. أمسك هذا الرجل بحصير وبسطه خارج الخان، على أرض عالم الذاكرة الحجرية. وجلسوا جميعًا عليه والفضول يطل من عيني فؤاد، لكن بائع التحف لم يكن يظهر اهتمامًا بما سيقصه أحمد أو روناء، كأنه كان على علم مسبق بما حدث.

في البداية، تحدثت روناء وقالت وهي تنظر إلى أحمد:

بعدما قفزت أنت يا أحمد من على الدرج الحجري، وارتكزت على يديك، انتظرتك تقف وتستدير نحوي لتتلقفني. لكنك مكثت هنيهة على الأرض ثم انتصبت واقفًا واستدرت حول نفسك ونظرت للدرج بنظرات أقل من العادية، ثم استدرت وبدأت في التحرك. ظننتك تمزح، ولم أتوانَ وقفزت خلفك. مر وقت طويل وعصيب هناك، لا يمكنني وصفه، وأظنك قد عشته مثلي. وجدتني بعدها أنساق مع أناس آخرين في انسيابية روتينية عمياء، إلى أن دلفنا إلى هذا العالم. وما إن وطأت قدماي أرضه حتى تذكرت كل شيء وعرفت لماذا لم تساعدني على القفز. كنت قد لمحتك وميزتك من بين الجموع. لكنهم لم يسمحوا لي بإدراكك، إذ أنهم التفوا حولي في حلقة مغلقة وجعلوا يتغامزون ويضحكون. خشيت على نفسي منهم، كانوا رجالًا مدججين بالسلاح، أخذت أصرخ وأستغيث دون طائل. وبعدها وجدتني في قصر وحاكم يأمرني أن أرقص. كان الشيء الذي يأمرني به مفجعًا بالنسبة لي أكثر من كوني في عالم عجيب، وبرغم ذلك كان خوفي من أن أفقدك عظيمًا.

توقفت روناء عن الحديث، تلتقط أنفاسها. بينما تسارعت أنفاس المستمعين إليها وازدادت خفقات قلوبهم وتحمسوا للمزيد.

تابعت:

ألهمني الله الثبات في ذلك الوقت، ووجدتني أقول له برباطة جأش، أنني لا أجيد الرقص، ولكنني أجيد شيئًا آخر، الغناء. ثم غنيت له في حشد عظيم من الناس. ووقتها سمعت أحدهم يقول: «رانبير كابور» (ابتسمت) والتفتُ ناحية مصدر الصوت فوقع بصري عليك يا أحمد. ثم البقية معروفة.

كان قد خمن أحمد وفؤاد وبائع التحف ما حدث لروناء من قبل وكان تخمينهم في محله.

نظر بائع التحف وفؤاد إلى أحمد ليحكي لهما عما صار معه وكيف عاد بروناء. أما روناء فكأنها هي الأخرى كانت على علم مسبق بما حدث وبما سيقصه أحمد، أصغت بنصف اهتمام. ولاحظ أحمد ذلك وعزاه إلى ما مرت به من متاعب.

قال أحمد ضائع النظرات كأنه يتفحص لوحة فنية:

وصلت للقصر، حاولت بالطرق السلمية أن أدخل لمقابلة الحاكم ورفض الحراس رفضًا قاطعًا، فاضطررت حيال ذلك الرفض أن أدخل بالقوة. ولم تفلح جل محاولاتي للدخول، حيث حدثت أشياء غريبة، سحر ما طير السيف من يدي عدة مرات. وفي كل مرة كان تصميمي على الدخول أكبر. يأست من استخدام السيف بعد المرة الثالثة، لكنني لم أيأس من عودة روناء. لكن ما عساي أن أفعل؟ ظللت هناك ولم أبرح مكاني متشبثًا بأمل رؤيتها مرة ثانية. ثم رفعت عقيرتي صارخًا «رانبير كابووووور» ثم فعلت

الكلمتان مفعولهما الجبار.. ورأيت روناء.

حالما صمت أحمد، أسرع فؤاد يسأله:

- وماذا تعني هاتان الكلمتان؟

وابتسمت روناء وأطرقت للأرض خجلًا تحت أنظار أحمد، بينما اتسعت عينا فؤاد الذي كان يُصغي بكل حواسه لما سيتفوه به أحمد. أما بائع التحف، فلم يكن مستمتعًا بالحكايا لأنه هو نفسه، حكاية.

- فلنسمع جميعًا قصة الكلمتين من صاحبة القصة. قال أحمد.

واحمرا خداها بفعل الخجل حتى صارا كجذوة ملتهبة، تنهدت وهي تنظر في عيني أحمد بعينيها السوداوين فازدادت خجلًا. لكنها استطاعت بعد ذلك بفضل تعمد النظر إلى أي شيء عدا عيونه، أن تصف المشهد كأنها تعايشه، فجعلتهم جميعًا كأنهم يعايشونه أيضًا. قالت:

عرفت فيما بعد أن اسمه كريم، وعرفت عنه أكثر من ذلك، وندمت على ما بدر مني في حقه، لكنه، حين فعل ما فعله، كان يستحقه (ابتسمت). هو متوسط الطول، نحيل قليلًا، لون عينيه العسليتين، وشاربه ولحيته الأشقرين، وشعر رأسه الغزير، ذاك البني المتموج. كل ذلك أضفوا عليه وسامة وجاذبية لا تقاوم. ولكنني قاومت وربحت، حينها، الرهان. عرفت مما عرفت بعدها

أنه كان رهانًا مع زهراء، ابنة عم أحمد وصديقتي المقربة. رهانًا اقترحه كريم وقبلته زهراء. قبلته لتجعله يعرف جيدًا من هي روناء. لم تكن قط تقصد مضايقتي، بل على العكس من ذلك تمامًا، جاء ذلك الرهان في صالحي، إذ عرفت عن طريقه من هو أحمد شاكر، الذي دائمًا ما كان يأتي ذكر اسمه على لسان ابنة عمه زهراء.

في البداية أخذت زهراء تتكلم عنه بطريقة غير مباشرة، تحكي تفاصيل أحداث لم تكن تثيرني حينها وتعرف ذلك، علمت منها بعدها أنها كانت تهيئني لما سوف يفعله كريم. دعوني أكمل لكم ما حدث بعد ذلك. كان الهواء يداعب شعري المسترسل على ظهري بقوة، يتطاير للأمام فيغطي وجهي وعيناي ويحجب عني الرؤية، وزهراء تجلس إلى جانبي وهي منتظرة ما سوف يفعله كريم الذي كان قادمًا نحوي مع اثنين من أصدقائه. كنا نجلس على أحد المقاعد في فناء الجامعة، الهواء شديد، شعري يغطي عيني، مللت من إرجاعه خلف إذنيّ، وفجأة سمعت أحدهم يقول: «طيب لابسة النضارة ليه؟ ما شعرك كفاية إنه ميخليش عيونك تشوف الشمس». صمتت روناء، لأنها أدركت أن عليها التحدث بالفصحى كي يفهم أصدقاء أحمد، فقالت: قال كريم فيما معناه: «لماذا ترتدي النظارة؟ إنّ شعرك كفيل بأن يحجب عن عينيكِ أشعة الشمس». وعقب صمته جاهدتُ

وأبعدتُ خصلات شعري عن وجهي ونظرت له. كان يشبه ممثلًا هنديًا اسمه «رانبير كابور» أو هكذا رأيته. فلم أستطع أن أمسك الكلمات التي انزلقت من على طرف لساني، ووجدتني أقول له: «خليك في حالك، فاكر نفسك رانبير كابور بجد؟!» وما أتممت جملتي وانفجر كل الحضور يضحكون ملء صدورهم، بينما استحى هو ولاحظت في عينيه انكسارًا على إثر الضحكات، لا حد له. توقفت عن الكلام لبرهة (لاحظت روناء أنها تحدثت بالعامية ولم يعلقا، فعرفت أن كلماتها كانت مفهومة). فأكملت: وانتهى الرهان سريعًا لصالحي، إذ أن كريم وصل به الحياء حد أنه غادر الجامعة من دون أن يحضر محاضرة واحدة، وفي المقابل شعرت بالندم والذنب معًا. وذلك بعدما أخبرتني زهراء بكل شيء. ولكن قبل أن يغادر كريم الجامعة، أوقفه أحمد وتحدث إليه، كانا صديقين منذ الطفولة. وعرفت ذلك لاحقًا من زهراء. أحمد لم يحضر المشهد من بدايته، عندها ظن أنني كنت أستخف دمي على صديقه. هرع تجاهي بعدما توقف مع كريم لوقت قصير قبل أن يغادر الأخير مبنى الجامعة. حدثني بمنتهى الذوق والأدب، لكن بطريقة فظة، لا أعرف كيف تمكن من فعل ذلك. وعلى الرغم من فظاظة كلماته، فإنها قد راقتني. أعجبني موقفه، مهاجمته لي كانت مفاجأة مبهرة، ظللت منبهرة منها لوقت طويل، ولا زلت منبهرة. لم أكن أتخيل أن يتحدث معي أحدهم

بمثل تلك الطريقة التي تحدث بها إليّ. لأنه لم يحدث ذلك من قبل. ومن بعد كلمتي تلك، وهو عُرف بيننا «برانبير كابور» ولم يعد يستحي منها، وصرنا، من بعدها، أصدقاءً.

هز فؤاد رأسه وقد أمحى الفضول الذي كان يطل من عينيه. أما بائع التحف فكان منصرفًا إلى التفكير في أمر آخر، وهو غاية يحيا لأجلها. فلقد انبهر مما فعله أحمد من أجل روناء. غبطه على إصراره في الوصول إلى غاياته، ثم وجد نفسه يغبطه على كونه يعرف له غاية تحثه على المواصلة.

وفي الوقت الذي كان يبحث فيه بائع التحف عما يجعل لحياته معنى، كان فؤاد نورالدين مغتمًا أكثر من أي وقت مضى. كان ينظر إلى أحمد وروناء نظرات تكاد تكون حسدًا. في ذلك الوقت تحديدًا، هاجمته ذكرياته بشراسة، بكى بكاءً شديدًا عند ذلك لعلمه بأنه حتى وإن خرج من العالمين الغريبين، لن يرى من له معهم ذكريات. فلا بد وأن المنون قد دار عليهم وأفناهم. أهمل التفكير في ذاته وعذاباته وتطرق إلى التفكير في عذاباتهم هم. لأول مرة يكتشف الأنانية في نفسه، وهو الذي كان لا يتأخر عن أن يقدم روحه فداء للوطن، يهلك جسده مقابل جعل أجساد أخرى تستريح. شعر أنه أنانيًا لأن كل ما يشغله هو آلامه وحنينه إلى ذويه، ولم يخطر بباله قط؛ أنهم لا بد وأن يكونوا قد تألموا لفراقه ربما أكثر منه. فإن كان هو يعرف أين هم، وماذا جرى.

فهم لم يعرفوا، وذلك فيما مضى، أين اختفى ولماذا.

وأراحه أحمد من التفكير المضني عندما ربت على كتفه وأخبره بأنه سوف يعود من حيث أتى هو وروناء، وأنه يطلب منه هو الآخر أن يعود معهما، نظر إليه مليًا ثم أومأ له بالإيجاب.

وبعد ذلك نظر أحمد إلى بائع التحف وقد تذكر أن له اسم فقال له:

- عرفت أن اسمك حسين ابن الفارض.

ابتسم بائع التحف وقال:

- ولي اسم آخر.. أبقراط.

عندئذ سرعان ما انشغل فؤاد بأمر بائع التحف وأهمل أمره هو، فعل ذلك عمدًا. حتى أنه قال يخاطب بائع التحف:

- وما حكايتك؟

لم يكن بائع التحف يكترث بتفاصيل ما يدور في عالم الذاكرة، أو ما صار مع أحمد وروناء أو حتى فؤاد، لأنه كان مثل فؤاد وأكثر؛ يعاني معاناة فظيعة. فإن كان فؤاد جاء إلى هنا مصادفة أثناء فراره من الإنجليز منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ فهو قد وجد نفسه هنا في ظروف غامضة، ولا يعلم حتى الوقت الذي هو جالس فيه بصحبتهم، ما الذي حدث. لكنه يعرف جيدًا، كما يعرف أنه حي يتنفس في أرض الذاكرة؛ أنه كان يحيا في زمان بعيد، إبان عصور الخلافة الإسلامية وعظمتها. وتحديدًا في أوائل

عصر العثمانيين، لكنه لا يعرف على أي أرض كان يعيش. ولم يكترث لذلك، حيث قال لنفسه: لا يهم في أي أرض كنت؛ طالما كنت تحت لواء الدولة الإسلامية. ومنذ ألف نفسه في الذاكرة، وهو يدرك تمامًا أنه بات وحيدًا، بلا عائلة أو معارف أو أصدقاء، أو.. غايات. وإن لم يعرف الأخيرة إلّا بعدما عرف أحمد وقصته؛ فإنها من أكثر الأشياء التي أشعرته بالوحدة. فقد فطن إلى أنه لا أمل يرافقه ولا شيء ينتظره. ومن هنا تضاعف عذابه، حيث أدرك مدى خوائه، عرف حجم فراغ قلبه من الأمنيات وعقله من التفكير في تلك الأمنيات، وروحه من الحياة من أجل تلك الأمنيات. فإنها حياة للجسد فقط، وكل شيء دونها ميت.

انتظر ثلاثتهم أن يجيب بائع التحف عن سؤال فؤاد بتلهف، إنما طال صمته وطلت من عينيه الدموع. أشفقوا عليه وأسرعت روناء التي كانت في ذلك الوقت أكثر منهما شفقة على الرجل تغير دفة الحديث، فقالت وهي تبتسم:

- ولماذا سُميت أبقراط؟

ضحك بائع التحف حتى بانت نواجزه، ثم قال:

- هذا اسم عُرفت به لكوني أبدي آرائي دائمًا وأبدًا فيما أعرف وفيما لا أعرف، قالوا عني فيلسوف، ثم أطلقوا عليّ اسم أبقراط، تشبيهًا بالطبيب الفيلسوف اليوناني.. أبقراط.

وبعد هنيهة من الصمت، وكان ذلك بعد تشبع فضولهم

من تبادل الحكايا، انتصب أحمد واقفًا، وودع بائع التحف. حيث صمم الأخير على ألّا يذهب معهم، ولم تقنعه محاولات أحمد وروناء، بينما لم يتحدث معه فؤاد في الأمر. وقبل أن يذهبوا باتجاه ما يسمونه بعالم الشفاء، أوقفهم بائع التحف. وقال لهم:

- كيف ستعودون؟ إنكم ستمرون حتمًا على العالم الذي تُفقد فيه الذاكرة. وسيعزب عن بالكم هناك مَن أنتم وماذا تريدون.

- وما العمل؟

قال أحمد وهو مأخوذ بكونهم ربما لا يستطيعون العودة.

ولم يفكر بائع التحف طويلًا، كان يعلم ما يجب عليهم فعله. اختفى في الخان ثم خرج سريعًا وفي يده ثلاث ورقات وقلم. أعطى لكل واحد منهم ورقة، ثم مد يده بالقلم إلى أحمد أولًا، وقال له:

- اكتب عن نفسك، ثم اكتب عنهما، ثم اكتب أنكما في أي أرض وما هي خواصها، ثم اكتب أن عليك الخروج بصحبتهم من خلال الدرج الحجري، ثم حدد مكان الدرج.

أفتر ثغرهم عن ابتسامات تنم عن رضى وامتنان، لم يخطئوا أولئك الذين شبهوه بالفلاسفة. فعل أحمد مثلما قال، ثم مرر القلم إلى روناء لتفعل مثله ثم مررته هي إلى فؤاد.

وقبل أن يتحركوا، قال بائع التحف يخاطب أحمد فقط:

- كما قلت لك، هناك نوعان من الذاكرة: تقريرية ومهارية،

وإنّ القراءة هي ضمن الذاكرة المهارية، فإن تذكرت القراءة هناك، وإنه لمن الصعب ذلك، فاعلم أن الله هو من جعلك تتذكرها. وأنه هو من جاء بك من عالمك إلى هذين العالمين لسبب لا أعلمه.. ربما تعلمه أنت. لكنني واثق أن في الأمر حكمة ما.

وهز أحمد رأسه متفهمًا. ولم يتوانوا وأخذوا مسلكهم باتجاه عالم الشفاء. كل يحمل ورقته في يده. وعلى بعد أمتار منهم، كان يسير خلفهم باتجاه عالم الشفاء رجل يبذل جهدًا عظيمًا كي يجعلهم لا يرونه.

***

ساروا في شوارع المدينة الصاخبة وهم يرمقون كل شيء حولهم بتأمل كأنهم يودعونه، وما إن خرجوا منها وصاروا في الصحراء حتى توقفوا ليلقوا عليها نظرة أخيرة. عندها توارى الرجل الذي كان يتبعهم عن أنظارهم خلف آخرين آخذين طريقهم نحو عالم الشفاء لتبرأ أمراضهم المؤلمة. تابعوا سيرهم في الصحراء، بينما ظل الرجل مختفيًا وسط الآملين مثله في الشفاء. وبعد عناء وتجشم مشقة عظيمة، وصلوا إلى الجبال الشاهقة، وتوغلوا داخل فلج بين جبلين إلى أن ظهرت فوهة واسعة، ولجوا منها إلى نفق قصير ثم حطت أقدامهم المتعبة على الدرجات الحجرية، وبعزيمة من

يأمل في الشفاء، وإرادة مدمن مخدرات يعالج نفسه بنفسه، هموا بصعود الدرجات واحد بعد الآخر.

ها هم يصلون بعد فترة طويلة رزحوا خلالها تحت وطأة شقاء السير على الدرجات الصلبة، إلى قمة الدرج. ارتقوا إلى أعلى ليدوسوا بأقدامهم ما تسبب لهم في الألم. ثم عنّ لهم نفق قصير آخر ينتهي بفوهة أخرى. بعد تجاوز النفق والفوهة، ومرورهم عبر الجبال، غاصت أقدامهم في رمال الصحراء الباردة، ثم قطعوا أميالًا نحو المدينة التي بدت لهم من بعيد.. خربة.

وقبل أن يصلوا للمدينة الخربة، وقبل أن تطأ أقدامهم أرضها، أوقع أحدهم متعمدًا ورقته التعريفية التي كان من المفترض أن يتعرف من خلالها على نفسه وماذا يريد. شاهده الرجل الذي يتبعهم، وكان هو نفسه من اقترح عليهم أن يكتبوا أوراقًا، كان الرجل هو.. بائع التحف. التقطها بائع التحف وهز رأسه متفهمًا موقفه، إذ أنه هو نفسه لم يكتب لذاته ورقة تعريفية. فلقد انتوى الهروب من ذكرياته، والفرار من أفكاره حول الغاية التي بإمكانها جعل الحياة لها معنى، بأن عزم على ألّا يفارق أرض عالم الشفاء. وظن أنه كان أحمق حينما اختلجت في صدره أفكار حول الحياة ومعانيها. قرأ الكلمات في الورقة، وكانت ورقة فؤاد نور الدين، ثم مزقها ونثرها في الهواء، لتطير هوية صاحبها وتتفرق أجزاؤه.

وقبل أن تدوس أقدامهم الأرض التي تُفقد فيها الذاكرة، أفلت فؤاد يده من يد أحمد ليتركه وروناء متشابكي الأيدي. وقبل أن يتدارك أحمد ما حدث، لامست أقدامه أرض عالم النسيان. وخلال برهة قصيرة جدًا، كان قد نسي الفتى (أحمد) تمامًا، ودفعة واحدة، كل شيء. وأُفلتت من عقله جميع المعلومات، لكن بقيت أصابعه محتضنة أصابع الفتاة التي بجانبه. ووجدها تنظر إليه بذهول وهي تبتسم.

***

حينما دلفوا إلى أرض النسيان، ظلت روناء تنظر في ورقتها التعريفية وتقرأ وتردد بخفوت «أنا روناء، أنا روناء، أنا روناء. وهذا الذي بجانبي يهمني أمره، هذا الذي بجانبي يهمني أمره» وفرحت لكونها تمكنت من القراءة. ولذلك تركت أصابعها محتضنة أصابعه. وظل هو لفترة قصيرة جدًا يحملق فيها بسذاجة وبلاهة إلى أن نظر في الورقة. وبعدها نظر إلى من اسمه مذكور فيها، ولم يجده. فعرف أنه فقده إلى الأبد، إلّا في الورقة. لم يشعر تجاهه بأي شيء على الإطلاق، وبالرغم من معرفته عن طريق ما هو مكتوب في الورقة بأنهما من المفترض أصدقاء، لم يهتم. وذلك ما يميز عالم النسيان ويجعل الناس تولي وجوهها شطره.

حدد أحمد مكان الدرج وقبض بيديه على يد روناء وهو ينظر في الورقة كل حين وآخر. واستمرا في السير ناحيته وهما يناظران المدينة التي أطبق الموت عليها بجناحيه العظيمين. كانت خاوية على عروشها، خالية من الروح والطعم والرائحة. ذات لون رمادي شاحب.

وأخيرًا ظهر الدرج من بعيد، هرعا نحوه قابضين على الورقتين. لامست روناء الدرج بيديها وقبضت بهما على أول درجاته، مالأها أحمد على الصعود. وبعدما استوت عليه وتمكنت، بكت.. أجهشت تبكي بحرقة، وبالرغم من البكاء والدموع، اكتست سيمياؤها بعلائم سعادة منقطعة النظير. مدت يديها إلى أحمد الذي تشبث بهما بقوة تضاهي في قوتها، مدى شعوره بالأمل في عودتها له مرة أخرى هناك، أمام القصر الذي اتخذه المجري مقرًا له. هكذا شعرت هي. أما هو فلم يشعر بشيء، حيث كانت قدماه لا تزالان على أرض النسيان. وأخيرًا، وبعد ضياع، وجد ذاته. فما عادت قدماه تمسان أرض المدينة الخربة.

وبعدما استوى هو الآخر بجسده كله على الدرج، ألقى نظرة على المدينة الميتة وفعلت روناء مثله.. وكانت آخر نظرة.

انطلقا بكل قوتهما يصعدان في نشوة لا تضارعها أي نشوة عرفاها من قبل، أمسك أحمد يدها وهرول مسرعًا، كانت قدماهما لا تؤلمهما في البداية، ثم بدءا يشعران بالألم شيئًا فشيئًا، وكلما

تجاوزا الدرجات مبتعدين عن الأرض الخربة، ازداد الألم. وكما حدث منذ أكثر من ثلاثة أشهر، حينما قادهما الفضول إلى هنا، حملها أحمد على ذراعيه لتوقفها عن الصعود بسبب الإرهاق الشديد الذي شعرت به.

***

كأنهما لم يلبثا إلّا ساعة من نهار. فحينما خرجا من الممرات والصخور، وتنفسا هواء أكتوبر المنعش في الصحراء الحقيقية المشمسة، صعقهما الحصير المنبسط على رمال الصحراء الصفراء. ومض في ذهنهما بسرعة البرق المشهد الذي كان، فالحصير منبسط وعليه حاجيات هي لوازم رحلة ما. منتجات غذائية، قناني ماء، وأدوات.. تسلق!

أسدل أحمد شاكر رأسه للأرض ثم تذكرها، خشي أن يرفع رأسه فيقع نظره عليها، ولكنه فعل. رفع رأسه ببطء ورآها، سيارة تظهر بعيدًا عن الممرات والصخور، ولكنها ليست سيارة والده. جال ببصره حوله متوقعًا اصطدامه بأحد منهما. وكان توقعه في محله ورآهما.. معًا. كريم وزهراء، الذان لم يلبثا لحظات عقب رؤيتهما لهما وهرعا باتجاههما.

لبثت زهراء دقائق أخذت خلالها تعيد روناء إلى الواقع من إغماءتها، إذ سقطت الأخيرة فاقدة للوعي فور رؤيتها وجه كريم وزهراء، وكانت قبل رؤيتهما، وهي تنظر إلى الحصير والحاجيات، تتهيأ لرؤيتهما بتلك الإغماءة. بينما لزم أحمد الصمت التام، مكتفيًا بنظرات زائغة تجاه كريم وزهراء. وما فاجأة أكثر من تواجدهما هنا مع الحاجيات؛ أنهما لم يقابلوهما بحفاوة كما كان ينتظر من أي أحد يعرفه ويعرف قصة غيابه.

وكأنهما حقًا لم يلبثا إلّا ساعة من نهار، إذ كان الوقت ظهيرة يوم ما، في نفس مكان الرحلة إياها. وكاد أحمد أن يجن، والدرج الحجري؟ والعالمين؟ وفؤاد، وبائع التحف؟ وميليندا؟ والمجري؟ والحرب؟ وانهيار القصر؟ و... فقد وعيه هو الآخر.

***

طالت إغماءة أحمد شاكر، وحينما ثاب إلى رشده لم يعرف أين هو، حيث لأول مرة يتواجد في غرفة كريم أمين في مدينة العاشر، وقد كانت زياراته له سابقًا تتم في صحن الشقة. لم يستعد إحساسه بالواقع بعد، مكث لدقائق على باب عالم الواقع قبل أن يطرقه، ظل ذهنه محتفظًا بذكريات العالمين الغريبين، ثم تراءت له صور وأحداث كثيرة، مشاهد ظهر فيها والده وهو يعنفه، يأمره بفعل

شيء وينهاه عن آخر، وأخرى يقبله ويبتسم له فيها. انطبعت تلك الصورة الأخيرة له في ذاكرته، فكلما تذكره وجده يبتسم له في حنان. ومشاهد له مع والدته دنيا، رآها بكامل هيئتها، كانت نحيفة ومتوسطة الطول، أشفق عليها وشعر أنه يحبها أكثر من أي وقت مضى. ظلت تنظر إليه بحب، وظل هو يحملق في عينيها الزرقاوين كسماء صافية. وفجأة اختفت صورتها وحلت مكانها روناء بعينيها السوداوين. فرك عينيه فتبخرت روناء وحلت محلها شقيقته. أمعن النظر فإذ بها متجسدة أمامه كما هي، بعينيها السوداوين هي الأخرى والمليئين بالحزن على صغرها. وهي التي لم تعرف الحزن قط، لكن الحزن يعرف الجميع. لمى، شقيقته الصغرى الفاتنة، التي رحم الله كل من كان سيعرفها من النظر في عينيها الحزينتين. شحبت صورتها وصغرت وهي تبتعد حتى غاصت في الأفق البعيد. وعلى مرمى البصر، بعيدًا جدًا، رأى فؤاد، صديق الرحلة الخيالية، والتي أوهمته زهراء وكريم أنها لم تحدث قط. وفجأة ظهر كريم قريبًا جدًا منه، في محيطه وعالمه. كانت صورته مشوشة في البداية، ثم أخذت توضح وتوضح إلى أن راقت تمامًا. كان يبتسم، يطل الحب من عينيه العسليتين باستحياء أقرب إلى الخوف. ظن أحمد أنه يهذي، وشعر على إثر حرارة جسمه المرتفعة أنه محموم. لكن الغرفة المكيفة هي التي أوهمته بذلك. حملق في السقف والجدران، ولم يتعرف على

المكان. بينما تعرف على صديقه.

- حمد الله على السلامة. قال كريم بنبرة دافئة وهو يبتسم.

وانتظر أحمد شاكر لحظات قبل أن يقول باستغراب:

- الله يسلمك، أنا فين يا كريم؟
- في أوضتي يا أبو حميد.
- العاشر؟! قال أحمد متسائلًا مندهشًا.
- أيوة. رد كريم.

اعتدل أحمد وقام بترتيب ملابسه، ثم توقف لحظات يحملق في الجدار الذي أمامه مثبتًا عينيه على نقطة واحدة. ثم عاد يتأمل ملابسه، هي نفسها لم تتبدل. صحيح أنه لم يبدلها قط خلال مغامرته وروناء، لكنها كانت كما هي على نظافتها. وهو الذي مر بظروف قاسية هناك.

- النهاردة إيه يا كريم؟
- السبت. قال كريم.

هز رأسه وهو مغمض العينين ثم قال:

- أقصد كام؟
- آاه.. النهاردة ٢٠ أكتوبر.

عرف أحمد أنها لم تكن ساعة من نهار، فها هو التاريخ يقول إنهما قد مكثا هناك أكثر من ثلاثة أشهر.

- سنة كام؟

تعجب كريم من سؤاله الأخير، ثم قال بعد أن زم شفتيه:

- سنة ٢٠١٨، ليه يا أحمد؟

وتنهد أحمد ولزم الصمت. بينما تحدث كريم كثيرًا، وسأله أسئلة لا حصر لها. ولكنه لم يجب على واحد منها، لأنه لم يفهم شيئًا مما قاله. وبعد دقائق قال بصوت متهدج:

- أنا عايز أروح شقتي.. أنا تعبان أوي. قال الجملة الأخيرة وهو يضع يديه على رأسه كأنما يمنع عقله من أن يجن.

- تعال بس نفطر، وبعدين نروح المكان إللي إنت عايزه. قال كريم.

فقال أحمد بعصبية:

- قبل أي حاجة، قولي إنت عرفت ميعاد خروجنا إزاي؟

بدا كريم متوجسًا وهو يقول بصوت متهدج:

- أاا، يبقى اسأل بنت عمك.

- أنا بسألك إنت. صاح أحمد بأعلى صوته.

تمالك كريم نفسه لكي تنجح خطة زهراء العجيبة.

- اسأل بنت عمك يا أحمد.

***

على الجانب الآخر كانت عائلة روناء متحلقة حولها،

محتفين بها وبعودتها مرة أخرى. بينما تجلس زهراء هادئة بعد أن أوصلتها، تنتظر أن ينفض الجميع عنها لتختلي بها وتسألها عن كل شيء، بداية من تلك الصرخة التي جعلتهم ينتفضون ويتوزعون بحثًا عنها. إنها تجمجم في صدرها الكثير، وإن صبرها في ذلك الوقت كان يلزمه صبرًا لكي لا تنفجر من زخم الكلمات.
ها هنا تطلع إليها محمد السروجي بقلبه، وَد لو يعتذر عن سوء ظنونه. ترك مكانه قرب شقيقته التي كانت تنظر لهم ببلاهة وتكتفي بإيماءات خفيفة مع ابتسامة خجلى كأنهم غرباء عنها، وخطى باتجاهها ولكنه لم يصلها قط، ربما سيتمكن من ذلك في وقت آخر. لم يصلها لأنه راجع نفسه في الطريق. هل مشاعره تجاهها تتغير بكونها متهمة في عينيه أم لا؟ كيف يتحكم عقله في إحساساته؟ عنّ له بعد تفكير، أن يؤجل حكمه الأخير عليها والذي ستترتب عليه قراراته المصيرية، ريثما تتضح الأمور. صحيح أن روناء عادت؛ لكن لا يزال كل شيء مجهولًا وطي الكتمان. أما والده ووالدتها لم يفكرا وهما يشاهدان وجه ابنتهما في زهراء وإمكانية تورطها في اختفائها قط.

وفي أوج شرودها فيما يجهلونه، وعينيها تائهتين في لا شيء، تطلعت روناء إلى زهراء بنظرات شوق جم وهزت رأسها مع ابتسامة حانية. أدار الثلاثة رؤوسهم باتجاه زهراء وناظروها باستغراب باد، قامت زهراء بدورها وانكبت عند صديقتها وقبلتها

من جبينها وهي مدمعة العينين. ثم أمسكت كفيها الرقيقين بيديها وأخذت تبكي إلى أن أبكت روناء، وبكى على إثر ذلك الجميع. أخذتهم الرأفة بها وفي خلال لحظات، وعقب دموعها التي سالت كأمطار موسمية، أخذت بطاقة عفو نهائي ممن يضعونها موضع اتهام. حتى وإن كانت لها يد فيما صار؛ فها هي ذي تبدي ندمها وتطلب الغفران، وقد حصلت عليه.

***

ومرت الأيام، وتعافى أحمد وروناء من صدمة عودتهما للواقع، واستعادا وعيهما الكامل بما يدور حولهما. وفي منتصف شهر نوفمبر عادا مرة أخرى للجامعة لاستكمال دراستهما وإدراك ما فاتهما. وفي تلك الأثناء ظل أحمد مقيمًا عند كريم إلى حين تحسن الأمور، فقد علم من كريم أن عمه قد باع جميع ممتلكاته. لم يكن كريم يتوقع أن يسكت صديقه عن الأمر، خُيل إليه أنه سوف يثور ويتجه رأسًا إلى عمه، إلّا أنه استقبل كلماته بهدوء تام وهو يهز رأسه متفهمًا كأنه كان ينتظر منه ذلك. فمنذ ذلك الحين الذي لطمه فيه عمه على خده في منزلهم ووسط أبنائه، وهو يتوقع منه أي شيء. لم يعلم بالتحديد ما الذي أثار غضبه عليه في ذلك اليوم. أيستحق اصطحابه لابنة عمه إلى أحد «الكافيهات» المعروفة في

مدينة الزقازيق بعد انتهاء يومهما الجامعي، أن يضربه على وجهه كالآثم وأمام أبنائه؟! عزا أحمد غضبه لخروجهما بمفردهما، لكن عمه يعلم حق العلم أنه يرافقها على أنها ابنة عمه فقط. إذًا لماذا عنفه هكذا؟! سيظل أحمد يستغرب تصرف عمه معه إلى أن يكتشف أنها كانت مكيدة من ابن عمه معاذ.

معاذ، الذي جعله حقده على ابن عمه بسبب علاقته بروناء، يكذب على والده ويوهمه بأن أحمد سيئ الخلق ويستدرج زهراء لغايات أسوأ يضمرها في نفسه. ولم يتوانَ والده وفعل لابنه ما كان يرجوه، أدلف لابن أخيه في القول، وعندما أراد أحمد أن يفهم، علا صوته بدون قصد على عمه فطالته لطمة على خده الأسيل. وخرج على إثر ذلك مستشاطًا من الغضب، تعصف بعقله ظنونًا أكثرها خاطئة وينتوي أن يقوم بأفعال أكثرها أيضًا.. خاطئة. وعليه حرّم على ذاته التواجد في منزل عمه، وحرّم على قلبه الشفقة عليه.

ظل كريم مستغربًا هدوء أحمد وعزوفه عن أن يقوم برد فعل طبيعي لما حدث، كأن يذهب على سبيل المثال إلى عمه ويسأله أن يُرجع له حقه الذي غمطه إياه، أو على الأقل يبدي اهتمامًا ويستفسر منه لماذا قام ببيع ممتلكاته بتلك السرعة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. ظل مستغربًا إلى أن عرف أن مَن يقيم

معه في غرفته الآن؛ إنما هو شخص آخر، أحمد مختلف تمامًا عن الذي كان. صار أكثر تسامحًا، غفرانًا، هدوءً، صمتًا.. وزهدًا. وعليه تقّبل بكل تعقل وسعادة، ردود أفعاله.

وفيما بعد كشف معاذ عن أنيابه وعُرفت أيضًا مشاعره تجاه ابن عمه، فإنه لم يكن سوي النفس طيب العريكة كما كان يظنه أغلب الناس. فقد جعله حبه لروناء يظهر معدنه الحقيقي، أو أن الحقد هو من ألجأه إلى ذلك، فإن الحب بريء من كل الآثام التي تُرتكب باسمه. فماذا فعل؟

فور علمه بعودة ابن عمه وروناء، طار إلى محمود السروجي والد روناء الذي كان لا يزال في عمله، وقصد ذلك؛ أن يُحدّثه بعيدًا عن مرأى روناء ومسمعها. أخذ يغلظ قلبه على ابن عمه بأن نصحه بالإسراع وإخبار الشرطة أن المتهم في اختطاف ابنته قد ظهر. فرفض محمود السروجي أن يصغى لنصائحه الفاسدة. فحاول إقناعه بأن أخبره أن ابن عمه خطر على ابنته، فليس معنى أنه قد أرجعها أنها باتت في مأمن من أخلاقه الفاسدة. لا يعلم أحد من أين أتى بهاتين الكلمتين «أخلاقه الفاسدة». تعجب محمود السروجي من موقف معاذ تجاه ابن عمه وشك في أمره. وظل مرتابًا منه ويشعر أن في الموضوع «إنّ» كما يُقال. إلى أن وضحت له الصورة تمامًا بعدما تحدث مع ابنته.

هي إحدى زيارات روناء المتكررة لصديقتها والأخيرة لها قبل

اختفائها، وأنها من بعدها لم تزرها في دارها قط، وما كانت لتكون الأخيرة لولا سلوك معاذ. كان اليوم طبيعيًا، عادت زهراء لدارها وفي يدها روناء، كمعظم الأيام. وكان معاذ قد وصل به الإعجاب بنفسه حد أن يُقال عنه إنه نرجسي. مَن تلك التي تستطيع أن تصمد أمام وسامته؟ هكذا كان يظن. كان معاذ مختالًا بنفسه ومعتدًا بها إلى أبعد حدود الاعتداد. أعجبته روناء، هي الوحيدة من بين الفتيات اللائي عرفهن التي لمست شيئًا فيه، ثم قلبه بعد ذلك يقر بحبه لها. ولم يكن ليحبها – كما فسر الأمر لنفسه – لولا عنادها. وإنه لم يطلب منها شيئًا بلسانه لتعانده عليه؛ وإنما بنظراته فعل. لم ترضخ له روناء، فعمد إلى المجاهرة بحبه الذي لم يكن حبًا قط؛ بل كانت رغبة في إشباع غروره وإعجابه بنفسه الذي لا ينفك يزداد. في ذلك الوقت كانت زهراء على علم بما بين صديقتها وابن عمها أحمد، فإنه لم يحدث شيء يخصهما إلّا وكانت على دراية به. وعندما أعلن شقيقها معاذ عن حربه، حاورته وعنفته في محاولة منها لثنيه عما هو مقدم عليه.

كيف أعلن معاذ عن حربه، وذلك كان قبل أن تعنفه شقيقته؟

انتهز فرصة أن شقيقته ولجت لغرفتها تجلب شيئًا ما، وخرج إلى روناء التي كانت في صحن الدار وتحدث معها بلطف في البداية، ثم صرّح لها بإعجابه بها وفي مُخيلته أن الأمور ستصير على ما يرام. لكنه تفاجأ بردها عليه، وكان ردًا غاية في اللطف.

فإن روناء حينها بلغت مبلغًا عظيمًا من الرصانة والتعقل وهي تقول له بكل رباطة جأش: «إنت شاب ممتاز يا معاذ، بس أنا عندي إللي يمنعني من إني أرتبط بيك». ظنت روناء أنه سيتقبل الأمر، وقد خابت ظنونها. فلقد اعتقد معاذ أنها تعمدت صده لجعله يحترق حبًا أكثر لها. وعليه انفرد بشقيقته في نفس الليلة وطلب منها أن تلين قلب صديقتها عليه. وكان من زهراء أن تفاجأت وشعرت بالخوف، فهي تعلم أن معاذ لن يجعل الأمر هينًا على الجميع. غريبًا كان طبعه، عنيدًا مثابرًا؛ إنما في أفعال الشر، وزهراء تعرف ذلك.

وأخبرته زهراء بعد إلحاح منه، أن علة روناء هي أنها معجبة بابن عمه، وليست، كما ظن، تحاول إثارة حماسته أكثر تجاهها. هل تقبل الأمر؟ بالطبع لا. أرسل إلى روناء نظرات تنم عن تهديدات وتوعدات. وكانت نرجسيته الزائدة هي التي تقوده. إنما شيء من ذلك لم يحدث قبل تغيبها. وظلت هي تنتظر ما سيفعله. ولم تخبر زهراء عن قلقها جرّاء نظراته المهددة، ولم تخبر أيضًا.. أحمد. إلّا أن زهراء وبحكم أنها شقيقته، عرفت أنه لن يجعل الأمر يمر بسلام، سواء في وقتها أو بعد حين. فحاولت ثبر أغواره وفلحت في ذلك. واستمرت زهاء ساعة كاملة ترجوه في بدايتها ألّا يفعل ما يجرح مشاعر صديقتها وابن عمها أو يؤذيهما، ثم في نهايتها كانت لهجتها حادة وكلماتها هجومية ضده. فأوهما

أنها قد خرجت من حساباته. وظلت مصدقة ما أوهمها به إلى أن عرفت ما كان يختلج في صدره كل تلك الفترة التي اختفى فيها أحمد وروناء. فهو مَن أقنع والده ببيع ممتلكات ابن عمه بصفته حتى وإن عاد سيتلف كل شيء، وأنه بذلك يحافظ له على أمواله. وهو مَن تسبب في لطم والده لابن عمه أمامهم قبل تغيبه، مما كان له أثر بالغ، وهو نئي ابن عمه عن دارهم شهورًا كثيرة. وهو مَن حرّض والد روناء أكثر من والدتها وحتى قبلها، على أن يقدم بلاغًا في ابن عمه يتهمه فيه باختطاف روناء. وهو أيضًا، وبعد كل ما فعله، وهذا عرفته زهراء مؤخرًا عن طريق روناء، مَن ذهب إلى محمود السروجي في مقر عمله لكي يقسي قلبه على ابن عمه. في محاولة منه لسد كل الطرق أمامه.

اكتشف أحمد مؤخرًا أن قساوة قلب عمه عليه لم تكن من فراغ، وضربه له لم يأتِ محض مصادفة. وذلك بعدما قصّت عليه زهراء كل ما عرفته، وحكت له روناء ما بدر من ابن عمه تجاهها. كانت روناء تعلم أكثر من أي أحد أن الوقت قد آن لإخباره بمشاعر معاذ وأفعاله، وذلك كي يحترس وكي لا يكون آخر من يعلم كما يقولون. فإنه صاحب الشأن الأول فيما يصير ولا يعرف ما يدور خلف ظهره. بالطبع ما كانت روناء لتصل بها الشجاعة حد إطلاعه على مجاهل الأمور قبل مغامرتهما تلك، لعلمها بطباعه التي كانت، ومعتقداته التي ذهبت وتلاشت كما

تعتقد. فإنها لمست تغييرًا جزريًا في سلوكه والأهم في معتقداته، فعندئذ لم تخشَ أن تخبره. بينما ظلت زهراء متوجسة مرتابة.

***

وذات يوم، وذلك بعد امتحانات نصف العام، شعر أحمد شاكر بالضجر من نفسه لتوهمه أنه بات حملًا ثقيلًا على كريم وأهله، وأن والديه بالذات يجدان في قلبهما حاجة تجاهه. وكان توهمه خاطئًا بكل تأكيد، فوالدا كريم لم يكن في قلبهما حاجة ولا داجة تجاهه، بل على العكس من ذلك، وكانا حريصين على أن يظهرا له ذلك؛ كانا يقدراه ويتمنيا له السعادة تمامًا كابنهما. وكانت من نتائج ذلك الشعور بالضجر، أنه خرج ينشد دار عمه لأول مرة منذ شهور. ومثلما كانت مشاهدتهم له هناك مفاجأة؛ كان سماعهم لكلماته الوديعة وما فعله، مفاجأة أكبر.

فنظرًا لعسر الحال، قرر أن يذهب أخيرًا لمقابلة عمه ليضع يديه على حقائق الأمور، فإن قلبه برغم ما قاله كريم بشأن بيع عمه لممتلكاته، وبرغم ما فعله معه عمه في الماضي، كان مليئًا بأمل أدهشه هو نفسه. ولم يخب حدس قلبه، إذ اتضح له أولًا ثم للجميع أن عمه باع ممتلكاته نعم؛ إنما احتفظ لابن أخيه بأمواله كاملة إلى أن يعود، فإنه لم يكن يصدق أنه لن يراه ثانية. وكان

من أحمد أن ارتمى على صدره ذارفًا لدموع مؤجلة منذ فقده لأفراد عائلته. لم يكن أحد يعرف أو يتوقع أن أحمد يوفر كل تلك الدموع ليخرجها في حضرة عمه وبين أحضانه. بكت زهراء، وترقرقت عينا ضياء. أما معاذ فرحل عن الدار هربًا من نظرات ابن عمه وكيلا يشهد المسرحية الدرامية كما قال لنفسه. وسوف يظل هكذا فارًا من مواجهته حتى نهايته. وسوف يظل أيضًا مصرًا على رأيه محتفظًا بطبعه ومتمسكًا بسلوكه ولن يتغير فيه شيء كما حدث مع ابن عمه. ليثبت للجميع أن ليس بالضرورة أن تأتي المعاملة الحسنة بمثلها، فإن البعض يتسم بعقلية حجرية وقلب أيضًا، مثلها.

بالطبع لم يفت أحمد شاكر رؤيته لزهراء وكريم عند جبال نويبع في اليوم الذي خرج فيه هو وروناء، وإنما كان كمن يعقد صلحًا مع الدنيا. كان على ثقة أن في الأمر لغزًا ما، وإنه عاجلًا أم آجلًا سيعرفه، فأراد أن يأخذ استراحة محارب ثم يستأنف صراعات الحياة. وحينما قرر الذهاب لمواجهة عمه؛ كانت هذه أولى صراعاته التي من المفترض أن يخوضها بعد الاستراحة. إنما وجد نفسه وهو في دار عمه مرحبًا به بشدة، وما جاء بعد الترحيب كان دعمًا قويًا له ولجيشه، ليكون دار عمه بمنزلة قاعدة عسكرية له، يتزود منها بالمؤن، وينطلق يصارع في الحياة. فبعد أن أعاد إليه عمه حقوقه، وأظهر له حبًا كبيرًا، وبعد أن قضوا

يومًا عائليًا رائعًا، وفي المساء، انفرد أحمد بابنة عمه ليستفسر عن وجودها في ذلك اليوم الذي خرجا فيه. كيف علمت ميعاد خروجهما؟ وهل كانت على دراية بما حدث لهم؟ وهل..؟ أسئلة كثيرة تطوف بذهنه ويؤجلها منذ عودته.

ماذا ستقول له زهراء؟ أو ماذا لديها؟ إنّ لديها الكثير، لكنها لم ترد أن تحكي له شيئًا؛ لأنها تخشى من ردود أفعاله، نعم صار أحمد مختلفًا تمامًا عما سبق، لكنه لا يزال أحمد، ولا يزال صامتًا عميقًا. ومع ذلك تعلم حق العلم أنه لن يترك الأمر يمر من تحت أنفه بيسر، وأيضًا لا بد أن يأتي عليه يوم ويعرف، فليعرف الآن وليحدث ما يحدث. وإنها واثقة من أنه سوف يتقبل الأمر وسوف يقدر لها حرصها على إعادة اكتشافه من جديد. عرفت زهراء أن أحمد عائد شخص أكثر حبًا لمن حوله وأكثر تقبلًا للأمور. حتى أنها تحاورت معه في بعض النقاط التي كانت محل جدل كبير بينهما في الماضي، ووجدت أفكاره قد تحررت من سجونها وصارت منطلقة وغير محددة بأحداث كما حدث بعد فقده لأفراد أسرته. وما هو من شأن الموت صار حدثًا عاديًا لا بد وأن يحدث. فإن الموت هو الحقيقة المؤكدة التي لا مفر منها، وكل إنسان له دور، ويوم ما سينتهي ذلك الدور. أما متى وكيف سينتهي؛ فذلك ليس من شأننا نحن البشر. هكذا صارت أفكاره، ورحم الله من فارقوه وغفر الله له ما بدر منه. إنّ حياة الخلود الخاوية من أية

مشاعر أو نوم أو شهوات وملذات التي عاشها أحمد في ما يسمى بعالم النسيان؛ إنما هي موت طويل يدرك خلالها المرء أنه ميت. فليست حياة تلك التي عاشها هناك. حتى أن فقدان الذاكرة الكلية هناك ليس ميزة؛ بل هو طامة كبرى. فلا بد للإنسان من تذكر بعض الأشياء والأحداث والأسماء. فأحيانًا تذكرنا لاسم أو حدث يجعلنا نتشبث بالحياة ونحتملها. إنّ فقدان الذاكرة أمر شاق وخطير، فإن فاقدها يكون عرضة للسخرية من الغير أو اللعب عليه أو حتى للسرقة. أما عن تسميتهم لذلك العالم بعالم الشفاء، فإنهم محقون، هو حقًا شفاء؛ وإنما من كل شيء حتى من الحياة. فالأجدر يسمونه بعالم الموت، هذا أبلغ. حتى أن أحمد شاكر عاد ذات مرة بذاكرته للوراء، وتحديدًا وقتما كان في عالم النسيان، حيث لا شعور ولا ذاكرة ولا رغبة ولا نوم ولا... الكثير من اللا هناك. فضاق صدره ووجد مشقة في التنفس. كان قد تخيل نفسه على هاتيك الأرض الغريبة وتحت سمائها الغريبة، قارن بين الصورتين، وجوده على أرض الواقع ووجوده هناك، في النسيان. أقر أن ذاك العالم يبدو كالكابوس المفجع الذي لا يصدق المرء عقب الاستفاقة منه أنه كان نائمًا وعاد ثانية للواقع. وبالنسبة لعالم الذاكرة، فيا له من شقاء التواجد فيه، حيث كل شيء مضاعف، الذاكرة والرغبات والشهوات و... الكره بإفراط، والحب بإفراط، وذلك قاسٌ جدًا. كم تمنى أحمد هناك أن ينتهي

ذلك كله. وأقر بأن الموت غير أنه حق؛ هو أيضًا نعمة! هكذا تبدلت أفكاره. لكن زهراء لم تجدر، وذلك تحت إصرار أحمد على المعرفة، أن تحكي له شيئًا. ربما على أخرى أن تتكفل بمهمة إطلاعه على الحقيقة التي بات الجميع يعرفها إلّا هو. صاحب الشأن الأول والوحيد. لأن زهراء ما فعلت ذلك بجملته إلّا لتؤد اعوجاج أفكاره، أما عن كيف وجدت لنفسها الحق في ذلك فهذا ما سيثير دهشة ابن عمها. كانت نواياها حسنة، من وجهة نظرها، وكل ما شغل بالها، أن كيف ستجعل ابن عمها يستمر في الحياة من جديد. وبعد تفكير عميق وجدت الطريقة. ويا لها من طريقة.

لبث أحمد تلك الليلة في دار عمه زهاء ساعة كاملة يستجوب خلالها زهراء، كان سؤاله واحدًا ومكررًا، أن كيف عرفت زهراء ميعاد خروجهما؟ إنهما خرجا من مغامرة خيالية، ستبهر جميع من سيسمع بها. إلّا أن تواجد زهراء وكريم هناك أطاح بتلك المغامرة في لحظات. فإن أول ما تبادر إلى ذهنه فور رؤيته لهما، أنهما لم يلبثا إلّا ساعة من نهار. وأن أحدًا لن يصدقهما إن حكيا له عما لقياه هناك. وبعد ضغط كبير منه على ابنة عمه قالت له: «بكرة الصبح روناء هتقولك على كل حاجة». بعدها لم ينبث ببنت شفة، فلقد ظل مبهوتًا إلى أن عاد إلى دار كريم.

***

برغم شعوره بالضجر لأنه يقيم عند كريم كل تلك المدة، لم يأخذ قرارًا بعد بشراء شقة يعيش فيها، حيث عادت إليه أمواله، وصار باستطاعته أن يعثر على واحدة في أي مكان يختاره. تجاهل أو أرجأ مشكلة السكن وسلط تفكيره ووقته على ما قالته زهراء، فلقد أربكه ذكرها لروناء بأنها سوف تخبره بما يود معرفته، كيف وهي التي كانت رفيقته؟!. عليه الآن مقابلتها على وجه السرعة. لذا أخبر زهراء أن أربعتهم لا بد وأن يجتمعوا سريعًا، وأنه أمر قد بُت فيه. وعليهم فقط أن يختاروا المكان. وبالفعل اجتمع أحمد بزهراء وروناء وكريم في «كافيتريا» حددها أحمد نفسه.. وكان اللقاء.

جلس أحمد متأملًا عيني روناء، لم تحدد أينظر إليهما حبًا أم فضولًا لمعرفة ما يجهله. أطرقت للأرض خجلًا ثم تنهدت وقالت تخاطب زهراء بعد أن ازدردت ريقها: «مش قادرة يا زهراء». كان ظهر أحمد للأمام، وبعد كلمات روناء فترت حماسته وعاد به إلى الخلف وهو يزم شفتيه وينظر في كل اتجاه. شعروا جميعًا بغضبه الذي لا ينفك يزداد استعارًا. وكانت زهراء في ذلك الوقت تود لو أن الأرض تنشق وتبتلعها في باطنها، فإن حمرة عيني ابن عمها جمدت الدم في عروقها. أما روناء، فقد كان قلقها ممزوجًا دائمًا بشعور طيب، فلقد كانت على ثقة من أن أحمد سيغفر

لها ما قامت به. أما كريم، فقد كان على علم بما فعلته الفتاتان منذ ذلك اليوم الذي طلبت منه زهراء فيه أن يذهب معها حيث جبال نويبع ليستقبلا العائدين. وبناء على رغبة زهراء، لم يحكِ لصديقه عن شيء. وبالرغم من ذلك، كان قلقًا هو الآخر.

طلب أحمد مشروبًا له، كما فعلوا هم، فإن أجوافهم قد جفت من الصمت وصدورهم قد بردت من القلق، وبعدها تحدثت روناء بتوجس تحت نظراته المرتابة، وقالت وهي تحاذر من تلاقي نظراتهما:

بعد إللي حصل لأهلك يا أحمد كلنا كنا قلقانين عليك، بس مكوناش عارفين نعمل إيه، بتكلم عننا إحنا التلاتة، أنا وزهراء وكريم. وفي يوم لقيت زهراء بتقولي أنا لقيت فكرة. أنا استغربت، فكرة إيه إللي ممكن تغير أفكار حد وإيمانه؟! المهم.. خرجت مع زهراء ورجعنا تاني لأوضتي. زهراء أخدتني لراجل كدة شكله غريب، هو مش ساحر ولا مشعوز، تحسه راجل عنده علوم ومعرفة كدة يعني. حتى بيته غريب، شبه الكهف. وشكله وشعره وحركاته، كل حاجة فيه غريبة. المهم.. الراجل الغريب دا بمجرد ما وصلنا حط في إيد زهراء حبايتين. من غير ولا كلمة، كانت زهراء جاتله قبل كدة واتكلمت معاه. والحبايتين دول أنا أخدت واحدة منهم وإنت أخدت واحدة. الكلام ده كان يوم الرحلة لو تفتكر، اليوم إللي نزلنا فيه على الدرج.

صمتت روناء، إذ أن نظرات أحمد الثاقبة جعلتها تضطرب وتحجم عن الكلام. ثم بعدها تابعت بروح قلقى وصوت متهدج:

في ذلك اليوم الذي انفردت فيه زهراء بروناء في غرفة الأخيرة وليس في الشرفة كعادتهما، مما أثار ذلك دهشة ملك والدتها، مكثت طويلًا تقنعها بتلك الفكرة التي خطرت لها. رفضت روناء في البداية أن تشارك زهراء في تلك المجازفة مع أحمد، لم تكن تخشى المغامرة؛ بل كانت تخشى من أحمد وعليه. إلّا أن (الزن على الودان أقوى من السحر) وفي النهاية وافقت وهي متوجسة خيفة من آخرين غير أحمد، كانت خائفة من ردود أفعال أفراد أسرتها. ولم يدرِ أحد بعدما اتضحت الأمور كيف فكرت زهراء في تلك الفكرة من الأساس، أو من أخبرها بذلك الرجل الغريب الذي تحدثت عنه روناء، ولم ينشغلوا بذلك، جل ما شغلهم هو كيف سيتصرف أحمد حيال ما حدث. حتى أحمد نفسه لم يسألها عن ذلك بعدما عرف ما كان خفي عنه. بل أخذت أفكاره منعطفات أخرى، فإنه انزعج من كونه قد تغير كما يقولون، وذلك شيء جيد، لكنه انزعج من كونه تغير عن طريق السحر، هكذا اتخذت أفكاره مسارات أخرى. أما ماذا ستكون ردود أفعاله ومدى تقبله للأمر؛ فإنهم كانوا على ثقة من أنه قد تغير بالفعل، وأن ليس ثمة من سيجعله يستسوغ الأمر غير روناء. فإنهم قد تناقشوا في هذه

النقطة وتوصلوا إلى إن كان يجب على أحمد أن يعرف، فليعرف عن طريقها هي. هي التي حرك من أجلها الجيوش هناك وألقى بنفسه في المهالك غير آبه، بوقوفه أمام نصول السيوف وسنان السهام.

وكانت فكرة زهراء فريدة وغريبة كالرجل الذي استعانت به، وهي وضع أحمد في حيوات أخرى لجعله يؤمن أن حياته التي كانت على علم أنه لا يطيقها بعد رحيل عائلته؛ إنما هي نعمة مقارنة بتلك الحيوات الأخرى. شرح لها الرجل الغريب عن الطريقة السحرية التي سيجعله بها يعود أفضل من ذي قبل. وكانت الطريقة أن الحبة التي أعطتها زهراء لروناء موهمة أحمد وكريم أنها حبة لتخفيف شعور الصداع، وذلك بوضعها داخل علبة مفترض أنها تحوي حبات لعلاج الصداع، كانت حبة هلوسة، أوهام، تخيلات. يمكنك تسميتها بأي اسم تشاء. تجعل تلك من يتعاطاها يعش أجواء خيالية، أحداث وشخوص وأراضٍ يبدون حقيقيين، لكن ذلك كله ليس إلا مجرد أوهام. ومثلها كانت الحبة التي ناولتها زهراء إلى أحمد، فعاشا معًا نفس المغامرة، لذلك اتبعها في دربها الذي سارت فيه، وهو الطريق الذي ظهر لهما بفعل تأثير الحبتين. فلقد كان من المستحيل أن يعثر عليهما كريم وزهراء حينما كانا يبحثان عنهما، لأنه لم يكن يوجد طريق ثالث إلّا في نظر أحمد وروناء فقط. ويوم عادت زهراء والتفت خلف

أحد الجبال ثاني يوم من الرحلة، حينما جاءت معهم تبحث عنهما، كانت تتأكد من صدق كلام الرجل. تتأكد من أن الطريق لن يظهر ولا الفوهة أو النفق القصير أو الدرج الحجري. فلقد أخبرها عن ذلك كله، وأخبرها بما هو أكثر من ذلك. حدثها عن فؤاد نورالدين وعن بائع التحف، وعن ميليندا وعن المجري وعن الحاكم صاحب القصر الصغير فوق الجبال خلف التلال، وعن العالمين، وعن الحروب وحتى عن الورقات التي كانت طريقتهم للخروج! ولذلك كانت تعلم اليوم الذي سيخرجان فيه، وعليه تواجدت هناك مع كريم.

كل ذلك كان يساعد أحمد في إيمانه بالله وبنفسه من جديد.

وبعدما فهم، عرف لماذا لم يخرج معه فؤاد ولا بائع التحف، وتذكر يوم أنكله فؤاد نورالدين عن حماقة كان سيرتكبها، يوم كانت روناء تغني للحاكم وجنوده، وانبهر بقوة ساعديه وشدة عزمه في ثنيه عما كان يريد أن يفعله. كان الأمر يبدو حقيقيًا جدًا! وعليه عرف لماذا تركوه الحراس ولم يطلقوا عليه سهامهم. وعرف بعدها من روناء كيف خرجت له بعد المرة الثالثة، فإنها لم تكن لتخرج له لو أنه استسلم لليأس بعد مرة أو حتى مرتين، كان لا بد من ثلاثة حتى تتأكد من أنه بالفعل يريدها، وعندها سيكون تغييره قد اكتمل، لأنه بذلك سيكون يسعى خلف مَن يمكنها إلحاق الأذى به إن هو اقترب منها، وذلك عن طريق

الحزن الذي سيلم به فيما بعد قربهما إن أصابها مكروه. فلقد كانت تدرك مثل زهراء، أنه لم يعد يريد أن يتعمق في علاقة مع أي كائن بشري، حتى لا يذق مرارة الفقد ثانية إن حدث وفارقه ذاك الذي اقترب منه كما فعلوا به أفراد أسرته.

كانت مجازفة خطرة من روناء، لكنها وافقت من أجله، لا لشيء إلّا لأنها تحبه. هكذا هو الحب، يجعل شخصًا ضعيفًا منعزلًا أعزل، يبدو مثل وَحش مفترس إن هو تعامل تحت تأثيره.

كان أمرًا شاقًا عليها، أن تختفي عن عائلتها وتجعلهم يحزنون عليها، وهي التي لم تتسبب لهم في المتاعب. فلقد كانت رغبة زهراء أن لا أحد يعرف شيئًا عما سيفعلاه، حتى كريم. بل أن كريم على وجه الخصوص، لا يجب أن يعرف. لأن زهراء كانت واثقة من أنه لن يوافق.

وحدث ووافقت روناء، وكان ما يشغلهما فقط؛ هو كيف سيفعلانها. وجاءت الأحداث في صالحهما حينما اقترح كريم أن يخرجوا معًا في رحلة، وعندها أسرعت زهراء واقترحت أن تكون الرحلة إلى جبال نويبع، فهكذا أخبرها الرجل، أن الحبتين سيعملان هناك. وبعد عودتهما، وأمام الأسئلة الوجودية المباشرة التي طرحها محمود السروجي على ابنته، لم تستطع أو تقوَ على المراوغة وقصت عليهم كل شيء. وبعد المفاجأة والدهشة الكبيرة التي عبروا عنها بعيونهم، قال لها والدها بعدما أخبرتهم بثلاثة

أيام، حيث لم يستطع أن يتحدث معها قبل ذلك لغضبه الشديد منها، بالرغم من شوقه العظيم لها، قال لها بنبرة غضب ممزوجة بشفقة: «الكلام ده مبيحصلش غير في الروايات». فردت روناء: «لإنقاذ إنسان مفروض علينا نعمل أكتر من كدة». فكان رد والدها متبوعًا بابتسامة وهو يتمالك نفسه كي لا تنفلت منه كلمة تغضب ابنته التي عادت إليهم ودب وجودها الحياة في أجسادهم من جديد، حيث قال: «وخصوصًا لو كان إنسان بنحبه». ابتسمت في خجل، بينما ألجمت المفاجأة لسان ملك والدتها على مدار أيام طوال، وفي الأخير حمدت الله على سلامة ابنتها وعودتها، ولم تحدثها في الأمر. أما شقيقها فكان يفكر في زهراء، يقدر لها ما فعلته لأجل ابن عمها، ويحسدها على صبرها على الاتهامات والشكوك التي وُجهت إليها وعلى رباطة جأشها وثبات جنانها. وقد ازدادت صورتها أمام عينيه تألقًا وفي قلبه تضرمت نيران حبه لها.

زهراء التي لم تتخلَ هي الأخرى عن نصيبها من الأسئلة، فبرغم أنها كانت تعلم كل شيء مسبقًا بوفق خطة محكمة وضعتها مع روناء، تلك الخطة التي رسمها لها الرجل الغريب، كانت لديها رغبة شديدة للاستفسار عن صرخة روناء يوم الرحلة، إنّ تلك الصرخة كانت من ضمن الخطة، وليس في ذلك ما فاجأ زهراء، لكنها ظلت مبهورة بأداء روناء، إلى أن علمت منها أنها صرخت

صرخة حقيقية واقعية، وذلك بعدما شاهدت ذلك الثعبان، والذي كان دخيلًا على خطتهما، ولكنه ساعد على إحكامها.. وليس كل دخيل ثقيل، ففي بعض الأحايين ينتظر المرء وكله أمل أن يقتحم عليه أحدهم أسوار عزلته ووحدته، ليقول له مباشرة: أين كنت أيها الأحمق كل تلك المدة؟ لقد انتظرتك طويلًا، وظننتك لست مثلهم.. ظننتك ستفهم أنني ابتعدت كي تتعقبني أنت، أنت ولا أحد غيرك، لعلمي بأنك الوحيد الذي ستهتم.

***

ظل أحمد مبهوتًا لدقائق كاملة، استرجع خلالها بشكل سريع الأحداث الخيالية التي عاشها. وفي خضم اجترار ذكريات المغامرة الخيالية استرجع أيضًا مشاهد من الماضي، وترقرقت عيناه بالدموع فور رؤيته لصور أفراد أسرته. بكى أحمد شاكر بصدق ومن صميم قلبه، هذا البكاء هو الذي كانت تنتظره منه زهراء عقب الحادث الذي أودى بعائلته، ولقد ظنت أنه أخرجه كله في أحضان والدها يوم زارهم، لكنه أوغر جزءًا منه داخل عينيه وصدره، مثلما فعل وكتم حزنه في سويداء نفسه عقب رحيل أفراد أسرته، وها هو ينفجر باكيًا، ينفجر باكيًا بنفس القوة التي اختص بها الحزن لنفسه وحبس بها الدموع. بكى من دون اهتمام

بشخصيته القوية العميقة أو كبريائه. ولم يكن يعلم أن شيئًا كهذا سيرفع من شأنه عندهم ويعلي من قدره. فحينما تعامل مع حزنه بطبيعية وفطرة ومن دون احتراز؛ كان أهلًا للشفقة من أي وقت مضى. أسدل رأسه على صدره والدموع تقطر على لحيته، لبث هكذا لدقائق كان صخبه خلالها السكون العميق وحديثه الصمت الرهيب. أقلقهم سكوته، إنما لم يجرؤ أحد على أن يحدثه.

كانت روناء في ذلك الوقت أكثرهم قلقًا، حيث كانت تنتظر أن يعنفها وبعدها يهجرها للأبد. هي مَن رافقته وجعلته يعيش في عالمين من الوهم المخيف. أما زهراء، فكانت تتنفس بصعوبة وهي تضغط على نفسها لتظل في مكانها، كانت قد فكرت فعليًا في الفرار. كريم هو مَن كان موقفه جيدًا مقارنة بموقفهما، فلم يكن يقلقه شيء؛ إلّا أن تأتي نتائج ما فعلته الفتاتان مناقضة لما أراداتاه، فينتكس صديقه.

مما كانوا يخشون؟

كانوا يخشون صدمته في أكثر شخص يحبه. فبعدما عاد وروناء، وجد عمه قد جحد حقه، وبلاغ قُدم فيه بأنه قد خطف روناء، ولم يكن يدري بنوايا عمه أو حسن طوية محمود السروجي صاحب الاتهام. فتوجهت إليه جميع الأنظار باعتباره كما اعتقدوا سيثور على عمه وسيغضب من آل السروجي، ومن الجائز أن

يعتزل الحياة كما فعل عقب حادث عائلته مثلما ظنوا. وفي ذلك الوقت تصرف الرجلان بعقلانية شديدة وحكمة سديدة، إذ أنهما تمهلا في إرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح، وقد وجدوها فرصة سانحة. فهذا عمه الذي لم يطلع أحد على ما في قلبه تجاه ابن أخيه، وقد كانت مشاعر غاية في الألفة والشفقة عليه، لم يرضخ لتوسلات ابنته زهراء وهي تطلب منه أن يتصل بابن أخيه ويظهر له سعادته بعودته ومن ثَم يعطيه ما أخذه منه من حقوق. وذاك محمود السروجي هو الآخر، لم يرضخ لتوسلات روناء التي رجته أن يسحب شكواه ضد أحمد. رفض السروجي لكنه أخبر روناء بما يعتمل في صدره تجاه أحمد شاكر. فلقد ارتأى أن أحمد هذا يشبهه في الصغر، ما صار معه وعايشه حينما كان شابًا يعمل في شركة زياد طاهر والد زوجته، شبيهًا لدرجة كبيرة بما صار مع أحمد. ولذلك نظر إليه من منظور مختلف تمامًا عن أي شخص، حتى عن روناء نفسها والتي لا يعتقد أحد أن أحدًا يكّن له في قلبه محبة أكثر منها. خَبر السروجي ماذا يكون أحمد شاكر بالنسبة لابنته، لكنه لم يَخبر ماذا تكون روناء بالنسبة له، والأهم من ذلك لم يتوصل لمعرفة شخصية أحمد، فأراد أن يحاصره بشدة أخرى ليكتشف معدنه الحقيقي. فإن الشدائد ترفع الغطاء عن المعادن فتظهر، وتكشف عما في القلوب فيبين كل على حقيقته.

ما الذي كان ينتوي فعله السروجي بعد ذلك؟

مثلما فعل معه زياد طاهر، أن يرتضي تزويجه ابنته وهو واثق ممن وضع يده في يده، فلقد كان يظن أنه سيأتي يوم على أحمد ويطلب فيه يد ابنته، فأراد أن يختبر شخصية صهره من الآن تحسبًا لما سوف يحدث. لكنه لم يحّدث روناء عن مسألة الزواج، وإنما كان كل شيء واضحًا بالنسبة لها. وعليه انتظر رد فعله جرّاء الشكوى، كما انتظر الدكتور بكر عبد الحق رد فعل ابن أخيه جرّاء بيعه لممتلكاته، وكلاهما كان يمتحنه.

وجاءت ردود أفعال أحمد شاكر مناسبة تمامًا لكليهما، فما هو من شأن الشكوى، كان جيدًا، فلم يتذمر أو يبغض آل السروجي، وإنما عقل الأمر والتمس لهم الأعذار لأنه أدرك مدى خوفهم على ابنتهم وحبهم لها، فظل مسالمًا وهادئًا، وما هي إلّا أيام ووجد زهراء تخبره بأن روناء تقول إن والدها قد سحب شكواه. وأما موقفه تجاه عمه، فكان رشيدًا هو الآخر، فبعدما شعر بالضجر من إطالته في منزل صديقه وقرر زيارة دار عمه، وجده فاتحًا إليه ذراعيه تاركًا له صدره ليرتمي عليه. وقد كان ذلك تصرفًا حكيمًا من عمه ورد فعل طيب من أحمد أن غفر لعمه قساوته عليه. وبعد كل ذلك، كان لا يزال قلقهم عليه كبيرًا، إذ أنه لم يكن قد عرف حقيقة مغامرته مع روناء، وهي الشدة الأخيرة المتبقية لكشف اللؤلؤ في قلبه أو الفحم الأسود. وقرر الجميع أن مَن

عليها إخباره هي روناء، باعتبارها أكثر مخلوق يحبه الآن. فلنرى ماذا سيكون تصرفه مع أكثر إنسان يحبه، حينما يتسبب هذا الإنسان ذاته الذي يحبه، في إغضابه؟.

وفي المكان الذي تقابلوا فيه، وعلى كرسيه، كان حزينًا كل الحزن. ترك يديه على المنضدة مشبكًا أصابعه ببعضها ونكس رأسه حتى لامست جبينه يديه. ولبث على تلك الحال دقائق من الصمت، اندهش خلالها من زهراء، وهو يسأل نفسه؛ كيف وجدت لنفسها الحق في أن تفعل به ما فعلت. ثم اعتدل في جلسته وجفف دموعه وانتصب واقفًا وهو يقول: «يالّه نمشي».

***

انقضت شهور، ورحل العام الدراسي الأخير في الجامعة، وتخرج أحمد شاكر وتفرغ لبدء حياة جديدة، هكذا كانت أفكاره. شعر أنه عاش مديدًا على الأرض، وذلك مما عايشه من أحداث، برغم أنه كان لا يزال في ريعان الشباب ومقتبل العمر، فامتلأ عقله بأفكار مثل البحث عن معانى للحياة تجعله يستسوغها من جديد. فلقد عرف الكثير من الأحزان والعديد من الخذلان من وجهة نظره، ولم يعد في مقدوره احتمال المزيد. وكانت فكرة البحث عن معاني للحياة ذاتها تحتاج إلى دفعة ما، فإن كان شخص قد اكتفى من

الحياة بأسرها؛ فماذا سيفيده إيجاد معنى لها؟ وكانت تأتي عليه أيام يتذكر فيها إصراره الشديد على إيجاد روناء خلال مغامرتهما، فكانت هي المعنى المعني له آنذاك، وكانت هكذا لشهور قبل المغامرة وبعدها، إلى أن فهم اللعبة التي شاركت زهراء فيها. وأما أن تخذله روناء نفسها، معنى الحياة! فإن من الصعب عليه بعد ذلك اعتبارها معنى للحياة مرة أخرى. ولكنه عرف فيما بعد أنه كان مخطئًا، وإنها لهي كل المعاني التي يبحث عنها، فإنه لم يكن ليحتمل الحياة ساعة واحدة بعد مصابه في أسرته، لولاها.

وبعد ذلك اللقاء الرباعي الذي اكتشف فيه أنه كان إلعوبة في أيدي الفتاتين، طلب من كريم أن يبدأ بالبحث عن شقة له. وقام ببعض التغييرات التي رأى أنها ضرورية جدًا لعيش حياة أفضل. وكان الأفضل كما ارتأى أن يبتعد عن كل ما يمكنه إلحاق الأذى به، لا مزيد من المعارف، يُعني لا مزيد من الآلام. حرص على ذلك جدًا، أن يحد من المعرفة العامة والمعنية بأمور الحياة، والمعرفة البشرية. لا مزيد من الأحباب، لا مزيد من الأصدقاء والقريبين. فليبق بعيدًا عنهم ما داموا هم لا يريدون البعد عنه، ولو لفترة محددة. وعلى غرار ما قام به من تغييرات، قام بتغيير رقم هاتفه، وانتقل للسكن في شقته الجديدة، وأقسم على كريم ألا يدل أحدًا على مكانه. دائمًا كان كريم بجواره حتى في عزلته. أبدًا لا بد من شخص ما، يمكن أن يخن نفسه، ولا يخن إنسانًا

يحبه. وكان كريم بالنسبة لأحمد هو ذلك الشخص.

مكث على تلك الحال خلال فترة الدراسة إلى أن تخرج وافتتح لنفسه صيدلية. ومنذ ذلك اليوم الذي أطلعته فيه روناء على ما كان خفي عنه، اتخذ لنفسه أسلوبًا خاصًا في العيش، حيث قضى معظم أوقاته وحيدًا، بلا قريب أو صديق. غير أن بعض الأوقات كان يتسلل خلالها كريم خفية ويقتحم عليه عزلته فيبدد وحدته ويطيح بانفرادته. وكان لا يشعر أحمد أن كريم دخيل عليه. هو في الحقيقة، كان يود لو أن يقضي كريم معه معظم الوقت، إلّا أنه كان حريصًا، وذلك خلال فترة الدراسة وعقب اللقاء الأخير الذي جمعه بكريم وزهراء وروناء، على أن يظهر أنه شخص غريب عنهم تمامًا، بل غريب على المكان ذاته. وذلك لسبب بسيط كل البساطة؛ لكي يستطيع أن يكرث جل تفكيره وتركيزه في الدراسة فقط. فإنه كان يعرف أنه أُستنزف خلال الأشهر الأخيرة قبل عودته للدراسة، فعمل على تهيئة جو مناسب لذلك. وليس كما ظنوا، أنه يتعمد الانزواء. وكان منهم إيزاء أفعاله أن تركوه على راحته مجبرين. فلقد كانوا يتلاشون الاصطدام معه بأي شكل من الأشكال.

وبعد أن أتم دراسته واستقر ماديًا، كان عليه أن يستقر اجتماعيًا وفكر في ذلك بالفعل، وأول ما تبادر إلى ذهنه أن يوصل ما قطعه من صلة بالعالم والناس. فبدأ بابنة عمه، هاتفها واطمأن

عليها واطمأنت عليه، وأحس أحمد بسعادتها العارمة من مكالمته لها، ودائمًا ما كان يشعر بأنه شخصًا عزيزًا جدًا عليها ومقربًا إلى حد كبير. لم يكن يعتبرها ابنة عمه فقط؛ وإنما في مكانة شقيقته. كانت زهراء تحدثه عبر الهاتف وهي خجلة، إلى أن تخلت عن خجلها في حضرته بعدما أكد لها أنه لم يغضب منها، وإنما كان حزينًا لأنه أشغلها به لدرجة جعلتها تلجأ إلى ذلك الرجل الذي أعطاها حبتي الوهم. وبعد زهراء، تابع تواصله الاجتماعي، فأحسن معاملة عمه وأحسن عمه معاملته. ثم توالت اتصالاته بمن حوله وكأنه شخص ولد حديثًا، ولم يعرف الحقد أو البغض يومًا. حتى أنه غفر إلى معاذ سوء أفعاله، إلّا أن الأخير لم يغفر لنفسه ولم يرد ذلك، وبالتالي لم يكترث بالقضية من جزورها. فلم يشكل فرقًا معه، أن يغفر له ابن عمه أو لا، وظل طريدًا عنهم وهو بينهم، وحرص على أن يظل أحمد في مكانٍ معادٍ، على الجهة الأخرى من الجبهة، ولم يرتضِ أن يقاتلا معًا.

تحسنت علاقات أحمد شاكر بمن حوله إلى حد لا بأس به، ونقصه كي يشعر بالطمأنينة؛ أن تعرف نفسه الاستقرار لتتحسن هي الأخرى. وكان أن دله قلبه على طريق الله فسلكه، كان شاقًا تملؤه العراقيل والمعوقات؛ إنما بمنزلة فسحة للروح. ارتقت روحه للسماء تاركة الجسد يمارس عمله الروتيني، بينما هي ترفرف عاليًا. صار شابًا أكثر استجابة لأوامر الله وبعدًا عن نواهيه، وكف

عن كونه مستجب للعالم وما يحدث فيه. فاطمئن قلبه بعد القلق وسكنت نفسه بعد الاضطراب، وارتاح ذهنه بعد التخبط في صخور الأفكار والمعتقدات. صار الجميع يتمنى القرب منه ونيل بعض من لطائف كلماته وجميل ابتساماته. فهذا ضياء، الذي كان يخشى الاقتراب منه بسبب أفكاره ومعتقداته؛ صار يقابله بانتظام عله يصل لتلك الدرجة العالية من هدوء النفس وثبات الجنان الذين صارا ملازمين لابن عمه على الدوام. وذاك محمد السروجي، شقيق روناء، عمل على توطيد علاقته به كي تحبه خطيبته زهراء أكثر عندما تجده يحب ابن عمها، وكي يستمد منه بعض القوة التي يحتاجها ليستقوى بها على شؤون الحياة. أما والده، محمود السروجي، فكان أكثرهم افتتانًا به. حيث أثبت أحمد للجميع أنه يتمتع بعقلية استثنائية وقوة تحمل فريدة. فلقد مكث طوال أكثر من تسعة أشهر في أجواء خاصة صنعها لنفسه. حيث أوهم الجميع فيما عدا كريم، أنه يعاني أعراض الوحدة والانطوائية واليأس، بينما كان يرص لبنات مستقبله رصًا. وكان أحمد أثناء تلك العزلة يراجع أحداث حياته منذ كان طفلًا، وجد أن كل مرحلة من حياته كانت لها خصائصها التي تميزها، إلّا إنهن جميعًا كان ينقصهن السلام النفسي الذي لم يعرفه سوى في الشهور القليلة الأخيرة، والتي اعتبرها حقًا، أجمل مراحل حياته وأكثرها قيمة، وذلك بعدما لجأ إلى مسبب الأسباب. وقد آمن أن

الحياة بداية الموت، وصدّق على أن الموت يمكنه أن يكون بداية لحياة أبدية ليست فيها وصب ولا نصب ولا تعرف الحزن.

لم ينكر أحمد شاكر فضل المغامرة الخيالية عليه، حيث عرف أن النسيان التام موت، والتذكر الدائم أيضًا.. موت. وأن الحياة برغم مساوئها التي لا تحصى، عادلة. فهي تعطي الشيئين بالتساوي، التذكر والنسيان. مما يعني أنها تعطي حزنًا بمقدار السعادة، إن اتفقنا على أن الذاكرة تحزن والنسيان يسعد. وعرف أيضًا أحمد شاكر فيما عرف، أن يوم واحد في عالم الواقع يعادل حياة الخلود في أحد عالمي الوهم. وأن عمر كامل في عالم الواقع، لا يعادل ثانية واحدة في حساباتنا العادية، هناك، في عالم الخلود الحقيقي الموعودين به. فعلق كل آماله على عالم الخلود الحقيقي، عاملًا له غير ناس حياته التي لا يزال قلبه ينبض بها. فعمل بالحكمة التي تقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل للآخرة كأنك تموت غدًا» ومن بعض ما عمله لدنياه، أن طرق باب منزل آل السروجي ليأخذ ابنتهم في خدره، ولقى ترحيبًا كبيرًا من لدن الجميع باستثناء صاحبة الشأن، مما أثار حنق الجميع سواه. فلقد اتسم بسلوك قويم وحكمة سديدة ولم يثنه رفضها له عن أن يلح في طلبه مرة ومرتين وثلاث دون كلل ولا ملل. تمامًا مثلما لم تخرج له من مقر المجري الجديد إلّا بعدما حاول ثلاثًا.

وبدون أن يدري وبامتياز، نجح في الاختبار الأخير له لمعرفة

مدى تغير أفكاره ومعتقداته، والذي أعدته له هي نفسها. وأقبلت عليه روناء لتنهل من حبه الكبير لها، ومن قوة إيمانه العظيمة. وتم عقد قرانهما في أجواء مبهجة بحضور كل مَن يعرفه باستثناء معاذ الذي لم تُعرف نفسيته وأفكاره التي ستتقرر عليهما خطوته القادمة. ليبث في قلوبهم خوفًا، ليس له مبرر. فجعلهم لا يعرفون السعادة المطلقة، إذ ظل إحساسًا بالقلق قابعًا في صدورهم. وذلك على الرغم من كونهم لا يعرفون نواياه، وإن كان سيقم بحماقة، أم سيكتفي بما قد فعله فيما مضى.. وينسَ.

«انتهت»

صدر للكاتب : دماء ملعونة (رواية)

طرق التواصل مع الكاتب :

فيس بوك : https://www.facebook.com/a.j١٤٠٧٠

الصفحة الرسمية على الفيس بوك : / mokamal٩٠٠٠



01020439639